دراسات في تاريخ الجبرتي

مصر في القرن الثامن عشر

الجزء الأول

١- عبد الرحمن الجبرتي
٢- الحياة الفكرية والاجتماعية

تأليف
محمود الشرقاوي

١٩٥٥

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)
(صبحي وشركاه)

مطبعة لجنة البيان العربي
٤ شارع مصطفى باشا كامل – بالظاهر

مقدمة

تاريخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى عن حياة مصر فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، وشطر من التاسع عشر ، الذى سماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ، مرجع من أهم مراجع تاريخنا الحديث ، وأكثرها دقة ، وأوسعها شمولا وإحاطة .

وقد كان هذا المرجع الفريد ، مهملا فى مدى السنين الطويلة الماضية ، لأسباب . منها عنفه فى خصومة محمد على ، والحقائق المؤلمة التى سجلها عن الفترة الأولى من حكمه — وقد اتهم محمد على بقتل الجبرتى ، أو قتل ابنه على ما نراه فى ترجمته — فلم يكن مما يرضى عنه أحد من أسرة محمد على أن يدرس هذا التاريخ ، ويعرف الناس ما سجله عن مؤسس الأسرة . ومنها المشقة البالغة التى يجدها من يطالع هذا الكتاب ، ويريد أن يستخلص منه وقائع التاريخ وحقائقه ، مجردة مما أقحمه عليها من توافه الأخبار ، وصغائر الأمور . وفى هذا الأسلوب الذى كتب به الجبرتى خاصة ، والطريق الذى سلكه فى التأليف .

ومن مظاهر التوفيق للدراسات التاريخية فى هذه السنين الأخيرة ، بدء اهتمامها بهذا المؤرخ الصادق الأمين . الذى سجل من تاريخ مصر فترة لم يكتب فيها أحد سواه . ولا نجد عنها كتابا باللغة العربية ، إطلاقا .

ومن دلائل هذه العناية ، أن تقدر الدولة الجبرتىّ ومؤلفاته ، فيعنى مجمعها اللغوى ، عناية خاصة ، بأفضل ما يؤلف عن ذلك من الكتب .

وتاريخ الجبرتى ، كما تقول دائرة المعارف الإسلامية ، أعظم تواريخ مصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

ويعتبر تاريخه مكملا لتاريخ مصر الذى وضعه ابن إياس وسماه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، فقد وقف هذا بتاريخه عند سنة ٩٢٨ . وتناول الجبرتى ماتلا ذلك من السنين ، إلى نهاية سنة ١٢٣٦ .

ومن الأمور السارة أن نجد مؤرخا مصريا ، هو الجبرتى ، يستأنف ، ويتمم ، ما وضعه عن تاريخ مصر ، مؤلف مصرى آخر ، وهو ابن إياس . فلا تسقط بذلك حلقة من حلقات هذا التاريخ .

وللجبرتى كتاب آخر ، لم يطبع ، هو « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » . كتبه فى تاريخ الحملة الفرنسية وفترة احتلالها مصر . ونجد حديثاً وافياً عنه فى هذا الجزء من كتابنا .

وقد كانت للجبرتى — إلى جانب مواهبه الكثيرة — كما كانت لأبيه من قبله ، مكانة اجتماعية ، وثراء ، مكّنا له من الإحاطة بأسرار الفترة التى أرخ لها أتم إحاطة .

وقد استطعت ، فى نحو أربع سنين ، أن ألخص فى هذه الدراسات ، التى أقدم أول أجزاءها بهذا الكتاب ، تلخيصا أمينا ، شاملا ، دقيقا ، ما كتبه الجبرتى عن تاريخ مصر ، وتراجم رجالها . وأهم أحداثها . ومظاهر حياتها الإجتماعية والفكرية . بحيث أعتقد أن هذه الدراسات ، تغنى عن مطالعة مؤلفاته وتحمّل ما فيها من جهد بالغ ، ومشقة ، وعناء كبير .

وهى ، فوق ذلك ، ترينا صورة جدّ كافية لفهم المظاهر المختلفة لتاريخنا ، والإحاطة بصورة الحياة التى كان يحياها أجدادنا ، وأهل وطننا ، فى هذه الفترة من الزمن . وهى فترة لها أهمية خاصة فى تاريخنا الحديث .

وقد رأيت أن أقسم هذه الدراسات تقسيما موضوعيا ، لا زمنيا ، كما يفعل المؤرخون عادة ، وكما فعل الجبرتى . فجعلت الجزء الأول منها خاصا بالحياة الفكرية والإجتماعية ، ومعه دراسة دقيقة ، وافية ، لأسرة الجبرتى ، وحياته ، ومؤلفاته ، وهو هذا الجزء . والثانى خاصا بأيام المماليك ، مظاهر حياتهم وأخلاقهم ، وتراجم كبارهم . كما يتناول الأزهر والعلماء . والجزء الثالث ، يتناول تاريخ الكفاح الذى قام به شعب مصر ضد ظلم حكامه من الأتراك والمماليك ، كما يتناول كفاحه للإحتلال الفرنسى ، والغزو الإنجليزى . ومعه صفحات من سيرة محمد على .

وتأريخ الحياة الإجتماعية ، التى هى موضوع هذا الجزء ، من الخصائص التى يكاد ينفرد الجبرتى بالعناية بها . وعنايته بها كبيرة ، كماً وكيفا ، وهى من الميزات البارزة التى تجعل لتاريخه أهمية خاصة فريدة .

وقد أدرك مؤرخوا الفكر العربى من الأوربيين ، أهمية هذه الناحية التى يكاد ينفرد بها الجبرتى . فقالت دائرة المعارف الإسلامية « إن هذا التاريخ ، له أهمية إجتماعية كبيرة ، لأنه صورة مفصلة عن حياة الشرقيين . وقد أفاد منه لين وهو يعلق على الطبعة التى أخرجها من ألف ليلة وليلة » .

ومع أن تاريخ الجبرتى هو مادة هذا الكتاب ، وأساس هذه الدراسات . فقد استعنت بمصادر أخرى كثيرة ، أكملت بها ما وجدت أن الجبرتى قصر فيه ، أو وفّيت بها ما لم يوفه ، أو أضفت منها فائدة جديدة . وترى ثبتاً بهذه المراجع ، فى الجزء الأخير من هذا الكتاب .

ويجد القارئ لتاريخ الجبرتى ، وللتاريخ العربى على العموم ، قبل عدة قرون من هذه الفترة ، يجد كثيراً من الأسماء والمصطلحات ، كانت معروفة لأهله ، متداولة بينهم . وهى أثر من آثار غلبة غير العرب على الحكم والسلطان فى البلاد الإسلامية ، ولكن هذه الأسماء والمصطلحات ، لا تمكن معرفتها الآن ، إلا بالرجوع لمظانّ وجودها وتفسيرها . ويجد القارئ تفسيراً لها فى مواضعها من الكتاب .

وأعتقد أننا لن نستطيع فهم حاضرنا ، وإدراك العواطف والعوامل ، التى تسيطر عليه وتوجهه . وكذلك لن نستطيع أن نضع المنهج السليم ، الناجح ، المستقيم ، لمستقبلنا القريب والبعيد ، إلا على أساس من التأمل الدقيق ، والإدراك الشامل ، والفهم العميق ، لهذه الفترة القريبة من تاريخنا ، التى أرجو أن أكون قد وفّقت فى دراستها إلى شىء .

ربيع الثانى ١٣٧٤
ديسمبر ١٩٥٤

محمود الشرقاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

عبد الرحمن الجبرتي : —

أسرته وحياته ومؤلفاته



أسرته

ينتسب الجبرتي وأسرته إلى « جبرت » وهي إقليم الزيلع الاسلامي في شمال بلاد الحبشة . وقد كتب الجبرتي ، عند الكلام على وفاة والده ، فصلا عن وطنه وصفات أهله ، وما فيهم من الحذق والفطانة ، ولطافة الطباع ، وصفاء القلوب ، وما عند نسائهم من الصباحة ، والملاحة والفصاحة ، والسماحة ، وذكر في نساء وطنه شعراً لطيفاً [1].

نزح الجد السابع للجبرتي ، واسمه عبد الرحمن ، من جبرت إلى جدة في أوائل القرن العاشر ، ثم إلى مكة فجاور بها ، وحج مراراً ، ثم جاور بالمدينة سنتين ، ولقي من بالحرمين من كبار الشيوخ . ثم ارتحل إلى مصر واستقر بها وتزوج وولد له وكبر شأنه ، واتصل بالعلماء حتى اختير شيخاً لرواق الجبرت . وقد ظلت مشيخة الرواق ثلاثة قرون يتولاها أولاد الشيخ عبد الرحمن هذا حتى انتقلت عنهم بوفاة الجبرتي . وتزوج الجد الخامس للجبرتي ، الشيخ علي ، زينب بنت الإمام القاضي عبدالرحمن الجويني ، فلما ماتت تركت لولدي الشيخ «أما كن جارية» وقفتها عليهما .

ومات أبو حسن ، والد الجبرتي ، وعمره ست عشرة سنة ، وعمر ولده شهر واحد ، فكفلته جدته أم أبيه ، وتولت أمه تربيته ، وجعل وصياً عليه الشيخ محمد النشرتي الذي اختاره شيخاً للرواق كأسلافه . وكانت ولادة الشيخ حسن في سنة ١١١٠هـ (١٦٩٨م) وللشيخ محمد النشرتي ، وكان شيخاً للأزهر ، كثير من الفضل في تربية حسن الجبرتي ، وكذلك لجدته لأبيه أكبر الفضل في تهيئة سبيله إلى تلك المكانة الممتازة التي بلغ إليها . فقد كانت سيدة ذات ثراء ، لها بيت يشرف على النيل بربع الخرنوب . أقام معها فيه حسن فترة من الزمن يغدو منه ويروح إلى الجامع الأزهر ومعه خادم . ثم احترق هـــذا المنزل واحترقت معه « أشياء كثيرة من المتاع والصيني القديم » .

---

(١) ص ٣٨٩ — ٣٩٢ جزء ١ .

وانتقلت الجدة إلى مصر ، وكان يذهب معها إلى مكان لها بمصر العتيقة فى أيام النيل « بقصد النزهة » وهى التى أعانته على طلب العلم ، وأنفقت عليه بسخاء . وكانت لها أملاك وعقارات وقفت عليه منها وكالة بالصنادقية وما حولها من الحوانيت، وأخرى بالغورية ومرجوش ومنزلا بجوار المدرسة الاقبغاوية . ووقفت أيضا على وجوه البر .

وتزوجت جدته هذه بعد وفاة زوجها ، بالأمير على أغا الطورى ، وكان حاكما على قلاع الطور والسويس والمويلح ، وكذلك تزوج الشيخ حسن ابنة الأمير على أغا هذا .

ولما مات على أغا نصب الشيخ حسن مكانه فى حكم هذه القلاع ، وكان هذا العمل غريباً عليه ، وهو من العلماء ، ولذلك لم يطل شغله له ، فقد أرسل خادماً له يسمى سليماناً الحصافى مشرفاً على قلعة مويلح فقتل هناك ، فتكدر الشيخ وترك هذا العمل وأقبل على الاشتغال بالعلم والتفرغ له . وماتت زوجه ، بنت على أغا ، فتزوج بنت رمضان جلبى بن يوسف المعروف بالخشاب ، « وهم بيت مجد وثروة ببولاق ، ولهم أملاك وعقارات وأوقاف » وكان رمضان جلبى هذا ، مع ثروته ، « إنساناً حسناً رقيق الحاشية » يقول الشعر ويقتنى الكتب .

ومات رمضان جلبى فى سنة ١١٣٩ ، وبقيت ابنته فى عصمة الشيخ حسن حتى ماتت سنة ١١٨٢ عن ستين سنة ، وكانت بنت رمضان جلبى هذه زوجاً بارة بوالد الجبرتى مطيعة له ، تشترى له الجوارى الحسان ، من مالها ، وتزينهن بالحلى والملابس ، وتقدمهن إليه ، وتعتقد أن فى ذلك مثوبة لها ، وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر ، ويشترى الجوارى ، فلا تتأثر بذلك ، ولا تتحرك عندها الغيرة .

وقد روى الجبرتى عن زوج أبيه هـذه قصة غريبة ، خلاصتها أن زوجها عند ما حج فى سنة ١١٥٦ إجتمع به فى مكة شيخ إسمه عمر الحلبى ، وأوصاه بشراء جارية بيضاء دون البلوغ ، وذكر له أوصافاً رغبها ، فلما جاء الشيخ حسن من الحج ظل يبحث عن طلب صديقه حتى لقيه ، فلما اشترى الجارية وأدخلها عند زوجه وحان موعد رحيلها للشيخ عمر الحلبى ، قالت زوج الشيخ له إنى أحببت

هذه الجارية ولا أقدر على فراقها ، وليس لى أولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتى ، وبكت الجارية أيضاً ، ثم دفعت الزوج ثمن الجارية ليشترى به أخرى للشيخ الحلبى ثم أعتقت الجارية وعقدت لزوجها عليها ، وجهزتها وفرشت لها مكاناً مستقلا وكانت لا تقدر على فراقها ساعة . وولدت الجارية لزوجها أولاداً فزاد حب سيدتها لها .
وبقيت هذه الجارية زوجاً للشيخ حسن من سنة ١١٦٥ إلى أن مرضت فى سنة ١١٨٢ فرضت سيدتها لمرضها ، وثقل عليهما المرض ، وقامت الجارية تنظر إلى مولاتها وهى فى غيبوبة ودعت الله أن تموت قبلها ، واستيقظت السيدة فى آخر الليل ووضعت يدها على جسد جاريتها وضرتها النائمة بجوارها وأخذت تناديها باسمها زليخا ، زليخا ، فقالوا لهـا إنها نائمة ، فقالت إن قلبى يحدثنى أنها ماتت . فلما تحقق لها ذلك جلست تبكى أحر بكاء . ثم استلقت على فراشها وماتت بعد جاريتها بيوم واحد . ويقول الجبرتى ، « وهذا من أعجب ما شاهدته ورأيته ووعيته ، وكان سنى إذ ذاك أربع عشرة سنة »

والد الجبرتى :

وكان الشيخ حسن الجبرتى عالماً من أكبر علماء عصره فى العلوم الشرعية والرياضة . تعلم الخط ، فأجاده ، والنقش على فصوص الخاتم ، فأحكمه ، وتعلم اللغة التركية — وهى لغة أهل السيادة والحكم واللغة الفارسية فأجادهما ، « حتى أن كثيراً من الأعاجم والأتراك يعتقدون أن أصله من بلادهم ، لفصاحته فى التكلم بلسانهم ولغتهم » ثم اشتغل بالعلوم الرياضية فأتقن منها الفلك ، والهندسة ، والحساب ، والجغرافيا ، والمساحة ، والأوفاق ، وحل الرموز ، وفتح الكنوز ، و « انتهت إليه الرياسة فى الصناعة ، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة »

ونزل القاهرة عالم متضلع فى الرياضة والحكمة والفلسفة ، اسمه الشيخ حسام الدين الهندى واستقر فى مسجد بمصر القديمة ، فقصده الشيخ وأعجب كلاهما بصاحبه وأحبه ، فلم يزل بالشيخ الهندى حتى نقله إلى داره وأفرد له مكاناً وأكرم نزله وأنفق عليه . وظل مقيماً عنده حتى رحل إلى بلاده .

وأخذ معارف الصوفية ، على الشيخ العارف عبد الخالق بن وفاء ، وكانت له فيها قدم ، وسلك طريق السادة النقشبندية ، وحفظ القرآن فى العاشرة .

وقد تلقى الشيخ حسن عن كبار الشيوخ فى عصره ، فى مصر وغيرها ، فمن شيوخه الشيخ على الصعيدى ، وعلى افندى الداغستانى ، والشيخ عبد ربه سليمان بن أحمد القشتالى الفاسى ، والشيخ عبد اللطيف الشامى ، والشيخ عمر الحلبى ، والشيخ حسين عبد الشكور المكى ، وحسن افندى قطة مسكين ، والشيخ مصطفى العيدروسى ، والشيخ محمد البنوفرى ، وغيرهم كثير . وكان أول شيوخه وهو فى الثالثة عشرة ، الشيخ حسن الشرنبلالى الصغير . وكذلك تلقى عن الشيخ كبار العلماء طبقة بعد طبقة . فمنهم الشيخ أحمد الراشدى ، والشيخ إبراهيم الحلبى والشيخ أحمد العروسى . والشيخ محمد الصبان ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد النفراوى . وتلقى عنه عدد كبير من أهل الروم والشام والمغرب والحجاز والداغستان . وتلقى عنه بعض أمراء المماليك أيضاً علوم الأدب والفقه ، فقد ذكر الجبرتى فى ترجمة عثمان بك ذو الفقار أنه « قرأ على الشيخ الوالد تحفة الملوك فى المذهب ، والمقامات الحريرية ، وكتبها له بخطه الحسن فى خمسين جزءاً » .

(وكان والد الجبرتى يدرس فى الأزهر علوم الحكمة والهيئة والهندسة والتوقيت)، وهو آخر من درسها فيه . وكانت له ثلاثة بيوت يتنقل بينها . بيت فى الأزبكية ، على شاطئ النيل ، وبيت فى بولاق ، وآخر بالصنادقية ، بجوار الأزهر فكان طلابه وتلامذته يقصدون إليه فى بيته لتلقى الدرس ، وكان يفضل أن يكون ذلك ببيت الصنادقية كيلا يشق عليهم ، وكان بعض تلامذته هؤلاء يقيم فى بيته طاعماً كاسياً ليتعلم ويراجع ما يشاء فى مكتبة الشيخ العامرة ، التى جعلها مباحة ميسرة لمن يشاء القراءة والمراجعة والاستفادة . وكان ألصق هؤلاء به الشيخ محمد النفراوى ، والشيخ محمد الصبان ، فقد كانا بمنزلة أولاده لا يفارقانه إلا وقت إلقاء دروسهما . وكان إذا أتاه طالب فرح به ، وأقبل عليه ، ورغبه فى طب العلم ، وأكرمه ، وخصوصاً إذا كان غريباً ، وربما دعاه للاقامة عنده ، كما فعل مع الشيخ حسام الدين الهندى ، وكما فعل مع الشيخ محمد الغلانى الكشناوى الذى قدم إلى

مصر ثم إلى الحجاز ، فلما عاد منه أنزله عنده هو وزوجه وعبيده وجواريه . وبقى مقيما عنده حتى أتم غالب مؤلفاته ، ومات وهو ضيف عليه ؛ ومن التلاميذ من أقام فى بيت الشيخ الجبرتى عشرين عاماً « لا يتكلف إلى شيء من أمر معاشه ، حتى غسل ثيابه ، من غير ملل ولا ضجر » وصار من جملة عيال الشيخ .

وكان الشيخ كذلك كبير القدر ، جليل المكانة ، واسع الثراء ، طيب العيش . له فى كل بيت من بيوته الثلاثة ، المماليك ، والعبيد ، والجوارى البيض والسود ، وهو ينتقل بين هذه البيوت ، ومعه تلامذته وأصحابه . ليباسط أخصاءه منهم ويمازحهم ، فلم يكن ، كبعض العلماء ، متعنتاً متزمتاً ، يروح عن جلسائه من هؤلاء الخاصة بالمناسبات والنوادر والأدبيات والشعر والمواليا والمجونيات والخطابات اللطيفة والنكات الظريفة ، ويذهب معهم إلى مواطن النزهة . يشتغلون بالعلم ومطارحة المسائل ، وأحياناً بالمباسطة والمفاكهة . وكان مع ذلك ، وقوراً محتشماً ، مهيباً محبوباً لا يعادى ولا يخاصم ، ولا يشتغل بأمور الدنيا ، متواضعاً قنوعاً ، مقبلا على الكبير والصغير على سجيته ، ولا يدعى علماً ولا مشيخة ، ولا يرضى أن تقبل يده ، حتى من تلاميذه . له منزلة كبيرة عند الأمراء والولاة والأعيان ، يزورهم ويزورونه ، ويتشفع به إليهم الناس فتقضى حاجاتهم . وكان من أصدقائه من ولاة مصر ، على باشا الحكيم ، وراغب باشا ، وأحمد باشا كور — أى الأعور — ومن أمراء المماليك عثمان بك ذو الفقار ، حج معه ثلاث مرات من ماله الخاص ، ولم يقبل من عثمان بك ، وكان أميراً على الحج ، سوى الهدايا .

وأراد الأمير إبراهيم كتخدا أن يشترى له داراً واسعة أو يبنيها ، بدلاً من داره التى بالصنادقية ، فلم يقبل ، وكذلك عبد الرحمن كتخدا . ولم يستطع أحدهما أن يجبره على ذلك لمكانته وفضله . وراسله سلطان تركيا ، السلطان مصطفى ،[1] وأرسل إليه الهدايا والصلات والكتب . وكانت لهذا السلطان معرفة وعناية بعلوم الرياضة والنجوم . وكذلك أهديت للشيخ الهدايا من ولاة تونس ، والجزائر ، وأكابر الدولة فى تركيا . يذكر الجبرتى ، فى حوادث شهر شوال من سنة ١١٨٢

(١) تولى السلطنة سنة ١١٧١ ومات فى سنة ١١٨٧ [١٧٥٧ — ١٧٧٣ م] .

أن على بك الكبير أرسل هدية حافلة وخيولا مصرية ، إلى السلطان ورجال الدولة، وكتب مع هديته رسائل « والتمس من الشيخ الوالد أن يكتب له أيضاً مكاتبات ، لما يعتقده من قبول كلامه وإشارته عندهم »وقد طلب على بك فى رسائله تلك عزل عثمان بك المظم من ولاية الشام . وكان على بك الكبير صديقاً للشيخ ، كبير الثقة فيه ، كثير المحبة له .

وفى ترجمة الأمير أحمد البارودى — وفيات سنة ١١٨٨ — أنه كان يزور الشيخ حسن الجبرتى فى بيته كل يوم جمعة ، وأنه التقى به مرة فى الطريق ، وهو راكب فى أبهته ، والشيخ راكب على بغلته ، فعند ما رآه نزل عن جواده ، وقبل يده ، فأكبرالشيخ ذلك واستحيىمنه واستعظمه . والتمس من الأمير أن يقيد به بعض الطلبة ليقرئه شيئاً من الفقه والدين ، فقيّدبه الشيخ عبدالرحمن العريشى ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد .

وكان الشيخ حسن محباً للكتب جماعاً لها ، يبذل فى اقتنائها المال الكثير ، فكانت داره عامرة بالكتبالنادرة و بعضها باللغة التركية والفارسية ، مثل الشاهنامه وتواريخ العجم ،[1] وفيها آلات فلكية وهندسية . وأفرد فى بيته مكاناً خاصاً جمع فيه الكتب المتداولة بين علماء عصره فى الفقه ، والحديث والتفسير والتوحيد والمنطق واللغة وغيرها ، فكان العلماء والطلاب يجيئون هذا المكان ويأخذون ما يشاؤون من الكتب بغير استئذان ، وكان منهم من يأخذ الكتاب ولا يرده ، ومنهم من يأخذ كتاباً ويرد غيره ، والشيخ سمح لا يمنع . وكانت عنده أيضاً « التشاويه والتصاوير البديعة الصنعة ، الغريبة الشكل . وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاس ، وآلات الإرتفاع والميّالات والأرصاد والأسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية ، وأدوات غالب الصناع ، مثل النجارين والخراطين والحدادين والسمكرية والمجلدين والنقاشين والصاغة والرسامين » ، وكان يجمع الحاذقين من أهل هذه الصناعات عنده ليتعلم منهم ، ويعلمهم ، حتى تعلم خدمه بعض هذه

(١) كان فى خزانة كتبه كتاب زيج الراصد السمر قندى باللغة الفارسية ، وكان يقول إنه ليس فى الدنيا من هذا الزيج سوى ثلاث نسخ ، ونسخته مكتوب عليها بخط رستم شاه أنها شريت لدار سلطنة هراة بأثنى عشر ألف دينار .

الصناعات فصاروا « يقطعون البلاط بالمناشير ويسحونه بالمساح الحديد والمبارد ، ويهندسون اعتداله بالمساطر والقياسات بالبيا كير ويرسمونه أيضاً » .

ولما كثر عنده الراغبون في تعلم هذه الصناعات جعل لهم معلمين يعلمونهم ، كان الطالب من أبناء العرب يتقيد بالشيخ محمد النفراوى ، وإن كان من الأعاجم تقيد بمحمود أفندى النيش . وانصرف هو بعد ذلك إلى دراسة الفقه والفتوى ، وكان إماما في مذهب أبي حنيفة ، وقد رسم بنفسه كثيراً من المنحرفات والمزاول على الرخام والبلاط ونصبها في مساجد كثيرة كالأزهر ، والامام الشافعي ، وقوصون والأشرفية ، والسادات .

وتجاوزت شهرة الجبرتى حدود مصر والبلاد الإسلامية ، فحضر إليه طلاب من الأفرنج — في سنة ١١٥٩ — ليتعلموا عنده علم الهندسة ، وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ثم « ذهبوا إلى بلادهم ، ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القوة إلى الفعل » وضعوا به طواحين الهواء ، وآلات جر الأثقال واستنباط المياه .

واشتغل الشيخ حسن الجبرتى أيضاً بعلوم الطب ، وكان يضع خبرته في ذلك لخير الناس ونفعهم ، كان الشيخ إبراهيم الصيحانى الغزى ، مفتى الحنفية في غزة ، من تلاميذه في الأزهر . فلما عاد إلى بلده كان يرسل إلى شيخه في كل سنة « جانبا من اللوز المر في غلق ، مقدار عشرين رطلا ، فنخرج منه دهنه ونرفعه في الزجاج لنفع الناس في الدهن ومعالجات بعض الأمراض والجروحات » .

وفي سنة ١١٧٢ كان فساد الموازين قد أصبح مشكلة كبرى للناس وللحكام في مصر ، فاشتغل الشيخ بإصلاحها وأحضر الصناع لذلك من الحدادين والسباكين وحرر المثاقيل الصنج ورسمها على أصولها وهندستها .

وأنفق في ذلك أموالا من عنده ، ثم أحضر كبار القبانية والوزانين وعرفهم طريق الصواب ، وأصلحوا آلتهم ، واستمر العمل في ذلك أشهراً ، ثم ألف لهم في ذلك كتابا سماه « الدر الثمين في علم الموازين » .

وكان الشيخ أيضاً يقول الشعر ، وقد أورد الجبرتى من شعر أبيه شيئا قليلا

بعضه في النحو ، وبعضه في ذكر من يدخل الجنة من الحيوان ، كناقة صالح ، وعجل إبراهيم ، والحوت والبقرة وغيرها ، ومنه شعر في نظم ساعات النهار ، وبعض نصائح طبية . وكله شعر تافه ثقيل ، كشعر الفقهاء .

أما مؤلفاته ، التي دونها ابنه عبد الرحمن ، فهي تدل على ثقافته المتنوعة المختلفة ، فمن ذلك كتبه : نزهة العين في زكاة المعدنين ، والأقوال المعربة عن أحوال الأشربة ، وكشف اللثام عن وجوه مخدرات النصف الأول من ذوى الأرحام ، وبلوغ الآمال في كيفية الاستقبال ، ومؤلفات أخرى في العروض . وشرح الدر المختار ، ومناسك الحج ، وتقييدات على العصام والحفيد والمطول والمواقف والهداية ، وحاشية على شرح قاضي زاده على الجغميني ، وبراهين هندسية شتى ، وغير ذلك .

ومع هذه المكانة المرموقة ، التي بلغها حسن الجبرتي ، وما كان له من جاه ومجد وعلم ، فقد كان متواضعاً ، « يجلس في آخر المجلس على أي هيئة كان ، بعمامة أو بدونها ويلبس أي لباس ، ويتحزم ولو بكنار الجوخ ، أو خرقة أو شال كشميري ، ولا ينام على فراش ممهد ، بل كيفما اتفق ، وكان أكثر نومه وهو جالس » ، وكان شجاعاً لا يحب الرياء ، يصوم رجب وشعبان ورمضان ولا يقول إنه صائم . أراد الأمير يوسف الكبير أن يدخل مسجداً في عمارة بيته وسأل الشيخ أن يفتيه بهدمه وبنائه في مكان آخر ، فمنعه من ذلك فامتنع . وكانت له في العلم والفتيا مكانة كبيرة . فانكب عليه الناس يستفتونه ، وتقرر في أذهانهم تحريه الحق . حتى أن القضاة لا يثقون إلا بفتواه . وكان كريما سمح النفس ، يكرم الضيف ، ويتلقف الوافد ، ويراعي الأقارب والأجانب بشوشا ، يخدم جلاسه بنفسه .

قدم مصر الشيخ إبراهيم بن أبي البركات العباسي المشهور بالسويدي ، في سنة ١١٧٥ ، فأنزله الشيخ في بيته ، وصار ينتقل معه ومع تلاميذه إلى بولاق وغيرها من المتنزهات ، ثم حل بالسويدي مرض فأنزله ببيته في بولاق على النيل وقيد ، لخدمته جماعة من عبيده ، فكان كلما اختلى بنفسه ، وهبت عليه نسمات النيل المنعشة ، أخذ القلم ونقش على جدران البيت وأخشابه قصائد المدح في مضيفة العالم الكريم ، وفي وصف النيل ورياضه وزهوره فكتب من ذلك عشرين قصيدة ، ظلت منقوشة

فى أماكنها زمناً ثم اندرست

وكان الشيخ محمد النفراوى قد بلغ النهاية فى العلوم الشرعية ، وأرد أن يتعلم الحـكمة والرياضة ، فأحضره والده للشيخ حسن فى سنة ١١٧١ فرحب به واغتبط بما رأى من حسن استعداده ، وأعطاه مفتاح خزانة منزله ليضع فيها كتبه ومتاعه واشترى له حماراً ، ورتب له مصروفاً وكسوة . وأرسل الشيخ أحمد الدمنهورى خمسة أسئلة إلى على بك الكبير وقال له : سل فيها العلماء الذين يترددون عليك إن كانوا يزعمون أنهم علماء ، فأعطاها على بك للشيخ حسن . فكان لبقاً حكيما مترفعاً حيث قال إنها وإن كانت من عويصات المسائل يجيب عنها ولدنا الشيخ محمد النفراوى . فمكن ، مع لباقته وحكمته وترفعه ، لتلميذه أن ينال شهرة ومكانة بين العلماء ، وعند على بك .

وكانت تقال فى الشيخ المدائح ، فكان ، تواضعاً منه ، يقبلها ويجيز قائلها ، ثم يمزقها . وكان ، مع ثرائه العريض ، وما بلغ من مكانة فى العلم ، وفى الحياة ، يشتغل بالتجارة .

وهكذا عاش والد الجبرتى إلى أن جاءت سنة ١١٧٩ فتوفى ابنه ، أبو الفلاح على ، أخو الجبرتى لأبيه ، وكانت عمره إثنى عشرة سنة ، وكان الشيخ قد أنجب من زوجاته وسراريه أكثر من أربعين مولوداً لم يعيش منهم سوى على هذا ، وعبد الرحمن ، فلما مات ابنه على ثقل عليه الحزن ، وتوالت عليه الآلام والأمراض ، وترك بيوته على النيل ولزم بيت الصنادقية ، وقلت حركته ، ولكنه لم ينقطع عن الأملاء والأفادة والتحقيق ، ولم يزل كذلك حتى تعلل بالهيضة الصفراوية إثنى عشر يوما ، ثم مات عن سبع وسبعين سنة فى يوم الثلاثاء غرة صفر من سنة ١١٨٨ — أبريل سنة ١٧٧٤ — وصلى عليه فى الأزهر بمشهد حافل جداً ، ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء ، بجوار الشمس البابلى ، والخطيب الشربينى ، وقيلت فيه المراثى الكثيرة من كبار شعراء العصر .

ذلك هو ، أبو التدانى ، نور الدين حسن الجبرتى ، أبو عبد الرحمن .

عبد الرحمن الجبرتي :

أما ابنه ، أبو العزم عبد الرحمن ، صاحب عجائب الآثار ، فقد ولدته إحدى السرارى فى سنة ١١٦٧ هـ « ١٧٥٤ م » بالقاهرة ، ولم أعرف أن التاريخ ذكر لنا عن هذه الجارية شيئاً ، هل كانت بيضاء أم سوداء ، ومن أى جنس أو بلد هى ، ولكنى أعتقد أنها كانت بيضاء .

أرسله أبوه ، وهو طفل إلى مدرسة السنانية ، القريبة من منزلهم بالصنادقية ، ليحفظ فيها القرآن ، فإذا عاد تلقى على أبيه وعلى بعض الشيوخ الذين يترددون على بيته ، بعض العلوم . وأتم حفظ القرآن الكريم فى سن الحادية عشرة ، ثم رغب الشيخ عبد الرحمن العريشى إلى فى أبيه أن يلحقه برواق الشوام ، ليلقنه مذهب الحنفية ، فسلمه إليه .

وبادر أبوه فزوجه ، وهو فى الرابعة عشر ، فى سنة ١١٨٢ ، ولم يذكر لنا التاريخ أيضاً عن هذه الزوج شيئاً ، وقد سجل شاعر العصر الشيخ عبد الله الأدكاوى هذه الزيجة بقصيدة قدمها إلى والد الجبرتى قال فى ختامها وبيت تاريخها : —

هذا هناء محبك الـ ــ داعى لكم بسمو قدرك
والحال قـــد أرّختـه ــ شمس البها زفت لبدرك

وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ فى الأزهر بعد ذلك ، ثم يمضى إلى بيته فيتلقاه أبوه متحدثاً إليه فى التاريخ وأحداث عصره ، فقد كان أبوه محبا للقصص ، والأغانى ، ودارساً معه ما يشتغل به الشيخ من علوم الفلك والرياضة والحكمة . وكذلك كان زوار الشيخ من كبار العلماء والشعراء والأمراء يلقاهم الجبرتى الصغير فيتحدثون إليه ويحدثهم ، ويفيد من علمهم وأدبهم وحسن توجيههم . وتتمكن العلائق بينه وبين الأمراء منهم خاصة .

وبقى حاله كذلك حتى مات أبوه ، وهو فى سن الثانية والعشرين ، وترك له ثروة ضخمة ، مادية وأدبية . ترك له من الثروة المادية بيوته فى بولاق والصنادقية ومصر القديمة ، وأرضا له بالقرب من كفر الزيات فى بلدة « إبيار » وأوقافا كبيرة على مسجد بين رشيد والأسكندرية ، على بحيرة إدكو ، تنظر عليها بعد أبيه ، كان

أوقفها جده عليّ فى أيام الملك الأشرف قايتباى ، وكان الملك الأشرف يعتقد فى هذا الجد اعتقاداً كبيراً . وكذلك كان الجبرتى شيخاً على مقبرة الطحاوى بالقرافة .

وكان هذا الوقف « عدة أماكن وقيعان ، وأنوال حياكة ، وبساتين ، ونخيل كثيرة » . وكان بيته على النيل يرتفع عن مستوى الماء عشرين درجة ، وذكر الجبرتى أنه أجرى عمارة فى بيت الصنادقية ، بدأها فى سنة ١١٩١ وأتمها فى السنة الثانية . وأنشأ الشيخ مصطفى الصاوى فى ذلك قصيدة نقشها الجبرتى فى مجلسه من البيت .

وقد جمل الجبرتى من بيته ذاك ، بهذه العمارة ، قصراً أنيقاً ، فيه حديقة صغيرة ، وبئر ، ومساكن للخدم والعبيد ، وأخرى للضيوف . وحجرة متسعة للمذاكرة مع الطلبة ، والتدريس ، وأقام فيه أعمدة من الرخام المختلف الألوان ، نقش جدرانه بالخشب المحفور ، والقيشانى الملون ، ونثر فى حجراته الآنية الفاخرة ، والأرائك الثمينة ، وفرش أرضها بالسجاجيد الغالية والطراريح الحريرية ، ولبّس أبوابه بالصدف والنحاس البراق ، وعلق الثريات من البلور ، وجعل فيه حجرة رحبة للكتب ، وأنفق فى هذه العمارة مالا كثيراً .

وسكن الجبرتى ، فترة من الزمن ، فى بيت يطل على بركة الرطلى . وكانت ، كما يقول ، « يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف الريح البحرى ، وليس فى برها الآخر سوى الأشجار والمزارع ، وتعمرها المراكب والسفائن » .

أما الثروة الأدبية التى خلفها له أبوه ، فهى تلك المكانة المرموقة ، والمحبة التى ربطت بينه وبين علماء عصره وأهل الحكم والثراء فيه ، وذلك المجد الأدبى والعلمى الذى صار إليه اسم الجبرتى ، واسم آبائه وأجداده من قبل ، وتلك الكنوز العظيمة النادرة من الكتب ، التى أفنى أبوه فى جمعها مالا عظيما وجهداً عظيما .

بق الجبرتى ، بعد وفاة أبيه ، متصلا بالأزهر وشيوخه ، يحضر دروسهم فيه ويزورونه فى بيته كما كانوا يزورون أباه من قبل ، باحثين مدارسين ، فلما كبر الجبرتى وأجازته شيوخه أخذ يلقى دروساً فى الأزهر وفى بعض المساجد ، وفى بيته .

وقدم مصر ، فى السنة التى ولد فيها الجبرتى ، عالم كبير من اليمن ، هو السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، فلما تعرف إليه الجبرتى فيما بعد ، أعجب به ولازمه وصادقه ، وأصبح من المواظبين على دروسه مع طائفة كبيرة من إخوانه، الذين تبوؤا ، فيما بعد، مكان الصدارة العلمية والأدبية فى مصر ، فدرس لهم الزبيدى فصيح تعلب ، وفقه اللغة للثعالبى ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وسمعوا كثيراً من شرحه للقاموس ، كما سمعوا فى الأمالى والشمائل . ودرس الجبرتى علوم الفقه ، ثم مال ميل أبيه لدراسة الفلك والحساب والهندسة . ومال إلى التصوف ، وكان من مريدى الشيخ محمود الكردى يرافقه فى ذلك الشيخ عبد الله الشرقاوى . ودرس الطب وألف فيه .

وفى أواخر سنة ١١٩٥ تزوج الجبرتى مرة أخرى ، ولم يقل لنا أين ذهبت زوجه الأولى ، تزوج ربيبة صديقه على عبد الله درويش الرومى ، برغبة منه . وكان الرومى هذا رجلا يعمل عند المماليك ، « حسن السمت ، نظيف الثياب ، وجيه الطلعة ، مهيب الشكل ، سليم الطوية ، مقبول الروحانية ، نيف على التسعين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزه بأسنانه » وكان مثقفاً غزير الأطلاع ، وربيبة على الرومى هذه هى التى أنجبت للجبرتى ولده خليلا ، ومات صهره هذا فى سنة ١١٩٩هـ وظل الجبرتى يفيد ويستفيد ، ويباشر شئونه الخاصة ، ويراجع فى مكتبة أبيه الحافلة ، حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، فى صفر من سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨م فترك القاهرة إلى مزرعته فى « إبيار » ثم عاد إليها بعد قليل ، عندما أرسل العلماء ، بأشارة نابليون، إليه وإلى غيره ممن هاجروا، ليعودوا . ولما ألف الجنرال منو ، قائد الجيش الفرنسى بعد نابليون ، الديوان الثالث . اختير الجبرتى عضواً فيه ، وكان أعضاؤه تسعة . ولما دخل العثمانيون القاهرة بقيادة يوسف باشا ، لأخلائها من

الفرنسيين ، وأخـذ هؤلاء بعض كبار الشيوخ من أعضاء الديوان رهائن ، بقى الجبرتى . والبكرى ، والسرسى والأمير ، أحراراً ، وأمرهم الفرنسيون بأن « يكون نظرهم على البلد » أى يكون لهم الإشراف على شئون القاهرة .

وبعد انتهاء الحملة الفرنسية على مصر ، ودخولها مرة أخرى فى حكم الدولة العثمانية . دون حوادث هذه الفترة فى كتاب سماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسين » ، وكان له من مكانته إذ ذاك ، وعضويته للديوان ، ومن علاقاته الخاصة ، وصداقته الوطيدة للشيخ إسماعيل الخشاب ، كاتم أسرار الديوان ، ما يمكنه من معرفة دقائق الأسرار . وقد أهدى كتابه مظهر التقديس هذا إلى الوزير يوسف باشا ، فلما عاد إلى اسطنبول عرضه على السلطان سليم الثالث ، فأمر كبير اطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى اللغة التركية ، ففرغ من ذلك سنة ١٢٢٢ — ١٨٠٧ م وترجم بعد ذلك إلى هذه اللغة أحمد أفندى عاصم سنة ١٨١٠ .

ويبدو مما كتبه الجبرتى فى الفصول الأخيرة من كتابه ، أنه كان يشكو الأسقام والمرض . يشير إلى ذلك فى آخر حديثه عن سنة ١٢٢٥ حيث يذكر « تشويش البال ، وهم العيال ، وتكدر الحال ، وكثرة الأشتغال ، وضعف البدن ، وضيق العطن » .

ويذكر كثير من المؤرخين ، أن الجبرتى اشتغل فى أواخر حياته مؤقتاًللصلاة وهلالى رمضان وشوال فى بلاط محمد على ، ولم يذكر هوشيئاً من ذلك فى تاريخه ، وبعض المؤرخين يقول إن الذى تولى هذا العمل هو ابنه خليل .

وقد أصيب الجبرتى فى آخر حياته بمحنة قاسية، ففى صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ — ١٩ يونيو ١٨٢٢ — كان خليل عائد من قصر محمد على فى شبرا ، بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضوا عليه ، وخنقوه . ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح الصبح عرفه الناس ، ووجدوا على صدره دفاتر مكتوبة ، وأسطرلابا لرصد النجوم والكواكب .

وتناقل الناس ، والمؤرخون من بعدهم ، شائعات عن اشتراك سليمان أغا

السلحدار ، ومحمد بك الدفتردار ، صهر محمد علي ، في هذه المؤامرة ، وعن استئذان الدفتردار لمحمد علي في تدبيرها . وهي شائعات يذكرها المؤرخون ليفندوها . وقد وردت في دائرة المعارف الإسلامية على أنها صحيحة ، وأن الذي قتل هو الجبرتي نفسه [١] .

وقد أصيب الجبرتي بموت ابنه على هذه الصورة ، وهو بين المرض والكبر والضيق ، بنازلة شديدة حطمت حياته ، فترك الكتابة والتأليف ، وانقطع عن القراءة ، وألح عليه الحزن ، وأكثر من البكاء ، حتى ذهب بصره . وبقي في داره مريضاً ، حزيناً ، أعمى ، حتى مات في سنة ١٢٤١هـ — ١٨٢٥م [٢] وأعقب بنتاً ، عاشت مغمورة من بعده ، وولداً ، أو ولدين ، على خلاف بين المؤرخين .

وبعد وفاته احترق منزله بالصنادقية ، واحترقت معه المكتبة العظيمة الحافلة التي تركها له أبوه ؛ والتي زاد عليها هو زيادة كبيرة . ويذكر بعض المؤرخين أن جزءاً من تاريخ الجبرتي ، احترق ايضاً . وكان يتضمن حوادث ما بعد سنة ١٢٣٦ ودفن الجبرتي مع أبيه ، ببستان العلماء .

صفاته وأخلاقه :

كان الجبرتي ، كما رأينا ، ورث عن أبيه وعن أسرته مالا ومجداً ، وهو مع ذلك متواضع . يذكر فيما سجله من مناقشات أعضاء الديوان أيام نابليون ، أشياء يقول إن « بعض الأعضاء » رد بها على الوكيل فوربيه ، ولكنه لا ينسب ذلك لنفسه

---

(١) مادة « الجبرتي » ص ٢٧٩ من العدد الثامن ، المجلد السادس من الترجمة العربية وفي مقدمة الترجمة الفرنسية لعجائب الآثار أيضاً أن الذي قتل هو الجبرتي نفسه .

(٢) اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاته . وأكثرهم على أنها كانت يوم ٢٨ رمضان سنة ١٢٣٧ ولكن المرحوم جورجي زيدان أثبت — في الجزء الرابع من تاريخ أدب اللغة العربية — أنه عاش إلى نصف ربيع الأول من سنة ١٢٤٠ كما حقق الأستاذ خليل شيبوب من طريق آخر — في كتابه « عبد الرحمن الجبرتي » — أنه مات في هذا التاريخ الذي ذكرته . وذكر تلميذاه ، البناني والخضراوي ، في نزهة الفكر ، أنه عاش إلى سنة ١٨٢٦

ويكتب عن وطنه بروح الاعتزاز والفخر ، وعن أسرته ، ولكنه يخشى أن ينساق إلى التفاخر فيستدرك قائلا ، إنه يذكر ذلك « بقصد التعريف بالنسبة » وعند ماذكر أعضاء الديوان عمّى في اسمه فقال « وكاتبه » . ولعله فعل ذلك عامداً ليحتاط لنفسه من غضب المصريين أو العثمانيين بعد عودتهم للقاهرة ، وهو إلى ذلك رجل خيّر ، رقيق العاطفة ، نبيل الخلق . ضاقت الحياة بصهره ، علي درويش ، وتعطلت أسبابه ، فنقله وأسرته إلى بيته ، وعاش معه حتى مات ، وتولى دفنه ، وأثنى عليه ثناء كبيراً ، وقال إنه أفاد منه في التراجم التي ضمنها كتابه .

وكان عبد الرحمن رجلا سمحاً يقدر الجمال ، متأنقاً في حياته ، كان أصدقاءه الخلص كالشيخ حسن العطار والشيخ إسماعيل الخشاب يدعونه إلى مجالس الغناء . حيث يقول ثانيهما :

يا سيدى وسنــــدى ويا عريق المحتــــد
يا راحتى ، وراحتى وساعدى ، وعضدى
أدعوك تأتى مسرعاً ويا لذاك من يد
نؤم قصراً جامعـــاً كل المعانى الشرّد
نصغى إلى مزهر مَن أضحى فريد البـــلد

وكان هو يدعوهما أيضاً إلى منزله حيث يقطعان الليل في الحديث والسمر والمنادمة، فيجولان في كل فن من الفنون ، « تارة ينشا كيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان، وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصــل وإحسان » ويلاحظ هنا أن الجبرتي يقول : « تارة ينشا كيان » ، « ويترنمان » ولا يقول : ننشا كى ، ونترنم ، وكان هذان الصديقان كثيراً ما يبيتان عنده .

وعرف الخشاب فتى فرنسياً جميل الطلعة اسمه ريج ، روى الجبرتي شيئاً من غزله فيه .

ويذكر الجبرتي أنه لقى في طنطا شيخاً اسمه أحمد السماليجى الشافعى ، كانت له امرأة بارعة الجمال ، وله منها ولد اسمه أحمد « كأنما أفرغ في قالب الجمال ، وأودع

بعينيه السحر الحلال » ثم يذكره بإعجاب فيقول إنه « حضر إلى ، وسلم على ، وآنسنى بحسن ألفاظة ، وجذبنى بسحر ألحاظه » . ويقول الجبرتى فى ترجمة بعض أصدقائه إنه « كان يحب الجمال » ثم يتبع ذلك — وكأنه خشى التهمة — بأنه كان لا يترك الصلاة ، أينما كان .

ومما يدل على رقة العاطفة أن الجبرتى يمدح صديقه هذا بأنه كان يمر فى الطريق يفرق الطعام على الفقراء ، والأطفال و « الكلاب » .

وكانت فيه صفات العالم ، كان يسهر الليل يراعى مطالع النجوم . ولما قامت ثورة القاهرة على الفرنسيين ، أتلف العامة فيما أتلفوا أجهزة علمية وفلكية ، فأبدى شديد أسفه على ذلك ، وندد بجهل العامة وسفههم ، وحزن على فقد هذه الأدوات التى لا تقدر بقيمة « عند من يعرف صنعتها » . وعرض عليه رجل جزائرى أن يشترى كتاب زيج الراصد السمرقندى ، فأبى أن يبيعه بأى ثمن . ولما علم أن الفرنسيين لديهم كتب ذات قيمة ، زار الدار التى خصصوها لذلك ، وأبدى إعجابه بها ، وذكر النظام الذى وضعوه للمطالعة فيها ، وبعض الكتب التى رآها . وأثنى على نشاطهم العلمى ورغبتهم فى البحث والمعرفة وإخلاصهم .

وكانت فيه شجاعة العالم أيضاً ، فكبار المماليك أصدقاؤه وأصدقاء أبيه ، وكذلك كثير من الولاة والسادة الحاكمين ، وكبار الشيوخ إما أساتذته أو أصدقاؤه ، ومع ذلك لم يعف أحداً منهم من النقد والمؤاخذة ، إذا وجد فى صفاته أو سلوكه ما يوجب النقد . وقد ذكر فى مقدمة كتابه أنه لم « يقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم يداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى ، أو غرض جسمانى » . وقد لازمته هذه الشجاعة فعلا فى جميع ما دون من حوادث التاريخ الذى سمعها أو شاهدها . كما التزم أيضاً أدق شروط الأمانة العلمية . شأن العلماء ، فهو يدون وثائق الحملة الفرنسية ، والشروط التى وضعت بين رجالها ورجال الدولة العلية للانسحاب من مصر ، ثم يقول إنه نقل ذلك بحروفه « وما فيه من خطأ أو تحريف فهو طبق الأصل المطبوع بالمطبعة الفرنساوية باللغة العربية » .

وكذلك حديثه عن جماعة من علماء الآثار الإنجليز زاروا الهرم الأكبر وأبا الهول ، وآثار الفراعنة فى الصعيد . ويسّر لهم محمد على أن يأخذوا من آثار مصر أشياء ذات قيمة شروها بثمن بخس ، وأخرجوها من مصر .

وسيجىء هذا وذاك فى موضعه من الكتاب .

وللجبرتى ملاحظات تدل على سلامة الفطرة . من ذلك إعجابه بنابليون لأنه سافر من القاهرة إلى السويس « فلم يكن معه طباخ ، ولا فراش ، ولا فرش ، ولا خيمة » وكان كل ما أخذه معه « ثلاثة طيور دجاج محمرة ، ملفوفة فى ورقة » .

وهى ملاحظة تدل على حبه للبساطة ، وهو غنى مقتدر ، وبعده عن المظاهر ومعرفته لأقدار الرجال من تصرفاتهم العادية التى قد يمر بها غيره فلا يستنبط منها شيئاً ، ولا تدله على فضيلة أو خصيصة أو محمدة .

وكذلك ثناؤه على الفرنسيين ، لأنهم لم يكونوا يتجاوزون الرسوم التى فرضوها على الأقضية ، أو رسوم التسجيل . ولأنهم لم يبادروا بقتل سليمان الحلبى ، عند ما اغتال الجنرال كليبر ، بل حاكموه وسألوه وناقشوه وناقشوا الشهود . وأثنى عليهم لأشياء أخرى كثيرة سنجدها فى مكانها . وهذا كله دليل على رجحان عقله ، وسداد تفكيره ، وبعده عن التعصب الضيق . كذلك أثنى على الإنجليز ، عند ما وصف صديقه الألفى بأنه عند ما سافر إلى بلادهم « تهذبت أخلاقه ، بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة حكامهم ، وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم ، وعدلهم فى رعيتهم — مع كفرهم — بحيث لا يوجد فيهم فقير ، ولا مستجد ، ولا ذو فاقة ولا محتاج » .

ومن سلامة الفطرة إدراكه الفرق بين العقيدة والعمل . فقد ذكر فى سياق حديثه عن دقة رجال الحملة الفرنسية فى صرف العملة ، ومقارنة ذلك بما كان يحدث فى غير عهدهم هذه الجملة « ... لأن جميع معاملة الكفار سالمة من الغش والنقص ، بخلاف معاملات المسلمين » .

وهو رقيق العاطفة . ذكر أن محمداً علياً زوج بعض أولاده ، فقدمت لأمهم

الهدايا من نساء المماليك والسادة ، وكان بعضهن فى ضيق من العيش ، فاستدنّ ليقدمن الهدية ، ولكن السيدة زوج محمد على لم يرق فى عينها بعض الهدايا ، وعابت على صاحباتها ذلك فى المجلس ، وردّتها ليقدمن خيراً منها . وقد أفاض الجبرتى فى ذكر ألمه لما أصاب هؤلاء النسوة من الكرب والخجل ، وكسر الخاطر ، وانكساف البال ، بعد ما أصابهن وأصاب أزواجهن من قسوة محمد على وظلمه .

ويبدو مما كتبه الجبرتى فى مواضع كثيرة متفرقة من كتابه ، أنه كان حر الفكر ، سلفى العقيدة . فهو كثير النقد للبدع ، وما يصاحب موالد الأولياء ، ومدعى الولاية من الفسق والفجور ، والمغالاة فى مدحهم والتوسل بهم ، ويقول إن فى ذلك خروجاً على الدين ، واتباعاً للشهوات ، وأن الفرنسيين لم يبيحوا إقامتها ويحرصوا عليها ، إلا لهذا السبب . ويسجل منشوراً أرسله الوهابيون إلى مصر ، بعد دخولهم مكة ، وفيه خلاصة دعوتهم ، ثم يعقب على ذلك بقوله « إن كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً ، وهو خلاصة لباب التوحيد » ثم يذكر بعض أمهات الكتب فى مذهب السلف . وفى موضع آخر يقول إن الوهابيين شرطوا على الركب الشامى ألا يجىء إلى الحج بالمحمل والطبول ، فعاد الشاميون ولم يحجوا « ولم يتركوا منا كيرهم » . فالمحمل وطبوله ، فى نظره ، منكر . وهو يلقى زعماء الوهابيين الذين حلوا بمصر أسرى أو مهاجرين ، ويتعرف إليهم ، ويصادقهم ، ويثنى على كبيرهم عبدالعزيز ، ثناء خاصاً . وتبدو فيما كتبه عن ذلك سلامة العقيدة والإخلاص . وقد يكون لموقفه العنيد من محمد على ، دخل فى هذا الثناء .

وللجبرتى ، فى إحدى صفحات الكتاب نفحة صادقة من الفهم السديد لروح الدين ومن الاشتراكية العاقلة معاً . فهو يذكر ما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية الكريمة عند فرارهم ، من التحف الكريمة ، والجواهر النادرة القيمة الغالية الثمن ، وأن بعض الناس عد ذلك من الكبائر . ثم يقول إن هذه التحف والجواهر « وضعها خساف العقول من الأغنياء ، والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ؛ إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم ، أو لنوائب الزمان ، فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على

الجهاد ودفع الأعداء » ثم يقول إن أخذ هذه الذخائر ليس خروجاً على الدين ، بل الخروج عليه هو كنز الأموال بحجرته — أى حجرة النبى — وحرمان الفقراء والمساكين وأهل العلم وأبناء السبيل الذين يموتون جوعاً .

وفى هذه الصفحة ينتقد الجبرتى ، انتقاداً مراً ، بعض الحكام الذين يسرفون فى أموال المسلمين التى ائتمنوا عليها ، وينفقون النفقات الباهظة فى التفاخر والرفاهية ، ثم يتحايلون على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والاستيلاء على الأموال بغير حق ، حتى افتقر الرعايا .

وهذه النفحة الاشتراكية ، الإنسانية ، هى التى جعلت الجبرتى ، فى موضع آخر ، يثنى على الفرنسيين لأنهم لم يسخروا العمال الذين كانوا يستخدمونهم لتمهيد الطرق فى القاهرة ، وإقامة المنشئات العامة ، بل كانوا يزيدونهم عن أجرهم المعتاد ويريحونهم بعد الظهر ، ويستعينون بالآلات القريبة المأخذ ، السهلة التناول ، التى تريح العامل وتعينه ، وتقلل من مجهوده ، كعربات نقل الأتربة . وكانت السخرة فى أشق الأعمـــال ، شيئاً مألوفاً فى ذلك الوقت . وكان موت الفلاحين والعمال من الجهد والإرهاق شيئاً مألوفاً أيضاً وسنجد فى موضع من هذا الكتاب أنهم كانوا يدفنون وفيهم رمق الحياة ، لأنهم عجزوا عن مواصلة العمل وسقطوا من الإعياء .

(ويبدو الجبرتى ، فى مواضع أخرى متفرقة من كتابه ، رجلا ساذجاً ، مؤمناً بالكرامات والخرافات فهو يذكر رجلا كانت الجن تخدمه وتطيعه فيما يأمر ، ثم يقول إن ذلك «لا يستبعد». ويترجم لرجل أبله كان يزعم أنه يكشف ما فى ضمائر الناس ، ولا يستبعد ذلك أيضاً) وعند ما أمر محمد على ، ووافقه فى ذلك القاضى التركى ، بإجراء الحجر الصحى ، وإقامة « الكرنتيلة » احتياطاً من الطاعون ، لامهما الجبرتى على ذلك ، وقال إن ذلك « من حبهم للدنيا ! » . ويذكر من كرامات سيدى على البيومى أن الجالس إليه كان « يرى وجهه تارة كالوحش ، وتارة كالعجل ، وتارة كالغزال » . ولا غرابة فى ذلك التناقض الظاهرى . فإن

الجبرتى ألف كتابه على فترات متباعدة من الزمن . وكان فى بعض ما سجل من هذه الروايات ، متأثراً بالبيئة ، والصحبة ، واعتقاد الجماهير .

والجبرتى فى كتابه تعبيرات تدل على لباقة وحسن أدب وتلطف ، من ذلك تعبيره الطريف عن قاض جديد قدم مصر من إسلامبول سنة ١٢١٦ بأنه « كان له مسيس من العلم » .

أما ذوقه الأدبى فنستطيع أن نعرفه من احتياره للشعر ، وثنائه على ما يختار . فهو يختار مثلا لشاعر معاصر ، هو ابن الصلاحى[1] هذه الأبيات ، ويثنى عليها : —

جزى الله أنفاس النسيم فإنها
لتعـــلم سرا فى النفوس لطيفا

أسرت إلى الأغصان ، عند قدومنا ،
حديثاً ، فمدت للسلام كفوفا

وهزت ، سروراً بالتـــدانى ، معاطفا
وأهدت لنا منها شـذا وقطوفا

وهو يختار لهذا الشاعر نفسه قصيدة جيدة طويلة ، أولها : —

بِثّا على النائى الغريب جملا من الخبر العجيب
واستوقف الركبان ما بين الأراكة والكثيب
واستنشد القلب الذى قد ضاع من بين القلوب
ســـلبته ، يوم الدوحتيـ ـن ، طليعة الرشأ الربيب

والأبيات والقصيدة كلتاهما شعر جيد . إذا قارناهما بشعر ذلك العصر خاصة . وليس كل ما اختاره الجبرتى ، وخاصة من النثر ، جيداً ، يدل على تذوق للشعر والنثر ، بل فيه شيء غير قليل من التافه والثقيل ، الذى كان ذوق العصر يسيغه ويألفه ويقبل عليه .

(١) توفى سنة ١١٨٠ فى سن الأربعين ، وترجم له الجبرتى وأورد طائفة كبيرة من شعره فى الصفحات ٢٧٠ — ٢٨٦ من الجزء الأول .

ومع إحاطة الجبرتى بكثير من علوم عصره ، واشتغاله بغير ما كانوا يشتغلون به، من علوم الحكمة والرياضة ، وسعة مداركه . فإنه يسمى البحر الأبيض المتوسط « البحر المحيط » .

واشتغل الجبرتى ، مثل أبيه ، بالأمور العامة ، فأفاد الناس من علمه . فالموازين التى حررها أبوه ، عند ما فشا فسادها ، وألف فيها كتابا ، اشتغل ابنه بإصلاحها مرة أخرى وتحريرها . ومعرفتـه بعلم الفلك ، جعلتـه يستخرج الطـالع وحساب النجوم .

وقد ذكر فى بدء حديثه عن سنة ١٢٢١ — وهى السنة الأولى من حكم محمد على — حسابا للنجوم ، وانتقالات الشمس ، وأبراجها ، ومقارناتها ، وحساب الأهلة . ثم قال « وفى ذلك دليل على ثبات دولة القائم ، وتعب الرعية » وقد ثبتت فعلا دولة محمد على ، وصدق حساب الجبرتى وطالعه فى كليهما .

ونستطيع ، بعد ذلك ، أن نعرف شيئاً عن صفات الجبرتى وأخلاقه ، من معرفتنا لخاصة أصدقائه ، وهم الشيخ إسماعيل الخشاب ، والشيخ حسن العطار ، والشيخ أحمد الطحطاوى . أما الأولان فقد ذكرنا طرفا من أخبارهم ، وظرفهم ، ومجالسهم فى بيت الجبرتى ، تلك المجالس التى تمثل فيها بقول الشاعر :

فىَّ انقباض ، وحشمة ، فإذا رأيت أهل الوفاء والـكرم
أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت ، غير محتشم

وقد توفى الخشاب فى سنة ١٢٣٠ ، أى قبل وفات الجبرتى بأكثر من عشر سنين ، وعاش العطار بعده ، ولـكنه لم يشاركه فى خصومة محمد على ، بل صادقه ، وتقرب إليه ، وألف من أجله كتابا فى الرسائل أهداه إليه[1] . وتولى مشيخة الأزهر ، وكان شاعراً ، رحالة ، خبيراً بالحياة . وسنترجم له فى موضعه .

أما ثالثهم : الطحطاوى ، فقد كان تركى الأصل ، شجاعا فى الحق ، عند ما تألب الأشياخ على السيد عمر مكرم ، وكتبوا فيه ما كتبوا ، امتنع عن مسايرتهم والشهادة

(١) رسائل العطار المطبوع فى المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ (ص ٣) .

معهم ، وانفرد بذلك دونهم . فغضبوا منه ، وأكثروا من ذمه والكيد له حتى فصل من مشيخة الحنفية ولكنه لم يتراجع ، وأعاده محمد على مرة أخرى لمشيختها . وقد قبلها فى المرة الأولى على كره . وكان الطحطاوى هذا من أحب صحبة الجبرتى له وأقربهم لقلبه .

عجائب الآثار

يقول الجبرتى فى مقدمة كتابه : — « إنى قد سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، وأستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، من العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم ، فأحببت جمع شملها وتقييد شواردها فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام » .

ويقول فى موضع آخر إنه كان يدون الحوادث فى « طيارات » ثم يعود إليها بالتفصيل والشرح والإفاضة . فهو يسجل فى مذكراته ، الحوادث اليومية . ثم يتوسع فيها . وقد سجل حوادث السنين الأولى رواية عن أبيه وعن شيوخه وأصدقائه الذين شهدوها ، أو سمعوها ، ورجع فى ذلك أيضاً إلى سجلات الدولة من دفاتر الكتبة وغيرها ، وما نقش على حجارة القبور ، وذلك من أول القرن إلى سبعين سنة منه . ثم يقول إن « ما بعد السبعين إلى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها وسطرناها » .

وظاهر هذا الكلام أنه شاهد بنفسه ، وسجل ما شاهد ، ابتداء مما بعد السبعين من حوادث القرن الثانى عشر ، وذلك ما اعتقده وأقره أكثر مؤرخيه . مع أن سنه إذ ذاك كانت أربع سنين . وأعتقد من الاضطراب الظاهر فى العبارة أنه لا يقصد ذلك ، وربما أراد ما بعد التسعين ، لا السبعين .

وقد ذكر أن الذى دعاه لوضع هذا التاريخ هـو السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، حيث طلب مفتى دمشق ، السيد محمد خليل الراوى ، من الزبيدى وضع هذا التاريخ . فـكلف به الجبرتى ، وكان يكتب ما يكتب ويقدمه للزبيدى. فلما مات هذا بالطاعون فى سنة ١٢٠٥ استولت زوجه على جميع ماخلفه ، بما فى ذلك كتبه ، وفيها ما قدمه له الجبرتى من تاريخه ، ثم تزوجت أرملته واستطاع الجبرتى أن يشترى منها ما خلفه السيد فوجد ضمنه أوراقه . وأرسل له مفتى دمشق بعد ذلك يستحثه على أن يتم كتابه ، فكان ذلك مشجعاً جديداً له .

أما الطريقـة التى اتبعها فى تدوين الـكتاب ، فإنها مع استيعابها ووفائها ، أبعدت بينه وبين أن يكون تاريخاً منسقاً متتابعاً ، بل جعلته أشبه شىء بجريدة يومية أو أسبوعية ، تسجل الحوادث الواقعة ، بلا ترابط ولا توحيد أو تأليف ، فترى الرجل ، أو الحادث ، يذكر فى مواضع متفرقة متباعدة من الـكتاب حسبما تجىء به ، أو بها ، المناسبة ، لأمر وقع ، أو حادث جرى . وذلك نتيجة طبيعية لسرد الجزئيات على الأيام . وهو يخلط بين الجليل والحقير من الحوادث خلطا ، قد يكون عجيباً ، ولـكنه إحدى نتائج الأمانة والحرص على الاستيعاب .

فهو ، مثلا ، فى حوادث شهر جمادى الثانية من سنة ١٢٢٢ يذكر حادثة شيخ من بنها يدعو الناس لمقاومة سلطة القاهرة ، ويفصل ما جرى له حتى قتل ، ثم يذكر خبر واقعة بين محمد على وشيخ دسوق ، ثم يجمع إلى ذلك حادثة رجل من الدلاتية[1] كان يرمى دجاجة بحجر لتقع من سطح دار إلى أخرى ، ليستحوذ عليها . . . !

أما ترتيب الـكتاب فقد أشار فى مقدمته إلى صفات الحاكم العـادل . وذكر الحديث الذى رواه أبو هريرة « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها » وقال إن سبب هلاك الحاكم هو « إطراح ذوى الفضائل ، واصطناع ذوى الرذائل ، والاستخفاف بعظة الناصح ، والاغترار بتزكية المادح » . ثم ذكر تاريخاً مختصراً للملوك والدول التى حكمت مصر ، بعد ضعف الخلافة العباسية ، حتى

(١) إحدى طوائف الجند من أكراد الشام .

الفتح العثمانى . ولخص فى صفحتين حوادث السنين الخمس الأولى من القرن الثانى عشر . ثم أفرد حوادث كل سنة بعد ذلك ، مرتبة بترتيب وقوعها ، على الشهور والأيام . وفى الكتاب إشارة إلى أنه كان يكتبه فى سنة ١٢٢١[1] .

وقد جعل الجبرتى من كتابه ، عجائب الآثار ، سجلا حافلا ، جامعاً ، دقيقاً ، لحوادث السنين التى أرخ لها . لم يترك أمراً جليــلا أو صغيراً رآه أو سمع به ، إلا ذكره . يترجم للمماليك ، أمراء مصر ، ولشــيوخ الأزهر ، والولاة والأشراف ، والعلماء ، والتجار ، وخفيرباب زويلة ، والحطاطين ، والصناجق ، والأولياء ، وخادم النعال بالمشهد الحسينى ، والشعراء ، والمجذوب الصاحى ، وكان حمالا فى دمياط ، ومدعى النبوة ، والمجانين . ويذكر أسعار الغلال واللحم والسمن واللبن والذهب والتمر والبن والحطب والفحم ووقوع الطواعين والأوبئة ، وعمــارات المساجد والبيوت والقنوات والترع والسدود . ويسجل ، فى حوادث سنة ١١٩٠ ، دخول فيل صغير القاهرة ، من الهند ، ويفصل حادث الشيخ صادومة . ولا يترك صغيرة ولا كبيرة . وقال فى كل ذلك « إنى لم أخترع شيئاً من تلقاء نفسى ، والله المطلع على أمرى وحــدسى » و : « لا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتهــا بالتواتر والاشتهار » .

وتبدو فى الجزئين الأولين العناية بتراجم الرجال وسير المماليك والعلماء وغيرهم وفى الجزئين الآخرين تبدو العناية أكثر بتسجيل الأحداث والوقائع .

وقد ذكر أنه سيعيد مراجعة كتابه . والظاهر أنه لم يتيسر له أن يفعل . لذلك جاء فيه ذكر بعض الحوادث مكرراً ، وجاء فيه ما يدل على عــدم التحرى فهو يقول ، مثلا ، فى ترجمة الشيخ سليمان البجيرمى أنه ولد فى سنة ١١٣١ ، ثم يقول إنه تجاوز المائة ، وهو فى الوقت نفسه ، يحدد تاريخ وفاته بليلة الاثنين ١٣ رمضان من سنة ١٢٢١ فهو بذلك لم يتجاوز المائة ، وإنما عمر إلى التسعين . وفى الكتاب أشياء غير قليلة من ذلك . ولو أنه راجع ما كتب ، ومحصه ، لما وقع فى ذلك ومثله . وليس

(١) ص ٣٧٩ من الجزء الثالث .

ذلك تنقيصاً لقيمة الـكتاب ، فقد أجمع المؤرخون على أنه مصدر من أوثق وأوفى وأهم المصادر التاريخية عن تلك الفترة . وخاصة فيما سجله عن حوادث عصره التى شاهدها بنفسه .

ومن أجود ما كتبه الجبرتى ، وأكثره أهمية ، ما سجل فيه حوادث الطبقة الأخيرة من المماليك ، وفترة احتلال الفرنسيين لمصر ، وطبيعى أن يكون ذلك ، فكبار المماليك أصدقاء والده ، وكبار الشيوخ الذين كانوا أعضاء فى ديوان نابليون وكذلك كاتم سر الديوان إسماعيل الخشاب ، أصدقاء له ، وهو نفسه كان من أعيان العلماء إذ ذاك ، وكان عضواً فى الديوان الثالث .

ولـكن أجود ما كتبه الجبرتى، وأعظمه قيمة ، تلك الصفحات التى صورفيها حياة المجتمع المصرى أصدق صورة وأبرعها وأقواها . وتراجم العلماء والأمراء وكبار الرجال فى عصره ، وفى هذا وذاك لا نجد للجبرتى نظيراً ولا ضريباً بين المؤرخين فى جميع العصور .

أما الفترة التى سجلها من عهد محمد على ، فتتسم بالاختصار ، وعدم الاستيعاب لأنه لم يكن من رجال محمد على ، ولا من المتصلين به أو برجاله . وهو نفسه يعتذر عن تقصيره فى تسجيل حوادث القسم الأخير من كتابه « إذ لا يمكن استيفاؤها ، للتباعد عن مباشرة الأمور » وهو فى تسجيل عهد محمد على يترك بعض الشهور دون أن يذكر حادثاً ما ، وبعضها يدون فيه سطوراً قليلة ، أو حادثاً فرداً . ويحتاط فى الرواية بأن يقول : — على ما بلغنا ، أو على ما قيل ، وأشباه ذلك .

أسلوب الكتاب

أما أسلوب الجبرتى فى كتابه فليس على نسق واحد ، وهذا طبيعى ، ولـكنه فى عمومه يكاد أن يكون مصريا عاميا ، كثير الأغلاط . والتعبيرات المصرية الشعبية التى لا يزال كثيرمنها متداولا إلى الآن ، يجدها القارىء فى كثير منه . فهو يصف حريقاً فى «خطتنا بالصنادقية » فيقول : إن النار « رعت ووجت » ، ويقول: « إن

النيل « انهبط » ، يعنى انخفض ماؤه ، وأن سعر القمح « شطح » ، أى ارتفع ، و « وثارت كرشة » أى زحام وتدافع ، و « وتحنجل فى مشيه » ، ويذكر كلمة « قشل » و « قشلان » بمعنى مفلس . « وكثر العيـاط » و « زاد تنطيطهم » و « زرع له فوق السطوح » ، إذا مناه الأمانى الكاذبة ، و « رقرق » لذلك فلان أى مال إليه وتأثر به ، و « النفخة » بمعنى الغرور . ونجد من التعابير المصرية مازال نسمعه إلى اليوم مثل « كل الوقايع زلابية » ومثل « قارب شيحة » ، فقد ذكر أنه نزل — فى سنة ١١٧١ — مطر كثير ، سالت منه السيول ، وأعقبه الطاعون المسمى « بقارب شيحه الذى يأخذ المليح والمليحة » . ونجده يذكر « الـكبة » وهو يريد الطاعون كما يفعل العامة إلى الآن . وأمثال ذلك . وهو لا يلتزم السجع ، ولـكنه أحياناً يتفصح به فى غير موضعه فيبدو ظريفاً مضحكا ، كذلك السجع الذى التزمه فى وصف قوم فجأهم المطر وهم يسيرون مكرهين فى زفة عروس « فاختل نظامهم ، وابتلت ثيابهم ، وتـكدرت طباعهم ، وانتقضت أوضاعهم ، وزادت وساوسهم ، وتلفت ملابسهم ، وهطل الغيث على الأبريسم والحرير والشالات الـكرخانة والسليمى والـكشمير ، وكثير من النـاس من وقع بعد ما تزحلق ، وصار ثوبه من الوحل أبلق ، ومنهم من ترك الزفة ، وولى هارباً فى عطفة ، يمسح يديه فى الحيط ، مما تلطخ بها من الرطريط » .

وهى صورة ، كما ترى ، مع طرافتها ، صادقة ، حية .

وقد اعتذر هو عن ضعف أسلوبه ، وتقصيره ، وأخطائه بقوله : — « هذا مع اعترافى بقصور الباع ، وفتور الطباع ، فى قوانين المعانى العربية ، ودواوين المثانى الأدبية » . وغير بعيد أن يتعمد الجبرتى شيئاً من الالتواء والغموض ، مراعاة لبعض الاعتبارات والظروف .

وهذا لا يمنع أن يجد القارىء صفحات جيدة الأسلوب بين ثنايا الـكتاب .

التاريخ بلا عاطفة

والجبرتى يكتب تاريخه ، ويسجل فيه أحداث مصر العظيمة التى شهدها ،

أو سمعها ، ولـكنه لا يظهر أية عاطفة فيا يكتب ، فهو يلم الشوارد ، ويدون ويقيد ، ولـكنه لا يلوّن بشعور ، ولا يضنى بأحساس .

يسجل ، بأمانة وإفاضة ، حوادث الحملة الفرنسية ، ومقاومة المصريين لجنود نابليون فى صفحات طويلة ، ولـكن القارىء لا يستبين فيها أى لون من ألوان العاطفة فهو لا يكتب تاريخ هذه الفترة العصيبة الحافلة من تاريخ مصر بروح الوطنى المصرى وإحساسه ، ولا بروح الرجل المسلم ، حيث كانت العاطفة الغالبة المسيطرة . بل هو فى مواضع كثيرة لا يخفى اللوم والضجر من عنف القاهريين وشططهم فى مقاومة الفرنسيين ، ويجعل ذلك من سخف العقل . وهو كذلك ، فى ترجمة الألفى ، يطنب فى مدحه ، ويشيد بفضائله ، ويذكر أنه سافر إلى بلاد الإنجليز مع خمسة عشر من رجاله ، وبقى ضيفا عليهم زمنا ، يطلب حمايتهم ويمكّن لهم من احتلال مصر ، وغاب فى هذه الرحلة سنة وشهراً وبعض أيام ، وعاد من بلادهم يحمل الهدايا الـكثيرة ، الغالية ، ثم يقول إن الألفى أيضاً أرسل إلى الإنجليز يستنجدهم أن يعينوه على حرب محمد علي وإخراجه من مصر . ومع هذا وذاك لا يجد الجبرتى ، فيما أقدم عليه الألفى أى مبرر للومه ، ولا يشعر القارىء أنه أحس أى عاطفة من العواطف فيما أقدم عليه

ويستطيع القارىء ، وهو يعجب ، أن يجد شيئاً غير قليل من شذوذ العاطفة فى تدوين الجبرتى لحوادث سنة ١٢٢٢ ودخول الانجليز الاسكندرية فيها[1] فهو يكاد يتمنى لو أنهم استطاعوا أن يملـكوا القطر كله ، ليساعدوا صديقهم وحليفهم، الألفى ، ضد محمد على وهو يذكر أميراً من المماليك اسمه عثمان بك حسن، سعى إليه الإنجليز ليعينهم على بسط سلطانهم على مصر ليمـكنوا له وإخوانه ، فى زعمهم ، من حكمها دون محمد على ، ولـكن عثمان بك هذا أجاب الإنجليز بأنه هاجر وجاهد الفرنسيين ، وأنه لا يقبل أن يختم حياته بمساعدة الإفرنج على إخوانه المسلمين .

ولعل القارىء يعتقد أن الجبرتى أعجب بإخلاص عثمان بك لدينه ، أو لوطنه ،

---

(١) فى ليلة ٢١ مارس من سنة ١٨٠٧ م

وشكر موقفه هذا ، أو على الأقل، سجل الحوادث بلا عاطفة ، كما هو غالب شأنه. ولـكن العجيب أن الجبرتى يصف عثمان بك فى موقفه المشرف هذا بأنه « يدعى الورع» ثم يقول بعد ذلك بقليل أنه «كان ما أراده المولى جل جلاله ، من تعسة الإنجليز ، والقطر وأهله » .

فهو بذلك يشى بسريرته ، ويظهر حزنه المـكظوم لحبوط الحملة الانجليزية على مصر .

ولا نستطيع ، على وجه القطع واليقين ، أن نتهم الجبرتى ، لهذا أو لغيره ، فى عاطفته الوطنية أو الدينية وهى العاطفة الغالبة . التى كان يحسها الناس إذ ذاك ويعرفونها .

ولـكنا نلاحظ ، إلى جانب حديثه عن عثمان بك حسن ، أن الجنرال منو اختاره عضواً فى الديوان الأخير الذى ألفه . وكان منو أشد القادةالفرنسيين قسوة ، وأبعدهم فى العنف والجبروت على أهل مصر . ونلاحظ أيضاً أن الفرنسيين قبضوا على أربعة من أعضاء هذا الديوان ، عندما قدمت الحملة الإنجليزية التركية ، ولم يقبضوا على الباقين من هؤلاء الأعضاء ، بل تركوهم ليحكموا بهم أهل مصر. وكان الجبرتى من هؤلاء الذين تركوهم ، وخصصوا لـكل واحد منهم خادماً يقوم على خدمته ، كما نلاحظ أيضاً أن الجبرتى ، وهو يتحدث عن الثورات التى قام بها أهل القاهرة ضد الفرنسيين ، كان كأنه يلوم زعماءها على عنادهم وصلابتهم، ويتهم بعضهم بأنه من الأغرار الأفاقين . أما سواد الناس من القائمين بالثورة ، فـكان يسميهم أحياناً « بالزعر » وأحياناً « بالحرافيش » . ويصفهم بأنهم « حشرات الحسينية ، وزعر الحارات البرانية » أى الذين يسكنون خارج أسوار القاهرة وأبوابها .

وقد يكون لطبيعته من الاعتدال ، والبعد عن العنف ، مدخل فى شعوره هذا وفى حديثه عن الثورة والثائرين . كما كان لها أثر فى رأيه وسلوكه مع الفرنسيين . وقد يكون حبه للعلم ، وتقديره لما شاهد عند علماء الحملة الفرنسية من الـكتب والآلات الهندسية والفلـكية ، وما رآه المصريون ، لأول مرة ، من مظاهر الحضارة

العلمية ، قد يكون ذلك مما أوجد فى نفسه آصرة من التقدير والقربى — ولا أقول المحبة — بينه وبين الفرنسيين .

وقد ذكر الجبرتى أنه كان يكتب تاريخه فى سنة ١٢٢٠ ، ذكر ذلك مرة فى تدوينه لحوادث سنة ١١٨٦ ومرة أخرى فى حوادث سنة ١١٩٠ . وهو لم يكتبه كله فى ذلك الوقت طبعاً ، بل كتبه على فترات طويلة متباعدة .

تداول الكتاب وطبعه وترجمته

كان تاريخ الجبرتى، أو جزء منه على الأقل ، متداولا ، أو معروفا لبعض الخاصة ، فإنه يذكر فى ترجمة الشيخ عبد الله الشرقاوى أنه ألف كتاباً فى تراجم فقهاء الشافعية ، فنقل تراجم المتأخرين منهم « من تاريخنا هذا بالحرف الواحد » .

وقد بقى الكتاب محجوباً ، أو ممنوعاً ، حتى أذن الخديوى توفيق بطبعه ، فطبع لأول مرة ، فى سنة ١٢٩٧ هـ ، بالمطبعة الأميرية ، وطبع الجزءان الثالث والرابع ، وفيه بعض من تاريخ محمد على ، أولا ، ثم الأول والثانى .

وقد ذكر الجبرتى، فى ختام كتابه أنه سيفصل بعض المسائل فيما «سيتلى عليك إن شاء الله تعالى بكماله فى الجزء الآتى بعد ذلك » ولعل هذه الإشارة هى التى جعلت بعض المؤرخين يعتقد أنه كتب جزءاً خامساً ، أُحرق أو أُعدم ، لاشتماله على أشياء ضد محمد على وحكمه [١] . ولكن الأرجح أن الجبرتى لم يكتب بعد ذلك

---

(١) ذكر جورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية — الجزء الرابع — أنه « يقال إن عجائب الآثار ، بعد طبعه ، صادرته حكومة الخديوى وحذفت منه ما كتبه ضد محمد على » . ولكنى لم أجد مايؤيد هذه الرواية ، أو يساعد عليها .

وستجد فى الفصل الذى عقدناه عن محمد على ، أن الجبرتى كتب عنه بحرية واسعة ، وتناول شخصه ، وأخلاقه ، وتصرفاته بأشياء كثيرة . وأن هذا الذى كتبه موجود فى الطبعات المتداولة لذلك ، ولأسباب أخرى ، أستبعد هذا الذى رواه جورجى زيدان بصيغة التضعيف .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية أيضاً أن نسخة سابقة على طبعة المطبعة الأميرية « سنة ١٢٩٧ هـ » ، صودرت وأعدمت.

شيئاً . ووجدت بعض النسخ بخطه وفيها « أن هذا هو آخر الجزء الرابع » • وبعده توفى الشيخ . ولم يكتب شيئاً ، كما نرى بعد قليل .

وتكرر طبع الكتاب بعد ذلك ، منفرداً ، وعلى هامش التاريخ الكامل، لابن الأثير . ونشر القسم الذى كتبه الجبرتى عن الحملة الفرنسية مستقلا بعنوان « تاريخ الفرنسيين فى مصر » نشرته جريدة « مصر » بالإسكندرية فى سنة ١٨٧٨ . وقام بنشره الأديب اللبنانى أديب اسحق .

وترجم هذا القسم إلى اللغة الفرنسية ، ترجمه مترجم القنصلية الفرنسية بمصر . المسيوكاردان وطبع فى سنة وفاته ١٨٣٨م أى بعد موت الجبرتى بثلاث عشرة سنة . وقد رأينا من قبل أن هذا الجزء نفسه ترجم إلى اللغة التركية ، بأمر السلطان سليم الثالث ، وجعل عنوانه « إنقاذ مصر من الفرنساوية » .

ومما لا شك فيه أن محمداً علياً عرف ما سجله الجبرتى عن سيئاته ، ومساوئ حكمه، وأنه جزع لذلك واستاء منه أكبر استياء، وقد أراد أن يرد على الجبرتى ، من طريق غير مباشر ، فطلب إلى شيخ الأزهر ، الشيخ محمد العروسى[1] ، أن يكلف أحد العلماء بتأليف كتاب عن تاريخه يعارض فيه الجبرتى . فكلف الشيخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى الذى وضع كتاباً ملأه بمدح محمد على والإشادة بذكره . وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية فى دار الكتب المصرى تحت رقم ٥٨٥ تاريخ.

وترجم « عجائب الآثار » إلى اللغة الفرنسية ، ونشر فى تسعة أجزاء ، تضمنتها ثلاثة مجلدات ، وطبع بالمطبعة الأميرية بين سنتى ١٨٨٨ و ١٨٩٦ م وفهم بعض المؤرخين أن هذا التراخى كان سببه ما كتبه الجبرتى عن محمد على . وقام بهذه الترجمة أربعة ، هم شفيق بك منصور يكن ، وعبد العزيز كحيل بك ، وجبرائيل نقولا كحيل بك ، واسكندر عمون أفندى .

---

(١) تولى المشيخة سنة ١٢٣٣ بعد الشيخ الشنوانى .

وذكر هؤلاء فى مقدمتهم لهذه الترجمة الفرنسية، أن نوبار باشا هو الذى أوحى إليهم بفكرتها ، وأن يعقوب أرتين باشا كان معينا لهم فى القيام بالمشروع .

وللجبرتى كتب أخرى ، هى ، « مختصر تذكرة داود الأنطاكى[1] » فى الطب، وكتاب عن ألف ليلة وليلة، يرجح أنه فقد ، وذكر بعض المؤرخين أنه ، عندما قتل ابنه خليل ، كان يشتغل بوضع كتاب عن الثورة اليونانية ، ولم يتمه .

وقد ذكر بروكلمان أن الجبرتى ترجم كتاب « سلك الدرر ، فى أعيان القرن الثانى عشر » للسيد محمد خليل المرادى . وأعتقد أن هذا خطأ ، منشؤه أن مصحح المطبعة الأميرية التى طبع فيها سلك الدرر[2] قال فى ختام الجزء الثانى أنه قد تم بحمد الله تعالى طبع كتاب سلك الدرر لمحمد خليل المرادى ، « الذى ترجمه الجبرتى » . والواقع أنه قصد أن الجبرتى ترجم للسيد خليل المرادى ، لا أنه ترجم كتابه . وقد سبقنى إلى تحقيق ذلك الأستاذ خليل شيبوب[3] .

وسنجد فى مواضع أخرى من هذا الكتاب ، ما يزيدنا معرفة بالجبرتى وأبيه . ويجعلنا أكثر إحاطة بما كان عندهما من فضائل وأخلاق وصفات . وما كان لهما من مكانة ومنزلة وأثر .

مخطوطات التاريخ ومظهر التقديس :

يوجد فى دار الكتب المصرية من عجائب الآثار ثلاث عشرة نسخة مخطوطة ، منها أربع كاملة ، وباقيها أجزاء وكراسات ناقصة .

وأحدث هذه المخطوطات الكاملة كتب فى سنة ١٢٨٩ بخط أحمد بن محمد بن أحمد بن موسى الشاهد . وفى الصفحة الأخيرة من الجزء الرابع أنه نقل من خط المؤلف ، وأنه لم يكتب بعد ذلك شيئاً ، وينتهى بنهاية سنة ١٢٣٦ كما تنتهى النسخ المطبوعة .

---

(١) توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٤٠٤٤ طب .

(٢) طبع سلك الدرر فى مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٢٩١ هـ .

(٣) هامش ص ٦٠ من كتابه « عبد الرحمن الجبرتى » .

وتلى هذه النسخة فى القدم نسخة أخرى ، كتب الجزءان الأولان منها بخط محمد أحمد الشافعى ، والثالث بخط أحمد يونس ، أبو التيسير فى سنة ١٢٨٧ ، والجزء الرابع كتب فى نهايته أنه تم فى ربيع الثانى سنة ١٢٨٩ ولم يذكر اسم الكاتب .

ثم تلى هذه نسخة أخرى كتبت فى سنة ١٢٧٢ بخط الحاج محمد حسين أحمد مصباح الشافعى الأزهرى . وفى آخر الجزء الرابع منها فهرس بأسماء المتوفين من الأعلام . ولكنه لا ينتهى بنهاية ما سجله الجبرتى فى تاريخه (سنة ١٢٣٦) بل يمتد بهذه الأسماء وتواريخ وفاة أصحابها إلى سنة ١٢٧٢ ، تاريخ كتابة المخطوط ، ويبدو أن الذى أكمل هذه التواريخ هو الشيخ مصباح ناسخ المخطوط .

وأقدم هذه النسخ المخطوطة تمت كتابتها فى سنة ١٢٦٢[1] — أى بعد وفاة الجبرتى بإحدى وعشرين سنة . ولم يذكر اسم كاتبها . وكان هذا المخطوط ملكا للمرحوم محمود باشا سامى البارودى . مكتوب فى الصفحة الأولى لكل جزء منه ما يلى : — « من كتب الفقير إليه تعالى محمود سامى الشهير بالبارودى » وتاريخ سنة ١٢٨٥ ثم ختم باسم « محمود سامى » .

والسطور الأخيرة من هذا المخطوط تتفق تمام الاتفاق مع النسخ المطبوعة . ثم تنتهى بهذه الكلمات : — « تم لسنة ست وثلاثين . ونقل هذا من نسخة بخط الجبرتى فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٢ » .

وهناك جزء ثان فقط ، لم يذكر اسم كاتبه ، وفى نهايته أنه تمت كتابته فى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٦٢ أيضاً . وعلى صفحته الأولى أن المرحوم على فهمى نجل رفاعة بك رافع الطهطاوى طالعه كله سنة ١٢٧٨ .

وقد راجعت صفحات هذه المخطوطات الأربعة الكاملة ، وهذا الجزء الثانى الأخير ، وقابلت كثيراً من صفحاتها مع صفحات المطبعة الأميرية ، فلم أجد سوى قليل جداً من الخلافات اللفظية ، أو من تقديم أو تأخير لبعض كلمات مما لا يزيد معنى أو ينقصه أو يبدله . وعنيت ، بصفة خاصة ، بالجزء الأخير من كل من

(١) مخطوط رقم ٢٢٨٧ تاريخ .

المخطوطات الـكاملة ، والصفحات الأخيرة منها بصفة أخص ، لعلى أجد ما يفيد وجود زيادة ليست فى النسخ المطبوعة ، فلم أجد .

وفى المـكتبة الأزهرية من عجائب الآثار ، مخطوطان: الأول بخط حليل إبراهيم العجوز ، انتهى من نسخه سنة ١٢٨٩ . وهو فى ثلاثة مجلدات . والثانى بخط محمد بن أحمد بن موسى الشاهد الحنفى الأزهرى ، ولم يذكر تاريخ الانتهاء من نسخه . وهو فى أربعة مجلدات . وكلا المخطوطين منقول عن نسخة بخط الجبرتى . وكلاهما أيضا ينتهى بنهاية واحدة هذا نصها : — « وهذا آخر الجزء الثالث ، أو الرابع ، وبعده توفى الشيخ . ولم يكتب شيئاً » وهو ما ختمت به طبعة المطبعة الأميرية ، وطبعة المطبعة الشرفية التى اعتمدت عليها .

وتنتهى الحوادث التى أرخها الجبرتى فى هذين المخطوطين بنهاية سنة ١٢٣٦ كما فى النسخ المطبوعة . وكما هو الحال فى جميع النسخ الخطية التى ذكرتها .

وقد راجعت ، وقابلت هذين المخطوطين ، كما فعلت بالمخطوطات الخمسة فى دار الـكتب ، فـكانت النتيجة هنا مثلها هناك .

وهذا كله يؤيد ما ذهبت إليه من عدم وجود قسم ، أو جزء ، لم ينشر ، أو نشر ثم صودر ، كما روى جورجى زيدان ، بصيغة التضعيف .

وفى دار الـكتب المصرية فهرس مخطوط لعجائب الآثار من عمل المرحوم أحمد تيمور باشا . يشمل الحوادث ، وأسماء الأعلام ، والنقود . وفهرس آخر من عمل المرحوم توفيق اسكاروس يشمل أسماء العلماء المذكورين فى الـكتاب ، مرتبة على الحروف .

وفى المـكتبة التيمورية مخطوط لعجائب الآثار كتب فى سنة ١٢٨١ . ويوجد مخطوط آخر من هذا الـكتاب فى مكتبة السيد الـكتانى بفاس ، لم أستطع أن أعرف عنه شيئاً . ولعل بعض الباحثين ، ممن يعنون بمثل هذا ، يعرّفنا به .

أما مظهر التقديس . فنى دار الـكتب المصرية منه مخطوطان — وهو لم يطبع ،

كما أسلفنا . المخطوط الأول منهما كتب فى سنة ١٢٢٤[1] قبل وفاة الجبرتى بسبع عشرة سنة ، وبعد أن أتم تأليفه بسبع سنين وخمسة أشهر . حيث ذكر أنه أتم تأليفه فى شعبان سنة ١٢١٦ .

وفى الصفحة الأولى من هذا المخطوط أسماء خليل رفعت باشا ، وخسرو باشا ، وكان أحد ولاة مصر فى فترة من هذا التاريخ [من ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ إلى ١٤ المحرم سنة ١٢١٨] والمخطوط فى ١٤٥ ورقة ، أى ٢٩٠ صفحة كبيرة .

والمخطوط الثانى من مظهر التقديس كتب فى سنة ١٢٩٣ .

وقد طالعت ، بإمعان ، المخطوط الأول ، الأقدم ، من مظهر التقديس ، وقابلته بما كتب الجبرتى فى تاريخه عن دخول الفرنسيين مصر ، وإقامتهم فيها ، وخروجهم منها ، وتاريخه للسنوات الثلاث التى أقاموها بها ، فخرجت من هذه المقابلة بالملاحظات التى ألخصها فيما يلى : —

يذكر الجبرتى اسم الشيخ حسن العطار على أنه شريك فى تأليف الكتاب ، فهو يقول فى أوله ، إنه ألف كتابه وضم إليه ما كتبه الشيخ حسن العطار من النثر والشعر . ثم يقول عند اختياره اسم الكتاب « وسميناه » مظهر التقديس وهو عند ما ذكر ذلك عن تاريخه قال «سميته» عجائب الآثار . وعند ما يورد بعض الشعر يقول أنه « لصاحبنا الآتى ذكره » . أو لصاحبنا السابق ذكره ، بعد أن ذكر اسم الشيخ العطار .

ونحن نعرف أن الجبرتى لم يقل الشعر .

بدأ الكتاب ، بعد حمد الله ، بمدح الدولة العثمانية الخاقانية . ثم ربط بين الظواهر السماوية ، كخسوف الشمس وحركات النجوم ، وبين الحوادث الأرضية ، وذكر بعد ذلك قدوم الفرنسيين مصر ودخولهم فيها . مع أن مصر لم يغلبها غالب ، حتى التتار الذين هزموا جند الأرض كله ، كثيراً ما قهرهم جند مصر القاهرة . حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

---

(١) مخطوط رقم ١٠١ م تاريخ

ثم يلوم المماليك على تهاونهم فى تحسين الثغور ، والعناية بعدة الحرب ورجالها . ويورد شعرا ، أعتقد أنه للشيخ العطار ، هو : —

إنما هذه البــــلاد لأقوا ٍم حموها بالصـــــارم المسلول
وأرى دولة المماليـــــك ما لت لضروب اللذات ، بالتحصيل
واغتنوا عن تجريد سيف ورمح بقوام لدن ، وطرف كحيـــــل

ويلومهم كذلك على سلوكهم مع أهل مصر ، ومصادرة أموالهم ، والقسوة عليهم . ثم يذكر السلطان سليما الثالث وتداركه مصر بتخليصها من الفرنسيين . ويذكر صدره الأعظم يوسف باشا بأوصاف لا تكاد تنتهى من المدح والتفخيم والإشادة والتعظيم .

وتجىء بعد ذلك مقدمة موجزة فى التاريخ ، منذ بدء الخليقة ، ونزول أبى الأنبياء آدم ، وتوارد الرسل لهداية الناس . والرسالة المحمدية الخالدة . وملخص فى غاية الإيجاز للخلفاء الراشدين ، والدول الإسلامية المختلفة التى أعقبتهم ، وفتوحاتها ، وما جرى بعد ذلك من وقائع حتى دخل العثمانيون مصر .

ثم يبدأ بسرد حوادث الحملة الفرنسية من اليوم العاشر من المحرم سنة ١٢١٣ ومن هنا يبدأ فى الاتفاق مع ما كتبه فى عجائب الآثار ، ما عدا خلافات يسيرة ، وتكرار لبعض الفقرات والجمل .

وبعد أن أورد الكتاب منشور نابليون الذى وجهه إلى المصريين بعد دخوله الإسكندرية ، أخذ يناقش هذا المنشور ويعلق عليه ، ويفسره . وهذه أشياء لا توجد فى عجائب الآثار .

وفى هذه المناقشة ، وهذا التفسير يحمل مظهر التقديس حملات قاسية على نابليون ، والفرنسيين .

ولا تقتصر خصومة الجبرتى للفرنسيين فى مظهر التقديس ، وعنفه عليهم على هذه المناقشة ، بل نجد الروح التى تسيطر عليه هنا ؛ مختلفة عن تلك التى كتب بها فى عجائب الآثار . ونجد الطابع الذى يتميز به مظهر التقديس ، من هذه الناحية ،

مغايراً إلى حدبعيد، لذلك الطابع الذى نجده فى العجائب . فهو، فى مظهر التقديس ، ينعتهم بأوصاف الجهل، والنفاق، والخداع ، والظلم ، والخروج على جميع الأديان . ويتمنى زوال دولتهم ، ويظهر التشفى والسرور عند ذكر هزيمتهم أمام مراد بك ، فى بعض المواقع ، ويسميهم الملاعين .

ثم هو لا يذكر فى مظهر التقديس ، ما ذكره فى عجائب الآثار ، من أنهم كانوا يأجرون العمال على ما يقومون به من إصلاح أو إنشاء فى طرقات القاهرة ومرافقها ، وأنهم كانوا يعطونهم أكثر من الأجر المعتاد .

وكذلك يطوى زيارته مقر علماء الحملة الفرنسية ، واطلاعه على ما كان فيه من الكتب والصور والرسوم . ومشاهدته عندهم التجارب الطبيعية والكيمائية . وإباحتهم لأهل مصر أن يزوروا مقر هؤلاء العلماء ، وأن يفيدوا منه . وهى قطعة كبيرة نجدها فى عجائب الآثار ونفتقدها فى مظهر التقديس .

ويسقط أيضاً ، من مظهر التقديس ، فى ختام شهر شوال من سنة ١٢١٣ قطعة ضمنها ، فى العجائب ، بعض الأعمال والإنشاءات التى قام بها الفرنسيون فى القاهرة .

وحذف منه كذلك قطعة من رسالة نابليون ، التى وجهها إلى أهل مصر يعلل فيها عدم استيلائه على عكا . وأثبت قطعة كبيرة من قصيدة السيد على الصيرفى ، نزيل عكا فى ذلك الوقت ، لم تذكر فى العجائب .

وقد تضمنت هذه القطعة من القصيدة مطاعن كثيرة فى الفرنسيين ، وفى نابليون .

ونجد فى مظهر التقديس تعليقاً على هذه القصيدة ، ونقداً لها ، لعله من وضع الشيخ العطار ، تحدث فيه عن العروض ، والترصيع ، والوتد ، والزحاف . إلى غير ذلك من مصطلحات هذا الفن . ونجد ، بعد ذلك ، استدراكا على الشاعر لأنه مدح أحمد باشا الجزار ، حاكم عكا ، على بلائه فى صد نابليون عنها ، ولم يمدح الوزير يوسف باشا على جهاده .

ثم يدافع عن العثمانيين عند ما يذكر نابليون في منشوره ، أن دولتهم في مصر قد دالت . ويقسو عليه في ذلك أشد القسوة .

وتحارب العثمانيون والفرنسيون في الإسكندرية ، فهزم الأولون ، وأسر قائدهم مصطفى باشا ، وكبير منهم هو عثمان خوجا . فيذكر ذلك في العجائب ، ولكنه ، في مظهر التقديس ، يزيد عليه عزاءه للعثمانيين ، وتهوين الأمر عليهم .

ثم يسقط من مظهر التقديس ، ما يدل على ضعف العثمانيين ، أو فساد تدبيرهم ، بعد عقد الصلح مع الفرنسيين .

ومن الملاحظات الخاصة بالصياغة ، ولكنها ذات دلالة ، أنه عند ما يذكر نابليون ، في عجائب الآثار ، يصفه بأنه « ساري عسكر » الفرنسيين ، أي قائدهم العام . وعند ما يذكره في مظهر التقديس ، يقول « كبير الفرنسيس » وكذلك يقول في عجائب الآثار ، عن معسكر العثمانيين « عرضي الوزير » وفي مظهر التقديس « عرضي هميون » أي المعسكر السلطاني .

وفي نص واحد نجده يذكر نابليون في عجائب الآثار باسم « بونابرته » وفي مظهر التقديس بقوله « اللعين » .

ومن لطائف هذه الفروق ، بين عجائب الآثار ، ومظهر التقديس ، أنه يذكر خروج الجيش العثماني إلى الصالحية ، بعد فشل الصلح ، وابتداء الحرب بينهم وبين الفرنسيين ، يذكر ذلك في العجائب ، فيقول إن سببه ضعف هذا الجيش واشتغال جنده بجمع المال من البلاد ، وظلم الناس ومصادرتهم .

ويذكر ذلك ، في مظهر التقديس ، فيقول إن سببه الحرص على شروط الصلح وأنه كان حكمة حربية وبراعة ، وعملا بقول من قال : الحرب خدعة ! .

ومن الزيادات التي تلفت النظر ، ما ذكر في مظهر التقديس[1] من أن نابليون عند ما دخل عليه الشيخ السادات باستدعاء منه ، « صار — أي نابليون — يقبل يده تارة ، وركبته أخرى » .

(١) ورقة ٢٣ .

وقد أسقط الجبرتى من مظهر التقديس ، ما سجله فى العجائب ، من عدوان الجند العثمانى على أهل القاهرة ، بعد عودتهم إليها . مع أنه يقول فى العجائب وهو يصف عدوانهم على الناس ، وهم فى ثورتهم على الفرنسيين ، إن أهل البلاد « تمنوا زوالهم ورجوع الفرنسيين على حالتهم التى كانوا عليها » .

كما يسقط رسالة عنيفة وجهها الشيخ السادات إلى كتخدا الدولة ، يزجره فيها على عدوان جنده . ونجدها فيما كتبناه عن الأزهر والعلماء من كتابنا هذا[1].

كذلك نجد فى العجائب كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة التى تخوف من عاقبة الظلم ، ثم لا نجدها فى مظهر التقديس . كأنما خشى أن يفهم ذكرها على أنه تعريض بالعثمانيين . وكذلك لم يذكر الضرائب والمغارم التى فرضها الفرنسيون على علماء القاهرة وأعيانها ، جزاء اشتراكهم أو تحريضهم على الثورة . ومناقشة كليبر لهم فى ذلك .

وعند ذكره لقتل الجنرال كليبر ، أسقط السجل الذى أثبته فى العجائب عن مناقشة قاتله ، سليمان الحلبى ، ومحاكمته ، وأقوال الشهود ، والأحكام التى صدرت بإعدامه ، وإعدام شركائه الثلاثة ، وأمر القائد العام الجديد ، الجنرال منو ، بتنفيذ هذه الأحكام . ووصف هذا التنفيذ .

ومن الملاحظات الجديرة بالعناية ، أنه عند ما ذكر إنشاء الديوان الثالث ، الذى الذى أمر منو بتشكيله من العلماء وحدهم . أسقط أسماء أعضائه التسعة . وقد ذكرهم فى العجائب ، وأشار إلى نفسه فيهم بقوله «وكاتبه» .

وكذلك أسقط من مظهر التقديس ، الوصف الذى أثبته فى العجائب لجلسة هذا الديوان الأولى .

وكان ديجنت ، كبير الأطباء الفرنسيين ، ألف رسالة فى علاج الجدرى ، لعله أهداها إلى الجبرتى . فوصفها فى العجائب بأنها « لا بأس بها فى بابها » . ولكنه فى مظهر التقديس يسقط وصفه لها . وهو لا يذكر أيضا تخفيف الفرنسيين لبعض

(١) فى الجزء الثانى من الكتاب .

الأتاوات التي كان الوالى والمحتسب يفرضانها على أهل القاهرة . ولا يذكر خبر قدوم الإنجليز إلى أبي قير ، وحربهم الفرنسيين .

ونجد عند ذكره أنباء عودة العثمانيين للقاهرة شيئاً غير قليل من الاختلاف والتغيير . وإسقاطا لحوادث اعتدى فيها جندهم على بعض البائعين من أهل القاهرة . غصبوهم بضاعتهم ؛ فلما طولبوا بثمنها ، قتلوهم وقتلوا غيرهم ، حتى رجال الأمن والشرطة .

ثم نجد ، بعد وصفه موكب الصدر الأعظم حين دخل القاهرة ، قطعة ، أعتقد أنها من إنشاء الشيخ العطار ، فيها ذكر لكبار العثمانيين الذين قدموا معه ، وفيها قصيدة للشيخ أيضا أولها :

إنما العز في متون الجياد مع بيض الظبا ، وسمر الصعاد

وهي ثلاثة وثلاثون بيتا . وفي هذه القطعة من النثر ، نجد كل اسم من أسماء هؤلاء القادمين ، مسبوقا بطوفان من ألقاب التعظيم والمدح والتفخيم .

وعندما استقر الأمر للعثمانيين ، فرضوا على تجار القاهرة مغارم ، ذكرها في العجائب ، وطواها في مظهر التقديس . كما طوى أخباراً أخرى عن بعض المماليك، وعزل القاضي التركي ، وقتل بنت السيد خليل البكري[1]،ومشاجرات وقعت من الجند العثماني على أهل القاهرة . كما أسقط اشتغال هؤلاء الجند بالبيع والشراء ، وتستر قادتهم عليهم . بل دفاعهم عنهم . لأنهم أنقذوا مصر من الفرنسيين ... !

وفي الشهور الثلاثة الأخيرة من الكتاب ، نجد كثيراً من الأخبار قد حذفت ، ونجد بدلا منها أنباء قدوم السادة من كبار العثمانيين ، مثل محمد أفندي شريف ، دفتردار الدولة ، ويذكر في قدومه شعرا ، وقدوم كتخداه — نائبه — عثمان أفندي ، وشمس الدين بك ، أمير أخور[2] ، ومرجان أغا ، والقاضي مصطفى أفندي دباغ زاده . ولا يذكر ، بعد ذلك ، في حوادث شهر ربيع الثاني سنة ١٢١٦ ، سوى عودة المحمل . ويسقط القرارات والأوامر التي أصدرتها الدولة بشأن الأموال والضرائب

(١) نجد قصتها في آخر الحياة الاجتماعية من هذا الكتاب .

(٢) أمير المذاود ، الموكل بعلف الدواب

ونجد بعض حوادث هذه الشهور الثلاثة فى غير موضعها، ويذكر فى هذه الشهور بعض اعتداءات الجند العثمانى . وكف الصدر الأعظم لهم عندما علم ذلك .

ثم يسجل كتاباً ، نجده فى العجائب ، موجهاً من السلطان إلى عرب البحيرة ، بأن يكفوا عن قطع الطريق ، والعدوان على الناس . وجواباً كتبه الشيخ إسماعيل الخشاب ، على لســان هؤلاء العرب ، بأنهم سيلزمون الطاعة . وهو موجه إلى « الصدر الأعظم يوسف باشا ، بلغه الله ، من المرادات ما شا » . وتاريخ هذا الجواب اليوم الثانى والعشرين من شعبان سنة ١٢١٦ ، وبه تنتهى حوادث مظهر التقديس .

ونجد فى مظهر التقديس شيئاً قليلا من التغيير ، والاختلاف ، عن عجائب الآثار ، ولـكنه تغيير واختلاف قليل القدر والأهمية . كما نجد بعض الزيادات القليلة أيضا ، غير ما سجلنا من قبــل ، كزيادته مدح قائد الجيش التركى ، مصطفى باشا ، الذى أسره الفرنسيون ، لمناسبة إخراجه من الأسر ، ثم سفره بعد ذلك إلى دمياط وموته فيها . وزيادته تقبيح الفرنسيين وسبهم فى بعض المناسبات ، ووصفه بعض كبارهم بأنه « كلب » . وزيادته قطعة من النثر والشعر للشيخ حسن العطار ، وصف فيها بركة الفيل ، وذكر ما أصابها من التخريب على يد الفرنسيين ، عند الثورة عليهم .

ومع أنه أسقط من سنتى ١٢١٣ و ١٢١٤ التراجم التى سجلها فى ختام كل سنة من العجائب ، لمن ماتوا فيهــا ؛ فقد ذكر ، فى حوادث الشهور ، بعض الوفيات ، كوفاة ولدى الشيخ أحمد الجوهرى ، محمد ، وعبد الفتاح . والأمير مراد بك ، والشيخ عبد القادر المغربى . وفى ختام سنة ١٢١٥ يترجم لمن ماتوا فيها . ولـكنه يسقط تراجم العلماء ، ويسجل تراجم المماليك والأمراء .

ونجد كذلك قصيدة للشيخ حسن العطار فى مدح الشيخ عبد القادر المغربى .

وما عدا هذه الفروق ، نجد مظهر التقديس متفقاً مع عجائب الآثار ، فى الحوادث ، والصياغة ، والترتيب .

وفى نهاية مظهر التقديس خاتمة تتلخص فى أنه من الأوفق أن يجمل ختامه، شهر رمضان ، تيمنا به ، وإشارة إلى أن وجود الصدر الأعظم ، الذى ألف برسمه الكتاب ، فى الأيام ، كوجود شهر الصيام فى الأعوام ، يزيل الفساد ، ويكثر العبادة ، وتنجبر به القلوب، وتخلص النيات فى كل مرغوب . ولأن فيه ليلة القدر، والصدر الأعظم شبيه بها فى أن الأمة المحمدية تترقب ظهوره من مدد متطاولة . ولأن قدومه مصر كقدوم العيد فى نهاية شهر رمضان .

وبعد ذلك شعر فى مدحه ، لابأس به ، وفى تهنئته بشهر الصوم لا بأس به أيضاً . ويجيىء ، بعد الدعاء الكثير ، بيتا التاريخ :

سعد تاريخنا بإقبال صدر   بمعالى ثنـــائه مسطور

فلهذا يقول بشرى ، أرّخ   باجتناء السرور جاء الوزير

وقد تم تأليفه فى نهاية شهر شعبان من سنة ١٢١٦ .

وكان الفراغ من تحرير هذه النسخة فى غرة المحرم من سنة ١٢٢٤ .

ونستطيع بعد ذلك أن نسجل أن الفروق التى نجدها فى مظهر التقديس ، عن العجائب ، مردها إلى المناسبة التى ألف فيها الكتاب .

فهو عند ما دوّن ما كتب عن الفرنسيين فى عجائب الآثار ، كانوا ما يزالون يقيمون فى مصر ، وهم أصحاب الحول فيها والسلطان . فهو ، فى هذه الحالة ، يتخذ سبيل السلامة ، ويأخذ بالمداراة والتقيّة ، فلا يتعرض لهم بذم أو ملامة .

وهو ، فى الوقت نفسه ، يترجم عما فى نفسه من تقدير لهم ، وعطف عليهم ، نلمسه فى غير موضع من العجائب . وندركه من صلاته بهم ، ولو أنه حرص على سترها شيئاً ما .

وهو عند ما كتب ، مع صديقه العطار ، مظهر التقديس ، كان الفرنسيون قد تركوا مصر ، ولم يبق لهم فيها حول ولا سلطان ، بل عاد السلطان فيها لخصومهم

العثمانيين . ومظهر التقديس يؤلف لصدر من صدور الدولة . عند ذلك كتب الجبرتى والعطار ما كتبا فى مذمة الفرنسيين ونابليون ، ووصفاهم بما وصفا .

وما أسقطه من الكتاب أمور لاتهم الصدر الأعظم ولاتهم الدولة [1] .

---

(١) فى المكتبة الأهلية فى رامبور بالهند ، مخطوط لمظهر التقديس تحت رقم ٣٦٣٤ تاريخ نسخه سنة ١٢١٦ ولم يذكر اسم ناسخه . وهو فى ١٧٥ صفحة . وقد أخذت له الإدارة الثقافية بالجامعة العربية صورة فتوغرافية محفوظة فى معهد إحياء المخطوطات بها تحت رقم ٣٠٣٣ / ٩٨ — ٢٧٥ ويقول الأستاذ رشاد عبد المطلب خبير المخطوطات بالجامعة العربية إن هذا المخطوط « قد يكون نسخة المؤلف » .

وتوجد من عجائب الآثار مخطوطات كثيرة فى مكاتب المانيا وفرنسا وانجلترا وروسيا والهند واستامبول .

الفصل الثانى

الحياة الفكرية والاجتماعية



هذه الحياة الفكرية والاجتماعية ، التى سجلها الجبرتى ، عن غير قصد ، ومن غير ترتيب ولا تبويب ، من أجمل ما دونه . ومن أهم ما حفظه لنا من صور هذه الأيام ، التى لم يسجلها سواه . وفى هذه الحياة الاجتماعية خاصة ، نرى من العادات ، والتقاليد ، والأفكار ، والمعتقدات ، ما لا نزال نجد شيئاً منه ، أو هو منه قريب ، فى حياة المجتمع المصرى الذى نعيش فيه . أو ما كنا نراه إلى وقت قريب ، ثم جاءت الحياة الغربية الجديدة تمحو من صفحاته سطراً فسطرا ، وتخط فيها سطورا جديدة ، تصور مجتمعاً جديداً ، أو خليطاً من قديم وجديد .

وقد سجل الجبرتى هذه الصفحات من حياة مصر الاجتماعية والأدبية ، فى ثنايا هذه الحوادث التى دونها يوما فيوما ، أو بين تراجم الذين ترجم لهم فى وفياته التى كان يخصص لها غالباً ، الفصول الأخيرة من ختام السنة التى يؤرخ أيامها ، وما كان فيها من حوادث ووقائع . وما جد فيها من أمور . وقد تكون هذه الحوادث والوقائع والأمور ، التى قصد الجبرتى إلى تسجيلها ، أولا وبالذات ، أقل شأنا ، أو هى كذلك الآن على الأقل ، من هذه الصور الحية ، الخلابة ، الصادقة ، التى جاءت تبعاً لهذه الحوادث من صور الحياة الاجتماعية .

وليس من الطبيعى أن نطالب الجبرتى بتسجيل مظاهر الحياة الاجتماعية التى كان يحياها الناس إذ ذاك ، فى القاهرة ، أو فى الريف . فذلك فن من القول والكتابة جديد ، لم يعرفه الناس فى عصره ، ولم يتنبه له كاتب أو مؤلف . والذى يعيش بين الناس ويرى عاداتهم ، ويشارك فيها كل يوم وساعة . لا يتنبه إلى ما يجد على حياتهم وحياته من تطور أو تحول بطىء ، وما يدخل فى هذه الحياة أو ينمحى فيها ، أو يمتزج بها بفعل الزمن ، وتأثير الخلطة والاتصال بين الناس ، بالتجارة ، أو الحرب ، أو السفر . إلى غير ذلك من شؤون الحياة التى لا تنى عن التطور والتحول والمزج .

وهو لذلك يعتقد ، أو يشعر ، بأن هذه العادات التى اعتادها معاصروه ، والحياة التى يلابسها معهم فى كل شأن وأمر ، ستبقى ، كما هى ، لا يمسها تغيير

ولا تبديل . فليس مما يفيد أن يسجلها ، أو يـكتب فيها ، على فرض أنه تنبه لأن يكتب أو يسجل من ذلك شيئاً .

ولـكن الجبرتى خرج عن هذه القاعدة ، فى فترة من هذه السنين التى سجل تاريخها فى كتابه . وهى فترة الحملة الفرنسية . فقد سجل ، أولا وبالذات ، طائفة من الآثار الاجتماعية ، التى خلفتها جنود هذه الحملة فى القاهرة . وقد وفينا ذلك حقه فيما كتبناه عن أثر هذه الحملة فى ختام هذا الجزء .

وخروج الجبرتى عن القاعدة فى هذه الفترة ، أمر طبيعى ، فإن الأثر الذى أو جدته ، وخلفته ، هذه الحملة ، كان من الوضوح والقوة ، بحيث تنبه له الجبرتى ، وأحس بنفسه وقعه فى حياة المجتمع القاهرى ، الذى كان هو أحد أركانه ، وعمده ، وخاصة فى حياة المرأة . ونحن نعرف ، وما نزال نلمس فى مجتمعنا الحاضر ، مايحسه المجتمع المصرى نحو المرأة ، وما يلابس شؤونها ، ويمس سلوكها ، وأخلاقها ، وملبسها ، وآدابها . والناس؛ فى مصر والشرق ، لهم حساسية شديدة ، نحو مايتصل بالمرأة ، وشأنها كله .

والحياة الفـكرية ، فى العصر الذى أرخه الجبرتى ، تـكاد تـكون مقصورة على الأزهر ، فهو محور هذه الحياة ومنبعها ، وبيئتها . حتى الذين ليسوا من علمائه ، أو رجاله ، كالسيد مرتضى الزبيدى ، أو كالجبرتى نفسه ، لم يكونوا بعيدين عنه ، ولا عن علمائه ورجاله .

ولم تكن هذه الحياة الفـكرية خصبة ولا عميقة ولا قوية . ولـكنها كانت حياة مصر الفـكرية فى ذلك التاريخ . وهى ، بلا شك ، لا بد أن تدوّن وتدرس بكل ما تستحق من أمانة ودقة وتفصيل . على أنها ، كما ترى بعد قليل ، لم تخل من شىء ، أو أشياء ، ذات قيمة .

النثر والشعر

كان النثر سجعاً ، غثاً ثقيلا ، مرذولا . يمثله ما كتبه الشيخ حسن العطار احسن ، أو أصدق تمثيل . فما أحب أن يذكر الحسن فى هذا المعرض .

والشيخ حسن العطار رجل من رجال هذا العصر الذى سجله الجبرتى ، وهو حقيق أن نتوسع بعض الشيء فى الحديث عنه . لأنه كان منفرداً عن أهل عصره بأشياء تستحق أن تسجل .

ولد الشيخ حسن بن محمد العطار سنة ١١٨٠ وكان من علماء الأزهر ، ثم شيخاً له . ولـكنه تميز عنهم بتلك الرحلات التى قام بها فى كثير من البلاد . كما تميز بروح تجديدية جعلته يدعو دعوة خافتة لأن تتأثر مصر بالحضارة الأوربية . وهذه الدعوة الخافتة ؛ هى بمثابة ثورة إذا رعينا ظروف البيئة والزمن .

كان أبوه ، الشيخ محمد كتن ، رجلا فقيراً عطاراً ، ولـكنه يشتغل بالعلم . وكان ابنه هذا يعينه فى دكانه ، ويستمع إلى شيء من علمه . ولـكنه كان يرغب فى العلم أكثر مما يرغب فى ممارسة البيع والشراء فى شؤون العطارة . فـكان ينفلت من دكان أبيه إلى الأزهر فيحضر دروس العلماء فيه . يفعل ذلك خفية من أبيه . فلما عرف أبوه ذلك وعرف أنه حفظ القرآن ، سرّ به كثيراً وساعده على التقدم فى طلب العلم والانقطاع له .

ثم جاء الفرنسيون مصر وهو شاب عالم صغير . فخاف على نفسه منهم، وهرب ، كما هرب كثيرون غيره من العلماء ، فنزح إلى الصعيد . ثم عاد إلى القاهرة فاتصل بطائفة من رجال الحملة الفرنسية يتعلم منهم أشياء من معارفهم، ويعلمهم اللغة العربية . « ويقول إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها . ويتعجب مما وصلت إليـه تلك الأمة — الفرنسية — من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة[1] » .

ثم سافر الشيخ بعد ذلك إلى الشام فأقام فيها زمناً . يتطارح الشعر مع شعرائها ويراسل علماءها ويصف غوطتها ومنازهها .

ورحل بعد ذلك إلى تركيا فأقام فيها زمناً طويلا . وخاصة فى بلدة سكودرة ، حيث تزوج من أهلها وأعقب . ولـكن عقبه مات ، ثم عاد بعد ذلك إلى مصر وقد زاد علما وخبرة ومعرفة . وجلس يدرس التفسير ، فـكان العلماء يتركون

---

(١) ص ٣٨ خطط على باشا مبارك جزء ٤ .

حلقات غيره ويتكاثرون على حلقته يستمعون . وقدم فى أيام محمد على رجل من الدروز اسمه بطرس ، وكان ذا علم بالتواريخ والأنساب والأيام وعلوم العربية ، فتعرف إليه الشيخ وكانت بينهما صـداقة ومحبة ، ومدح بطرس الشيخ بشيء من الشعر .

وللعطار مؤلفات عدة ، فى علوم الفقه والنحو والمنطق ، ورسائل فى الهندسة والطب ، والتشريح ، والرمل والزايرجة . وكانت أسرته فى الأصل من بلاد المغرب . وكان رسم بيده المزاول لمعرفة الوقت بالليل والنهار .

كما كان من أصدقاء الجبرتى الحميمين . ولـكن العطار تقرب إلى محمد على عند ما استقر له الأمر ، وخدمه . وأنشأ فيه المدائح وفى ابنه إبراهيم ، وأهدى إليه كتابه فى الرسائل . واختاره محمد على محرراً للوقائع المصرية ، أول صدورها . ثم ولاه مشيخة الأزهر ، فى الرابع من شوال سنة ١٢٤٦ بعد وفاة الشيخ الدمهوجى . وبقى فى المشيخة إلى أن مات فى سنة ١٢٥٠ بعد وفاة صديقه الجبرتى بتسع سنوات . وقد انحاز العطار إلى محمد على ، كما رأينا ، وخاصمه الجبرتى خصومة عنيفة متصلة . ولـكن هذا الخلاف فى الاتجاه والمنهج لم يبعد ما بين الصديقين ، ولم يوهن ما كان بينهما من محبة وود . حتى أن الجبرتى بعد موته ، تكفل العطار بأسرته وعقبه . وأعانهم على الحياة عونا مخلصاً .

وكان العطار شاعراً ناثرا . ولا أريد أن أقتبس شيئاً من نثره ، فقد طبعت قطعة كبيرة منه يمكن أن يرجع إليها من يشاء[1] ولـكنى أنقل فهرس هـذا الـكتاب الذى جمعت فيه هذه القطعة من النثر . ففيها دلالة على ما تناوله الشيخ من مواضيع . ودلالة أيضاً على ما كان يفكر فيه الناس ، ويتناوله الـكاتبون من شؤون الفكر . وفيها كذلك إشارات إلى شيء من الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . وكان الناس يتخذون من هذه الرسائل وأمثالها نماذج ، أو يقتبسون منها فى كتبهم .

تبدأ رسائل الشيخ ، بعد المقدمة ، بالنوع الأول من الرسائل ، وهى فى

(١) طبعت رسائل الشيخ العطار فى المطبعة العثمانيه بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ وذكر فيها أنها بعض ما أنشأه ، لا كله .

مخاطبات الملوك والأمراء ، فى الدولة العثمانية . ثم مخاطبات القضاة ، والعلماء والمشايخ . ثم فى رسائل الإخوان . وتقريظ ترجمة ألفية ابن مالك للغة التركية ، ثم قطعة من كتاب ألفه فى رحلته إلى الشام . وصف بها دمشق ، ومنازهها . وقطعة أخرى فى وصف القسطنطينية وخليج البسفور . ثم أورد بعد ذلك أبياتاً من الشعر يفتتح بها الكاتب رسائله ، أو يضمنها إياها ، أو يستشهد بها . ومجموعة من « الطرائف والظرائف » . وهى أمثال « تحاضر بها الكتّاب ، ويحاولون الكتاب » . ثم تختم الرسائل بمجموعة من النماذج لكتابة العقود ، والشروط ، والصكوك . مما يتعلق بحياة الناس ، ومعاشهم ، وتجارتهم . ومنها صيغة لكتابة عقد العتق للرقيق ، والتدبير[1] وفى هذه الرسائل صفحات من النثر المرسل . ليس فيها ذلك السجع الثقيل .

وما كتبه العطار فى وصف منازه القسطنطينية ، ومياه البسفور ، وهى قطعة من كتاب ألفه فى رحلة إليها ، خير مثل — فى تقديرى — لأسلوب الشيخ فى نثره[2] .

والشيخ حسن العطار شعر ، لعله خير من نثره . فمن ذلك هذا الشعر الذى يصف فيه بركة الأزبكية ، وما كان له فيها من مسرات ، وما كان حولها من قصور : —

بالأزبكية طابت لى مسـرات	ولذ لى ، فى بديع الأنس ، أوقات
حيث المياه بها ، والفلك ، سابحة	كأنها الزهر تحويها السموات
وقـد أدير بها دور مشيدة	كأنها ، لبدور الحسن ، هالات
والماء ، حين سرى رطب النسيم به	وحل فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع ، فوقها نقط	من فضة ، واحمرار الورد طعنات

وللشيخ حسن العطار قصيدة فى مدح صديقه الشيخ أبى القاسم المغربى ، شيخ رواق المغاربة . أورد بعضها الجبرتى فى مظهر التقديس[3] وقال إنها طويلة ، وهذا مطلعها : —

(١) التدبير هو منح الحرية للرقيق ، بعد وفاة سيده ، بتعليق الحرية على الوفاة .
(٢) ص ٧٤ — ٧٦ من الرسائل .
(٣) ظهر الورقة ١١٤ من المخطوط .

انهض، فقد ولت جيوش الظلام وأقبـــل الصبح ، سفير اللثام
وغنـــت الورق ، على أيكها تنبه الشرب لشرب المـــدام
والزهر أضحى ، فى الربا ، باسما لما بكت ، بالطل ، عين الغمام
والغصن قـــد ماس بأزهاره لما غدت كالدر فى الانتظام
وعطـــر الروض مرور الصبا على الربا حـــين ، فأبرى السقام
كأنمـــا الورد على غصنه تيجان إبريز على حسن هام
كأنما الغد رانـــ خلجان أغـ صان النقا ، والنهر مثل الحسام
كأن منظوم الزرا جين(1) باقـ وت غدا ، من نظمه ، فى انسجام
كأنما الآس عـــذار على وجنة خشف(2) قد علاها ضرام
كأنما الورقاء ، لما شـــدت ، تتلو علينا فضل هـــذا الأمام

وفى رسائله رسالة من عاشق إلى معشوق .

وله شعر لم يدونه الجبرتى منه هذه القصيدة التى قالها فى تهنئة صديق له كان نقيباً لأشراف القدس ، وأبعد عن النقابة ثم عاد إليها مرة أخرى ، وأولها :

الحمـــد لله على فضله قد رجع الحق إلى أهله
وآض روض الفضل ذا بهجة من بعد ما أشفق من محله
قد يطلب الحسناء من لم يكن كفؤاً لها ، للحمق فى عقله

ومنها :

قد يتساوى اثنان فى منصب وإنما التفريق فى سبله
ومفخر المرء بأفعـــاله لا بالذى قد مات من أهله
وقد يسود الشخص آباءه ويشرف الفرع على أصله
وقد نرى فرعين من دوحة تخالفا فى الحـكم ، مع شكله
فالخل والخمر عصير ، وقد باين هـــذا ذاك فى فعله

(1) الزرجون شجر العنب ، بلغة أهل الطائف وقيل قضبانه .
(2) الخشف ، بتثليث الخاء ولد الظبى ، أول مايولد .

وله هذان البيتان فى وصف مدينة أسيوط . وكان قد أقام فيها زمناً هرباً من الطاعون :

سقياً لأسيوط ، ذات الظل والشجر ... ومرتع اللهو ، واللذات ، والزهر
منـــازل بصنوف العيش عامرة ... يلهو النديم بها فى مشتهى العطر

وللشيخ ، وقد عرفنا أنه تولى مشيخة الأزهر ، هـذا الغزل الذى أورده الجبرتى :

أعن المحب ثناك عنه وجيبه . . . ؟ ... أم قد دعاك إلى البعاد رقيبه . . . ؟
هجر الـكرى ، لما هجرت ، وواصلتـ ... ـه شجونه ، وازداد فيك نحيبه
لم يجن ذنباً ، فى هواك ، وإنما ... قد كان ، بالهجران ، منك نصيبه
أفقرته من حسن وصلك ، بعد ما ... جادت عليـــك دموعه ، ونسيبه
وتركته ، والفـكر منك مع النهـا ... ر ، سميره ، والسهد منـــك منيبه
لو لـقّا عطفتك منـه شـكاية ... رقّت ، ودمع طافح شؤبوبه
لرأيت جسما كالخلال ، من الضنا ... ولهيب قلب ، مقلتاه تذيبـــه

أفلا رثيت لعـاشق لعبت به ... أيدى المنون ، ونازعتـــه خطوبه
أنت النعيم له ، ومن عجب تعذ ... به ، وتمرضه ، وأنت طبيبه . . . !

وهذه أيضاً ، وقد قالها فى مدح إبراهيم بن محمد على عند عودته منصوراً من الشام :

سمهرى ينثنى ، أم غصن بان . . ؟ ... أم قوام ، دونه ، صبرى بان . . ؟
صان بالعسال[1] معسول اللمى ... وتهـادى ، هادماً ما أنا بان
يا مليك الحسن ، رفقاً بشجٍ ... كلما حاول كتم الشجو ، بان
مرج البحرين فيضا ، دمعـــه ... إذ رأى جفنيـــه لا يلتقيان

(١) العسال الرمح .

جاء ، لما جار سلطان الهوى — طالباً ، من عادل القد ، الأمان
رب ساق ، وهو قاس قلبه — عطفه ، منذ أدار الكأس ، لان
أهيف إن ماس تيهاً ، ورنا — رحت منه بين سيف وسنان
كسر القلب ، وما كان التقى — فيه ، من حين هواه ، ساكنان

. . . .

يا نديمي قم ، وباكرها ، وطب — هذه الجنة والحور الحسان
وأدر لى بنت كرم عتقت — نورها الباهر يحكي البهرمان[1]

ولا نجد هذا الحديث كله عن العطار عند صديقه الجبرتى . وقد أكملناه من سيرة كتبها ابن له . وحفظها على مبارك فى الجزء الرابع من خططه .

الشيخ عبد الله الشرقاوى

وهناك شيخ للأزهر آخر ، هو الشيخ عبد الله الشرقاوى . وكان ، من كبار الرجال فى ذلك العصر ، ورئيساً ثلاث مرات للديوان الخصوصى الذى أنشأه نابليون وخلفاؤه . وقد كتب الشيخ رسالة فى تاريخ مصر سماها « تحفة الناظرين، فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين[2] » وجعل هذه مقدمتها : « إنه لما حل ركاب الصدر الأعظم ، والوزير الأفخم ، والدستور الأكرم ، حضرة مولانا الوزير يوسف باشا ، بلغه الله من المرادات ماشا ، بمدينة بلبيس فى شهر رمضان سنة ١٢١٤ بعد حصول الصلح بينه وبين طائفة الفرنساوية ، فى قلعة العريش ، وذهبت مع بعض علماء مصر لملاقاته ، طلب منى بعض الإخوان ، من أتباع ذلك الصدر الأعظم ، أن أجمع كتاباً متضمناً لواقعة الحال المذكور » .

(ومن رسالة الشيخ الشرقاوى هذه ، تحفة الناظرين ، نستطيع أن نعرف مستواه الذهنى ، ومدى فهمه للتاريخ . كما نعرف ، فى ثنايا صفحاته ، قيمة إدراكه الوطنى ، وإحساسه ، أو رأيه ، فى أهل مصر)

---

(١) البهرمان نوع من الياقوت الأحمر ، وهو فارسى

(٢) طبعت هذه الرسالة فى المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨١ هـ فى ٧٢ صفحة من القطع الصغير .

أما إدراكه الوطنى فقد يبدو فى هذه الصفحات ، التى ذكر فيها خصائص أهل مصر ، وصفاتهم الغالبة ، والتى ننقل منها هذه السطور : « . . . وإن أهل مصر ، الغالب عليهم الأفراح ، واتباع الشهوات ، والانهماك فى اللذات ، وتصديق المحالات . وفى أخلاقهم رقة ، وعندهم بشاشة ، وملقة ، ومكر ، وخداع . ولا ينظرون فى عواقب الأمور . وعندهم قلة الصبر فى الشدائد . والقنوط من الفرج . وشدة الخوف من السلطان . ويخبرون بالأمور المستقبلة ، قبل أن تقع »[1] ›

(وقد يكون هذا الذى سجله الشيخ ، بعضه أو كله ، من صفات أهل مصر الغالبة . ولكنه ليس كل صفاتهم ، على التحقيق . وليس صفة ملازمة لهم على الدوام فى كل الأزمان . فهو لم يذكر لهم صفة حسنة طيبة ، فى مقابل هذه الصفحات ، المعيبة/.

وأما مستوى ذهنه ، ومدى فهمه للتاريخ . فنحن مدركوه عند ما نراه يقول ــ وهو يكتب التاريخ ــ إن أقصر الفراعنة أعماراً ، كانت أسنانهم مائتى سنة · وكان أطولهم عمراً ، سنه ستمائة سنة . وأن فرعون موسى كان قصيراً . طوله ستة أشبار . وطول لحيته سبعة . . ! وقيل كان طوله ذراعا واحداً · وأن هذا الفرعون بقى على عرش مصر خمسمائة سنة .

وأن بعض الفراعنة ، كان من الكهان . وكانت لهم أعمال عجيبة . فمن ذلك ، كما يقول الشيخ ، أن الملك الكاهن ، صيلم ، اتخذ مقياساً على النيل ، وأنشأ بركة من النحاس عليها عقابان ، ذكر وأنثى ، وفيها قليل من الماء . فإذا كان أول شهر يزيد فيه النيل ، اجتمعت الكهنة وتكلموا بكلام . فيصفر أحد العقابين . فإن كان هذا الذى صدر منه الصفير ، هو الذكر . جاء النيل عاليا . وإن كانت الأنثى جاء ناقصا .

---

(١) ص ٨ من الرسالة .

ومنها أن الملك الكاهن ، أعشامش ، عمل ميزاناً فى هيكل الشمس . وكتب على إحدى كفتيه كلة « الحق » وعلى الأخرى كلة « الباطل » ووضع تحت كل منهما فصوصاً . فإذا جاء إليه متخاصمان ، أخذ فصين ، وقرأ عليهما كلاما . وجعل كل فص منهما فى كفة . فتثقل كفة المظلوم . وترتفع كفة الظالم .

ومنها أن فرعونا من هؤلاء الكهان كانت له مرآة يرى فيها الأقاليم السبعة ، المخصب منها والمجدب . وينظر فيها فيرى ما حدث من الحوادث . وأنه أقام فى وسط المدينة تمثال امرأة جالسة ، وفى حجرها صبى ، كأنها ترضعه . فإن أصاب امرأة مرض فى جسمها ، مسحت ما يقابل هـــذا الموضع من التمثال . فتبرأ من ساعتها .

ووضع فرعون آخر من هؤلاء ، شجرة أغصانها من حديد ، ولها خطاطيف . فإذا قرب منها الظالم خطفته ، وتعلقت به . فلا تتركه حتى يعترف بظلمه .

وعمل فرعون آخر شجرة من نحاس . كلما قرب منها وحش لم يستطع الحركة ، حتى يؤخذ . فشبعت الناس لحما ، فى أيامه . ووضع على باب المدينة صنمين ، عن يمين ، وعن شمال . فإذا دخل المدينة رجل من أهل الخير ، ضحك الصنم الذى عن يمين الباب . وإذا دخل رجل من أهل الشر ، بكى الذى على اليسار .

أما الملك السادس ، فقد كان يجلس فى السحاب ، فى صورة إنسان عظيم .

وقد غاب عن ملكه زمناً ، حتى ظل أهل مصر بلا فرعون . ثم رأوه ، فى صورة الشمس فى برج الحمل . فكلمهم ، من الشمس ، وأعلمهم أنه لا يعود إليهم . وأن يولوا فلاناً بعده .

وضرب فرعون آخر درهما ، إذا وضع فى كفة الميزان ، ووضع فى كفته الأخرى ما يريد أن يشتريه المشترى . فإن كفة هذا الميزان لا تشيل أبداً ، مهما وضع فيها من هذا الشيء المباع . ثم قال الشيخ ، إن درهما من هذه الدراهم ، وجد فى كنوز مصر ، فى أيام بنى أمية .

هكذا يكتب الشيخ عبد الله الشرقاوى ، التاريخ . وقد كان شيخا للأزهر ،

ومقدما بين علماء عصره . ورئيساً مختاراً للدواوين الذى حكم الفرنسيون مصر ، عن طريقها .

وهذه النماذج التى ذكرتها ، وقصدت أن أطيل ، بعض الإطالة ، فى سردها ، لا تدل على مستوى الفهم ، والتفكير ، عند الشيخ وحده . بل هى ذات دلالة ، إلى حد كبير ، على المستوى الفكرى . لعلماء ذلك العصر .

(ومن المفيد أن نعرف أن للشيخ عبد الله الشرقاوى مؤلفات ، وكتب فى فقه الشافعية ، وشروح ، وحواش . تعتبر من أكبر المراجع المتداولة عند أهل الأزهر . والمقررة للتدريس فيه)

وفى كتاب تحفة الناظرين هذا ، أخطاء نحوية، ولغوية يدركها من يقرؤه . كما حفظت وثائق الحملة الفرنسية نماذج من توقيعات الشيخ عبدالله الشرقاوى وتقريرات بخطه، ومن إنشائه . كان يكتبها على ما يقدم للديوان من شكاوى ، وهى ركيكة الأسلوب.سوقية العبارة.فيهامن الأخطاء اللغوية مايخجل منهطلبةالمدارسالآن[1] .

وقد رأينا فى فصل « الأزهر والعلماء » أمثلة أخرى من شعر الشعراء منهم ، فى ذلك العصر[2] .

حسن البدرى الحجازى

ومن الشعراء الكبار ، الذين ترجم لهم الجبرتى ، الشيخ حسن البدرى الحجازى . كان عالماً ، شاعراً ، ملازماً للقرائة والدرس ، قليل الخلطة بالناس كثير النقد لأهل عصره . نظم أرجوزة فى التصوف نحو ألف وخمسمائة بيت ضمنها أمثالاً ، ونوادر ، وقصصاً . وألف ديواناً على حروف المعجم ، سماه « تنبيه الأفكار ، للنافع والضار » تعرض فيه لأخلاق الأشرار من الناس ، وانحراف طبائعهم . وله رسالة فى الأشكال المنطقية . ورسائل أخرى فى الوضع ، والنحو . والمنطق . وقد استشهد الجبرتى بكثير من شعره فى مواضع كثيرة من كتابه . وتوفى سنة ١١٣١ هـ

---

(١) نشر الأستاذ أحمد حافظ عوض صورة فتوغرافية لهذه التوقيعات فى كتابه « فتح مصر الحديث » ص ٣٠٤ — ٣٠٨ نقلها عن وثائق الحملة الفرنسية .

(٢) فى الجزء الثانى من الكتاب .

وللشيخ حسن البدرى الحجازى شعر يدل على أنه كان غير خاضع لما كان يخضع له الناس فى عصره من أفهام وأوهام . ولو أن أسلوبه ردىء .

فمن ذلك هذه القصيدة ، التى يتعرض فيها للجاهلين من مدعى الولاية والصلاح . ولصنف من « العلماء » :— وقد قالها فى الشيخ على البكرى .

ليتنا لم نعش الى أن رأينا كل ذى رجّة ، لدى الناس قطبا
علما ، هم به يلوذون ، بل قد تخذوه ، من دون ذى العرش ، ربا
إذ نسوا الله ، قائلين : فلان ، عن جميع الأنام ، يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزارا وله يهرعون ، عجما وعربا
بعضهم قبّل الضريح ، وبعض عتبَ الباب قبلوه ، وتربا
هكذا المشركون تفعل مع اصنامهم ، تبتغى بذلك قربا
وألو العلم والقرآن ، عليهم صُبَّ سوط العذاب ، والمقت ، صبا
إذ رموهم بالفسق ، والزور والجور ، وظلم العباد ، سلبا ونهبا
كل ذا من عمى البصيرة ، والويل لشخصى أعمى له الله قلبا
والحجازىّ ، من سمى حسنا ، ينظر ما خالف الشريعة ، صعبا
فالحذار ، الحذار من فعل أهل الجهل ، لو عالما يدرس كتبا
جعل العلم فخّ صيد لدنياه ، فساوى ، فى صنعة السوء ، كلبا
لا ، بل الكلب منه خير ، إذ الكلب عديم العقاب ، فى يوم عقبى

وله هذان البيتان فى بعض العلماء :—

رب قصير فى الورى ، لحيته طوّلها الله ، بلا فائدة
كأنها بعض ليالى الشتا طويلة ، مظلمة ، باردة

وكان الشيخ الحجازى كثير التعرض لهذا الصنف من الناس ، يذكرهم بهذه الأوصاف فى كثير من شعره . كهذه القصيدة القاسية ، فى مدعى الولاية والتصوف :—

إحذر أولى التسبيح والسبحة والصوف ، والعكاز ، والشملة
والدلق ، والأبريق . لا سيما شيوخ إبليس ، أولى الشعرة

حوت أباليس بتعـــداد ما حوت شـــمورا ، بل بلا عدَّة
والمكرُ ، فات الحصر كالبحر ، بل يعدّ فيـــه البحر كالقطرة
فصار إبليس لهـــم تابعـــا يقـــول : يا للعون والنجدة
ممـــا حويتم علمونى ، فما لى عنكم ، فى المكر ، من غينة
لكم قيادى ، وانقيادى ، وما مثلكم فى النـــاد والنـــدوة
بملء لأفواه ينـــادون : يا أهل الوفا ، يا صاحب النوبة
ياشـــافعى ، ياقطب ، يارافعى يا للرفاعى ، يابنى الرفعـــة
ياســـيدى أحمد ، يا أوليا ء الكون ، عينونا على الجلة
ذو كرّة ، والمـال يبغون ما لهم ، بغير المـال ، من بغية
لكنهم ، فى الفسق ، أرق الورى كما ترى ، من غـير ما مرية
اتخـــذوا المرد مراد لهـــم تهالكوا فيهم على الهلكة

وهى قصيدة طويلة ، قسا فيها على هؤلاء المدعين قسوة بالغة ، ولكنها صادقة مخلصة . ووصفهم وصفاً يثير النفس . وهذه القصيدة نفسها ترسم صورة تستحق التأمل ، لناحية من نواحى الحياة الاجتماعية ، والدينية فى هذا العصر .

ونوع آخر من أنواع الشعر ، أكثر منه البدرى الحجازى . وهو شعر النصيحة ، كهذه القصيدة التى مطلعها : —

أخى فطنا كن ، واحذر الناس جملة ولا تك مغرور الظنون الكواذب

وقوله : —

كن جار كلب ، وجار الشّمرة اجتنب ولو أخاً لك ، من أم ، برى ، وأب

و : —

حذار حـــذار من قرب الأقارب فهم صـــلّ الأفاعى ، والعقارب

و : —

إذا امرأة ، يوما خطبتَ ، فلم تجب فدعها ، ولا ترجع لخطبتها ، العمرا

وغيرها كثير .

وله كذلك شعر يبتسم القارئ حين يقرؤه . لما فيه من دلالة على ذوقه .

الذى هو سمة من سمات أهل القاهرة . فهو ، مثلا ، يقول هذه الأبيات يشكو بها ما يرى من قذارة بعض الأحياء التى يعيش فيها الفقراء من « أولاد العرب » . وهى أبيات تصلح للاستشهاد ، فى بعض هذه الأحياء ، إلى الآن : —

حارات أولا العـــرب سبعاً حوت ، من الـكرب
بولاً ، وغائطا ، كذا تُرْب ، غبارٌ ، سو أدب
وضجة . وأهلهـــا ، مثل عفـــاريت الترب

وله كذلك ، شعر يسجل فيه كبير الأحداث التى وقعت فى عصره . كهذه القصيدة[1] التى أولها :

أيها الإنسان ، دع عنك الدَّغَش لا تكن ممن عباد الله غش

وهى قصيدة طريفة ، أرخ فيها وقائع خليل باشا وإبواظ بك الـكبير ، ويوسف بك الجزار . وجعل ختامها هذا البيت ، مؤرخاً به : —

والحجازىّ حسن قـد أرَّخا يوسف الجزار ، كأسٌ قد قَرَش

يريد أنه شرب كأس الموت .

الأدكاوى

ومن الشعراء الذين ترجم لهم الجبرتى ، الشيخ الأدكاوى . وقد عرفه بالعمدة الفاضل الـكامل ، والأديب الماهر ، الناظم الناثر الشيخ عبد الله بن عبد الله بن سلامة الأدكاوى المصرى ، الشهير بالمؤذن . ولد بأدكو ، بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ ، ثم قدم القاهرة لحفظ القرآن وحضر دروس العلماء ، وأدرك الطبقة الأولى . كالسيد على برهان زادة ، نقيب الأشراف ، وكبير أدباء عصره والشيخ الشبراوى ، والشيخ الحفنى . وكان ، إلى تبريزه فى الشعر والنثر ، جيد الخط ، له فيه قاعدة اشتهرت باسمه ، وتدارسها الناس فى مصر .

وقد صار ، فى الشعر ، والنثر ، والخط ، أوحد زمانه ، حتى توفى شيخه الحفنى ، فتغير حاله ، واعترته الأمراض ، ومرض أياما ثم مات ، فى يوم الخميس ، الخامس من جمادى الأولى سنة ١١٨٤ ، ودفن قريباً من قبر شيخه الحفنى .

(١) ص ١١٣ — ١١٤ ، الجزء الأول من الجبرتى .

وشعر الأدكاوى هذا ، أرق ، وأجود ، وأصح من شعر البدرى الحجازى .

وهذه نماذج من شعره ، وهو ، كأدب ذلك العصر كله . حافل بالجناس والتورية والاقتباس . وما يشبه ذلك من المحسنات : —

سل الله ، ذا المن العظيم ، ولا تسل سواه ، فإن الله يعطيك ما تبغى
ومهما تنل مارمته ، يا أخا الحجى من الأمل المطلوب ، فاقنع ، ولا تبغى

وله هذه القطعة اللطيفة من الشعر . وفيها تعبير كان يظن أنه من مبتكرات عصرنا . وهو التعبير عن الكتاب والأدباء ، بأنهم أرباب الأقلام أو حملة الأقلام :

وعصبة سوء تجافيتهم ونزهت نفسى عن دائهم
لجانىَ قوم ، على تركهم وقالوا : ألست من أكفائهم ؟
فقلت لهم : عذرنا واضح على ترك ساحة أحيائهم
فنحن نعيش بأقلامنا وهم عائشون بأقفائهم ... !

وللأدكاوى مبتكرات فى الشعر ، منها هذا الذى سماه « وسع الاطلاع » وقد قسمه أربعة أقسام ، أولها أن يكون أول كل كلمة ، أولا لأختها . ومنه يقول :

بهىّ بدا بالواصل ، برّاً بصبه بزورته بانت بلابل باله

وثانيها أن تكون كل كلمة مكونة من حرف منقوط ، وحرف عاطل ، سوى القافية . ومنه يقول :

جميل ، بديع ، جل ذاتا بهيّة به زدت حباً ، فاتك بمجاله

وثالثها أن يكون البيت مركباً من كلمات ، إحداها منقوطة والأخرى عاطلة ويسميه الأخيف ومنه يقول :

جنت ولوعاً ، فى هواه شغفت كم فتنت ، عساه يجتنى لكماله

ورابعها أن تكون جميع الكلمات منقوطة ، ومنه قوله :

شفيق ، شقيق ، شيّق ، شنب ، شفى بغنج . بجفن شفّنى بنبـــاله

وله شعر مما لا يستحيل بالانعكاس . أى أنه يقرؤ من آخره لأوله كما يقرؤ من أوله لآخره ، فلا يتغير . كالشطر الثانى من هذا البيت :

بانعـكاس قولنا لم ينعـكس ألغ من ثمَّ ، فمن ثم غلا

وله شعر التزم فيه أن تبدأ الـكلمة بالحرف الذى ختمت به سابقتها ، كهذه الشطرة : تأمل لما أبداه هذا المهفهف .

وهذا ، كما ترى ، لعب سخيف ، وعبث ثقيل . استحال به الشعر إلى كلام معجم مرذول .

ومن الغريب أن الأدكاوى ، الذى يشتغل بهذا اللون من السخف المرذول ، يدعو معاصريه إلى أن يكونوا غير متعصبين لنوع من الشعر ، ولا لأحد من الشعراء ، أو عصر من العصور . كأنه رجل حر الفـكر ، غيرمقلد ، فهو يقول :

كن للمعاصر خير ناصر كم للأواخر من مفاخر
لا تحقرن جـــديدهم كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب ، للأوا ئل ، يافتى ، أو للأواخر
من كان منهم مبدعاً فاعقد عليه من الخناصر

ولعله كان يرى هذا اللعب السخيف ، الذى كان يخترعه ، نوعاً من الإبداع .

ولـكنا نجد للأدكاوى ، شيئاً غير قليل من شعر لا بأس به كهذين البيتين ، وقد قالها بعد أن شفى من مرض أشرف فيه على الموت :

قد حصل اللطف فى القضاء وقد أزال ربى ما كنت أخشاه
ولست أشـكو لغيره أبدا فالحمـــد لله ، ليس إلا هو

وهذه الأبيات ، التى قالها فى الراح والساقى الجميل ، المدلل ، وهى تخميس أبيات أخرى لابن منجك .

طاف بالراح مشتهانا المدلل ينثنى ، مشـــل بانة تتميَّل
قلت ، مذ زمزم الـكؤوس ، وأقبل

تتفـــداك ساقياً ، قد كساك الـ   حسن، من فرقك المضيء ، لساقك
فى معانيك حار فـكرى ، ووصفى   فلأى الصفات أبدى ، وأخفى

وعجيب ، من حيث تبدو لطرفى .

تشرق الشمس من يديك ، ومن فيـ   ك الثريا ، والبدر من أطواقك

وهذين البيتين :

قالوا : تغربت يا هذا ، فقلت لهم :   دعوا ملامى ، فإنى غير مستمع
إذا تغربت ، والدينار يصحبنى ،   لم أدر ما غربة الأوطان ، وهو معى

وهذه الأبيات ، فى الغزل :

بقبـــلة جاد حبى   وكان منى يفـــرّ
فقلت : يا قلب أبشر   فأول الغيث قطر

و :

نحن قوم إذا رأينا مليحاً   جامعاً فى جماله كل بهجة
وأردنا بالاحتيـــال ، نراه ،   نجعل الشرب ، للتفرج ، حجة !

وللأذكاوى بعض من الشعر الماجن . منه ما أفحش فيه ، حتى خرج عن الحد ولا أستطيع أن أنقله فى هذا الـكتاب . فهو مما لا تجيز آداب الناس ، ولا يبيح القانون ، أن يكتب ويذاع . هو مما نسميه الآن بالأدب المكشوف .

ولـكن بعضاً من هذا الشعر ، فيه هزل وليس فيه فحش ، أستطيع أن أنقل شيئاً منه ، كهذه الأبيات التى قالها فى الصداقة الزائفة :

إذا المرء لم ينفعك ، والدهر مقبل   عليه ، ولم تخطر عليـــه ببال
فصوّره،فى وسْط الـكنيف، بفحمة   وشرشر عليه ، عند كل مبال

وقد وضع لها بعد ذلك تخميساً فقال :

إذا المرء لم ينفعك ، والدهر مقبل   عليه ، بما قد كان يرجو ويأمل
وأضحى ، بثوب التيه والـكبر ، يرفل   وصـــار يرى منك المودة تثقل
عليه ، ولم تخطر عليه ببـــال

فصوره ، فى وسط الكنيف بفحمة   وكن ، حالة التصوير ، فى وقت ظلمة
ومن كلّ مبطونٍ وصاحب تخمة   على رأسه يخ . . . ، بعزم ، وهمة
وشرشر عليه ، عنـد كل مبال

وهذين البيتين : —

هيأ البــلانُ موسى خلوةً تحى النفوســا
قيل : — ما تفعل فيها . . ؟ قلت : — أستعمل موسى ..!

وقد وددت لو أنى أستطيع أن أنقل هذا الشعر الماجن كله . فهو يصور هذه الروح القاهرية المصرية الخالصة ، فى ذلك العصر . وهو صورة حية من الشعر ، ومن حياة الناس ، أو الأدباء ، وأهل الترف ، إذ ذاك . ولـكن يستطيع القارئ أن يجـده فى صفحات كثيرة من الجبرتى ، وخاصة فى تلك التى ترجم له فيها ، عند وفاته[1] .

وقد ذكر الجبرتى أن له مقامة فى المجون ، إسمها المقامة « القمذية » . ولـكنه لم يدونها ، وليته فعل ، ولم يقل لنا معنى هذه التسمية .

وللأدكاوى مقامات أخرى ، أورد الجبرتى واحدة منها ، اسمها المقامة السكندرية · وقد التزم فيها أثقل القيود ، حتى صعب فهمها ، وأصبحت ثقيلة باردة . كما ألف كثيراً من الـكتب . منها ، غير ديوان شعره ، بضاعة الأريب ، فى شعر الغريب . وقد تناول فيه تراجم بعض معاصريه من أهل الأدب والعلم ، ومنها الفوائح الجنانية ، فى المدائح الرضوانية ، كتبه فى مدح الأمير رضوان الجلفى ، وسجل فيه ما قاله غيره من المدائح فى هذا الأمير . والدر الثمين ، فى المحاسن والتضمين وتخميس بانت سعاد ، وهداية المتهومين ، فى كذب المنجمين وغيرها .

وروى له الجبرتى بعضاً من الشعر ، جعل بعض أشطره جملا فارسية . وقد يدل ذلك على معرفته هذه اللغة . وقد لا يدل على ذلك — بل هى كلمات عرفها ،

---

(١) ص ٣٥٤ ـ ٣٦٥ من الجزء الأول .

وفهم مدلولها من أصدقائه . أو مجالسه . ثم استخدمها فى هذا الشعر إظهاراً للصنعة والمقدرة .

ولـكن ذلك، على أى حال ، يدل، إلى جانب ما أسلفنا من قبل، على أن اللغة الفارسية كانت ، إلى جنب اللغة التركية ، لغة غير مجهولة فى المجتمع المصرى ، أو فى الحياة الأدبية لهذا العصر .

وهذه أبيات مما ضمنه الأدكاوى اللغة الفارسية : —

وخود من بنات الفرس ألقت	محبتها لهيــبا فى حشائى
وقد ملكتها رقى وحلت	محل السر ، منى ، والوفاء
تعاملنى بما يسبى فؤادى	وتمنحنى سرورا باللقاء
سطا فينا النوى ، فأتيتها كى	أمتع ناظرى ، قبل التنائى
وقالت لى ، وقد أذرت دموعا ،	على الخد المكلل بالبهاء
بألفاظ تحاكى عقد در	«جه بودى كر نبودى آشنائى»[1]

وكانت بين الأدكاوى والشيخ عبد الرحمن العيدروسى مراسلات شعرية ، نجدها فى ديوان هذا الأخير .

الشاعر الظريف الحجازى

وقد امتاز النصف الثانى من هذا القرن ، الثانى عشر الهجرى ، بهذا النوع من الشعر الظريف الماجن ، الذى رأينا بعضا منه فى شعر الشيخ عبد الله الأدكاوى، فى الصفحات السابقة .

فقبل سنتين من وفاة الأدكاوى ، مات شاعر آخر ، يشاركه فى هذا الظرف،

---

(١) يمكن أن يترجم الشطر الفارسى إلى اللغة العربية بهذه الكلمات « ماذا تكون إن لم تكن عارفاً أو خبيرا ؟ . . . وهو معنى يتلاءم وسياق الشعر ، ويكمل مدلوله .

وهذا المجون . كما يشاركه فى صفات أخرى . وكان هذا الشاعر شريفا علويا . حاكما على المدينة .

ترجم له الجبرتى بأنه « وحيد دهره فى المفاخر ، وفريد عصره فى المآثر ، نخبة السلالة الهاشمية ، وطراز العصابة المصطفوية . السيد جعفر بن محمد البيتى السقاف باعلوى الحسينى . أديب جزيرة الحجاز »

وقد ولد جعفر هذا بمكة ، ودرس على علمائها ، حتى أجازوه فى أن يلقى دروسا ، فألقى فى مكة دروسا . ثم تنقلت به الأحوال حتى تولى وظيفة الكتابة عند حاكم مدينة ينبع ثم صار حاكما على المدينة . وتوفى بها ، فى سنة ١١٨٢

أنشأ هذا الشاعر العلوى كثيرا من الشعر ، فى المدح، والغزل ، والمراسلات . ولكن الجبرتى لم يحفظ لنا غير طائفة يسيرة من شعره . وقليل من المقامات التى أنشأها .

أما مقاماته ، فليس فيها سوى السجع المتكلف ، الثقيل ، المصنوع ، وإن كان بعضها يحتوى قصة ظريفة هازلة . كما يحتوى شعرا ظريفا أيضاً . وأما شعره ، فهو سمح ، سهل ، يسير . نستطيع أن نضعه حيث يوضع الشعر الجيد ، أو الحسن ، بالقياس إلى ما نجد من شعر ذلك العصر .

فشعر جعفر السقاف العلوى ، حاكم المدينة ، وأديب جزيرة الحجاز ، من أجود ما نجده من ذلك الشعر الذى سجله الجبرتى ، لمن ترجم لهم ، أو روى لهم شعرا . ويقول الجبرتى إن الناس كانوا يتهافتون على شعره ، ويبادرون إلى حفظه ، وترديده .

ومن شعره هذه القصيدة : —

حيى بكأسك لى ، مع نسمة السحر ،	وسلسلى : الراح ، من مجرى إلى سحرى
حيى براحك ، يا روحى ، على جسدى ،	أفديك بالنفس ، يا سمعى ، ويا بصرى
هى بشمسك ، فى ظل الشباب ، وفى	ظل الغصون ، وفى ظل من الشعر
هى وشق « قميص الغىّ » من قبل	فالراح شقت قميص الليل من دبر

ووسطى بيننا ، فى الشرب ، واسطة   من كأس ثغرك ، هذا الطيّب ، العطر

خداك ، والروض ، أزهـار مضاعفة   وذى الدرارى ، وذى الكاسات ، كالدرر

ناهيك من جـودة التجنيس بينهما   ما أطيب الشرب ، بين الزهر والزهَر

صُفى قنانيك ، حول الكأس ، راكعة   وحيّـملى ، وأقيمى الوتر ، بالوتر

دنياك معشوقة ، والخمـــر ريقتها .   يا ضيعة العمر ، بين السكر والسكر

ردى عهودك لى ، كى أشتكى حزنى   إلى ربيعىَ ، ما كابدت ، فى صـغرى

وهذا شعر ، كما ترى ، حسن ، إذا راعينا مستوى الشعر ، وطاقة الشعراء ، فى ذلك العصر . وهو شعر طلق ، رقيق . فيه كثير من الحرية . وفيه روح الترف والنعيم ، وما هو جدير أن يصدر عن شريف كان أميرا على المدينة .

ومن شعر جعفر ، أيضا ، هذه القصيدة ، يمدح فيها صديقا : —

تلك رؤيا ، قصصتها لك ، فانظر   لىَ ، فيها ، التأويل ، والتعبيرا

وعرضنـا فلزّ حـظ عبيط[1]   وأفضنـا ، لرأيك ، التـدبيرا

ولك الأمر فيه ، حلا ، وعقدا   ربمـا عاد ثابتاً إكسـيرا

صحّ قلب العيان فيه ، وأضحى   جابرٌ ، قلبـه ، به ، مكسـورا

ثم قلنـا للكيميـاء سـلام   قد كفينا التصعيد ، والتقطيرا

وفرغنـا نظّـم الدر من مد   ح مساعيك ، غدوة وبكورا

واشتغلنـا ، مع المحبـين نتلوا   لك فرقان مـدحةٍ ، وزبورا

فنساقى من تلك كاسا دهاقا   كان ، فينـا ، مزاجهـا كافورا

شيماً ، لو تجسمت ، منك كانت   هى ، للناس ، جنـة وحريرا

. . .

وإذا ما رأيت ثَمَّ من المجـ   ـد ، مقاما ، رأيت ملكا كبيرا

(١) من معاني « عبط » ، فى القاموس ، الداهية تصيب الرجل ، من غير استحقاق وعبط الذبيحة نحرها من غير علة .

أبدا ، فى مواكد الفخر تستمـ ـبد كسرى الملوك ، أو سابورا

. . . . . .

يا لأنسان رفعة ، أنت ، فينا يرجع الطرف ، إن رآك ، حسيرا
بيت حبي ما زال فيك مدى الد هر ، دواما ، مشيدا ، معمورا
فتقبل ، إليك ، حور معان قد سكنّ الألفاظ ،منى ، قصورا

. . . . . .

وابق ، واسلم ، كما تشاء المعالى تبق ذكرى خير ، وتفنى الدهورا
أبدا ، كلما خصصْت بمدح وسعى ، نحوك ، القريض ،سفيرا

ونحن نرى فى هذه القصيدة شيئاً من الثقافة العلمية . فهو يذكر ،من مصطلحات الـكيمياء ، الفلز ، والأكسير ، ومن تجاربها التصعيد ، والتقطير ، ويذكر اسم جابر بن حيان ، الـكيميائى الـكبير ، ليستخدمه فى المقابلة بالمـكسور .

وللسيد الشريف العلوى شعر التزم فيه التشبيه ، والقلب والتبديل ،والـكناية، والترادف ، والأدخال والألغاز . إلى آخر هذه المحسنات التى كانت تعجب الذوق ، وتروق لـكثيرين من شعراء ذلك العصر ومتأدبيه . ولـكن له ، إلى جنب ذلك شعرا مرحا ، لطيفا ، يكاد أن يكون باللغة العامية المصرية . أو هو منها قريب . فمن ذلك هذه القصيدة التى بعث بها إلى صديق له ، يدعوه إلى مجلس غناء وشراب :

يا ابن ودّى ؛ وصديقى حال ما تقرا البطاقة
إلبس العمة ، واحضر لا تكن عندك عاقة
واركب الأدهم ، واركض واعطه منك الطلاقة
واكتم الأمر ، وبادر غفلة ، دون الرفاقة
كل الوفق الثـلاثى ولنا ، نحوك ، شاقة
فلدينـا كأس راح واصطباح ، واغتبـاقة
ومليح أخجل الأغصا ن ، لينا ، ورشاقة
ومليح يشتهى « للبو س »[1] ، إن شئت اعتناقه

---

(١) « البوس » التقبيل . فارسى معرب .

وقد ذكر الجبرتى أنها طويلة ، ونقل منها ، بعد هذه الأبيات ، أربعة أخرى ، من الأدب المـكشوف .

وله أيضاً هذه القصيدة . وفيها من المرح ، واللطف ، وخفة الروح ، شيء غير قليل . وفيها من السخرية بأهل النحو والصرف والعلة شيء أيضاً :

قد خلينا أمس ، لـكن ... بقيت عندى خبـلة
فاسقنا ، واشرب إلى أن ... نبق ، فى المجلس ، مثلة
ما يلذ السكر حتى ... يمضغ السكران نعله . . !
ويرى البغلة ديـــكا ... ويظن الفيل نملة
أسمع القسيس قد د ... قّ ؛ لشرب الراح ، طبلة
غفلة الواشى اغتنمهـــا ... لا تـكن عندك غفلة
إن تأخرت ، قليلا ، ... كتبتْ سبعون زلة ... !
خل عنى : قام زيد ... قعدت هنـد وعبـــلة
ضربت ، تضرب ، ضربا ... كل ذاك الصرف ، علة
حرت ، فى يعقوب ، والرم ... لى ، متى أعرف رمله ..؟

وله هذان البيتان ، فى تفضيل نعمة العقل :

فضلك رزق زائد ، فوق ما ... ترزقه ، مع سائر الخلق
لأنه لا بد من بلغـــةٍ ... ثم الحجا رزق على رزق

ومن شعره ، فى الأصدقاء والناس :

ومن تك قد جربتَه ، فحمدته ... فعضّ عليه ، بالنواجذ أجمعا
ولا تتحول عن أخ قد عرفته ... لآخر ، ما جربته ، تندما معا
وما الناس إلا كالدواء ، فبعضه ... شفٍ وكفٍ ، والبعض آذى، وأوجعا

وقد رأينا أنه كان كاتبا لحا كم ينبع ، وله فى هذه المدينة قصيدة لطيفة . وصف فيها ما رأى فى المدينة من أنواع البعوض ، والبق ، والفيران ، والبرغوث ، والقمل وذكر ما لقيه من هذه الحشرات ، من الأذى . وما كان يشرب ، فى ينبع ، من « ماء الزلاع » الذى هو معجون العلل ، والوباء ، والسقم . وما كان يجده فى طعامه من نمل وذباب . حتى أعضاء الفأر . كان يجد منها ، فى الطعام ، أذنه وكراعه .

ويذكر أيضاً ما كان يجد من كريه الرائحة ، حتى ودّ لو جدع أنفه . وهذه هي القصيدة ، وقد عارض فيها قصيدة قديمة معروفة ، لفتح الله النحاس :

رأى البق ، فى كل الجهات ، فراعه ... فلا تنكروا إعراضه ، وامتناعه

ولا تسألونى كيف بتّ ، فإننى ... لقيت عـــذاباً ، لا أطيق دفاعه

نزلنا بمرسى ينبع البحر ، مرة ... على غير رأى ، ما علمنا طباعه

نقارع ، من جند البعوض ، كتائبا ... وفرسان ناموس ، عدمنا قراعه

فلو عاينت عيناك ميدان ركضه ... رأيت جرىء القلب ، فيه ، شجاعه

وجنداً ، من الفيران ، فى البيت كامناً ... متى وجدوا خرقاً ، أحبوا اتساعه

ومن حط شيئاً فى جراب وبطة ... فما رام ، عند الفأر ، إلا ضياعه

وسُربة[1] قمل تنبرى ، إثر سربة ... خفافاً ، إلى مص الدماء ، سراعه

ينازعها البرغوث لحمى ، فليته ... رضى بتلافى ، واكتفينا نزاعه

فلو يجد الملسوع ، من عظم ما به ... من الصرخ درعا ، لاستخار ادراعه

فرب قميص كان شراً من العرى ... إذا ضمه الملتاع ، زاد التياعه

كأنى وصىٌّ للبراغيث ، قائم ... أقيت له أيتامه ، وجياعه

إذا شبع الملعـــون ، مجّ دماً على ... ثيابى ، فلا أحيا الإله شباعه

فما رشنا بالدمّ ، إلا لسانه ... ولم تر عينى مكره وخـــداعه

سلوا عن دمى سارى البعوض فإننى ... علمت ، يقيناً ، أنه قد أضاعه

فلله جلد صار ، بالحك ، أجربا ... أخاف عليه ، يا فلان انقشاعه

ونتن «كنيف» كلما هان عرفه ... أحاط به واشى الهوى ، فأذاعه

بخار كنيف ربما جلب العمى ... وسبب ، للآتى إليه ، انصراعه

فلو كان يجدى المرء تجديع أنفه ... لود ، الذى يأتى الكنيف ، اجتداعه

ولو كان قطع الأكل والشرب نافعاً ... لآثر ، بين العالمين ، انقطاعه

وكم قد أكلنا نملة ، وذبابة ... وفأراً ، بلعنـــا أذنه ، وكراعه

---

(١) جماعة : وفى القاموس : من معانى السربة ، أنها جمـاعة الخيل ، مابين العشرين إلى الثلاثين .

وماء زلاع ، صار معجون علة ... شربناه كرهاً ، وادخرنا زلاعه
وباء ، وسقم ، لا محالة ، كله ... ونرجو ، من الله العظيم ، ارتفاعه

. . .

إذا رنّم الناموس ، حولى ، أعلّنى ... وصدع قلبى ، بالسجوع ، وراعه
وإن مص من دمّى وطار ، تبعته ... إلى فائت منه ، أرجّى ارتجاعه
عدمت غناء ، مثل أنغام سجعه ... فما كان أشنى سجعه وابتداعه
وقد نفدت فى دفعه كل حيلة ... ولو كنت بالحسنى ، طلبت اندفاعه
فيا لأصيحابى ، اقتلونى ومالكا ... فقد مد نحوى ، مفسد البق ، باعه
وأصبحت ، فى دار المشقة والعنا ، ... أخالط أوغاد الورى ورعاعه

ثم يقول ، من هذه القصيدة ، فى وصف بعض هؤلاء الذين كان يخالطهم من الأعراب ، هذه الأبيات : —

وكلباً ، من الأعراب ، يعوى كأنه ... يريد ، إذا لاقى الأمين ، ابتلاعه
فلو صاح ، فوق الصخر ، خرّ لوقته ... وأبصرت، من ذاك الصياح، انصداعه
براه إله الخلق ، للناس ، نقمةً ... وقدّ ، من الصخر الأصم ، طباعه
فلا رحم الرحمن أرضاً يحلها ... وباعد عنا ، بالسنين ، انتجاعه
ومن كل جبار عنيد ، يرى الورى ... عبيداً لديه ، والبقاع بقاعه
شقىّ ، عصى الرحمنَ فى كل أمره ... ومال إلى شيطانه ، وأطاعه

ثم يقول فى ختام قصيدته هذه : —

سلَونا عن الدنيا ، فكل نعيمها ... متاع غرور ، لا يديم متاعه
وما اعتضت من كونى أديباً ، وفاضلا ... لدى الناس ، إلا قوله ، وسماعه
ومن كان يرجو ، فى الأمانة ، مغنماً ... فخلوا له أوضاعه ، وخراعه . . !
وقولوا له : — هذاك ينبع حاضر ... لمن رام يبلو خيره ، وانتفاعه
فكم كاتب أفنى البراع كتابة ... وملّ ، وألقى ، فى التراب ، يراعه
وكم بدوى داسه ، فوق بطنه ، ... ومزق ، ما بين الأنام ، رقاعه

فمن جاءكم منا ، مع الليـــل ، شاردا   فـــذاك لهول واقع ٍ فيه ، راعه
ومن يمتنع عن خدمة ، مثل هذه ،   فـــلا تنكروا إعراضه وامتناعه
فما يكسب الـــكيال ، إلا غباره   ولا الـكاتب المسكين ، إلا صداعه ..!

وفى مقامة من مقاماته ، يتخيل أنه صار تاجراً عظيما ، جزل ربحه ، وكثر ماله . فأراد أن يبذل ، من فضل هذا المال ، لأهله ، وأصحابه ، وجيرانه . فطفق يدور بين بيوتهم ، ينشد هذا الشعر اللطيف : —

ألا بشرى لجـــيرانى   مع الأصحاب والأهل
فقد جاد لنا المـــولى   محلُّ الجود ، والفضل
ولا بد لأصحـــابى   من الإنعام ، والبذل
لهم منى ، مـدى الأيا   م ، فضل الزاد ، والأكل
وكل يكتسى مـــنى   على الهيئة والشـكل
من الفرو ، إلى الجو   خة ، للعمة ، والنعل
وأيضاً خلعة ، أعطى   من الرأس إلى الرجل
فسجِّل ، يا غلام الخ   ير ، خيراتى، على الـكل
وناد الأهل ، والجيرا   ن ، وابعث نحوهم رسلى
وخاطبهم ، إذا اجتمعوا   بدق الزمر ، والطبل
وقل : هذى مضايفنا   وهذى ، قِدرنا ، تغلى
من اللحم إلى الرز   إلى السمن ، إلى البقل
وأنواع مــن المشو   ى ، والمغلى ، والمقلى
وأجناس ، من الزربا   ج ، بالمشمش ، والخل
ولا تخرج بأضيافى   إلى الشمس ، من الظل
وأما النقد ، فالحا   ضر ، عامود ، وفندقلى
ومن يطلب ، زبجرنا   ه ، إن شاء ، بزنجرلى
فدعنى ألبس التاج ،   بهـذا المجلس الحفل
وإن كنت تنحنحْت   أنا ، ياعبد ، تمّمْ لى

ترانى مقصـــد الحـاجا ت ، لا بعدى ، ولا قبلى
ترانى أقتل الأقـــرا ن يوم الحرب . من مثلى ؟
فإن كنت تريد الحــــر ب ، هذى الخيل ، ياخلى
فقل ما شئت فى قـــولى وقـل ما شئت فى فعلى
وإن كنت توضــــأت على قصد الثنا ، صلى
وصف جودى، وصف عودى وصف سيفى ، وصف نصلى
فهـــذا الحبس ملآن من الأعـداء ، كالنمل
وهـــذا الخير مطروح على الطرقات والسبْل
بصيتى ، سارت الركبا ن ، من وعر إلى سهل
هنيئى اليوم بالأمــــوا ل ، قد أصبحت درهم لى ..!

ثم تخيل ، بعد هذا الثراء والعطاء ، أنه قد ولى أمر البلاد والممالك ، من خراسان إلى عمان ، ومن السودان إلى عبادان ، ومن جزيرة العرب إلى غوطة دمشق ، وحلب . فقام يهب ، لا المال والطعام ، ولا الفرو ، والجوخة والنعل . بل يهب الملك والحكم والسلطنة . ويقسم البلاد بين خلانه :

ثم رتّبت دفتراً للعطـــايا وقسَمت البلاد ، بين الأخلا
قلت ، ذاك الصديق أعطيه صنما فى بنى حمير ، الكرام ، الأجلا
وعلى فارس صديق ، وأرض الرو م ثانٍ ، والهنـــد أو ليه خلا
حاصـــل الأمر أن كل محب لى ، على قدر حظه ، يتولى
وأنا ، فى السحاب ، بيتى ، وتختى كل يوم ، إلى السما ، يتعــــلى

ثم ينزل ، ملك الملوك ، من بيته فى السحاب ، يسعى إلى شىء من مال ينجز به عمله فيقول : —

واقترضنا ، فى الحال ، الفين دينا را نقضى بها ، هنالك ، شغلا
واشترينا خمسين عبدا خصيًّـا منهم نصف ذاك ، إلا أقلا
واســـتعرنا لهم ثلاثين قاوو قاً ، على رأسهم ، وللرجل نعلا

ثم ناديتهم وقلت ، هلمــــوا … فادخلوا هذه الطوالة ، قبلا
كل شخص منــكم حمارا ، ينقى … ثم شيخ العبيـــد يركب بغلا
وخذوا ذا السلاح ، سيفا ورمحا … ودروعاً تسمو ، وقوسا ، ونبلا
واعرضــــوا نفسكم علىَّ فإنى … أشتهى العبد فى السلاح المحلى
واقعدوا ، عنــد بابنا ، ثم قولوا … يوم تأتى الحمول ، أهلا وسهلا
ثم أنى فــكرت ، إن أصبح الخيـ … ـر علينا ، ماذا نقدم فعلا . . ؟
قلت : حط القماش والبن فى المجـ … ـلس ، واجعل باقى التفاريق سفلا

ثم طفق يختار للتفاريق ، أى الهدايا ، أماكنها ، ويضع أحمال المسك فى خزائنها . حتى هجس فى نفسه هاجس الشك . هل تصل هذه الحمول فى غبش الليل ، أم فى طلوع الشمس ، أم لا تصل ..؟

يا ترى يغبشون أم تطلع الشمـ … ـس عليهم ، أم لا يجيئون أصلا ؟..

وتنتهى به هذه الحيرة إلى أن يطلب إلى ثقاته أن يضربوا له « مندلا » فى رمل العراق . عساه أن يهتدى من حيرته المقلقة : —

إضربوا مندلا ، لنا يا ثقاتى … ربما يحصــل المنى ، ولعــلا
دخنوا دخنة التهاطيل ، قولوا … ياطهاطيل ،طهطهيلات ، طهلا
ألـوحا ، ألوحا، طظاطيل، طيطا … طوطبا ، طوطبا ، طلاطل ، طلا
هات لى يا غلام ، زايرجة الرمـ … ـل ، عسانى ، منه ، أخرّج شكلا
إن ترى ، فى الطريق ، عيرالمطايا … تتهــادى ، فحبذا الرمل رملا

ثم ينتهى الأمر إلى أن هذه الأموال ، التى يهب منها لمن شاء، ما يشاء ، وهذه الممالك الواسعه التى يولى عليها من يشاء . لم تكن سوى حلم حالم ، ووهم واهم . فينهى أحلامه الرضية ، بهذه القصيدة :

قل للخليل الذى أنهى لحضرته … خلاصة الود ، من سرى ومن علنى
ومن مدى الدهر أدعو فى سلامته … من الردى،وهى من قصدى ومن شجنى
يا ذا الذى وعدَ المعروف ، ثم مضى … لذاك عمر الأمانى ، والزمان ، فنى

ومن على مذهب الحسبان ملكنا — كنوز قارون ، من مصر إلى عدن
إن كان عندك ، محض الوعد تحسبه — أصلا من الجود ، أو فرعا من المن
فمد بحنطة بولاق ، وقل : — معها — مع ساحل البن ، غابات من التّتن
وافرض بأنك قد قلدتنى عملا — بالهند ، أجبى صنوف الخز والقطن
وولّنى ساحل البحرين أجلبه — بسوق سمدك « بازارا » بلا ثمن
وجدْ بإيوان كسرى، والخورنق، والقصـ — ـر المشيد ، وملك الشام واليمن
واعقد لى التاج رغما منك ، واجعلنى — على طوائف ذى القرنين ، وفى المدن
وقل : وهبتك ما فى الأرض من نَعَم — باللحم ، والجلد ، والأصواف ، واللبن
ولا تكن خشية الإنفاق ، مقتصدا — ما دام كنزك من وعد ، فأنت غنى

ثم يقول ، فى هذه القصيدة ، مخاطبا صديقه الذى أسرف فى وعده بالبذل ، حتى أخذ يدعو جيرانه ، وإخوانه ليشاركوه فى هذا الخير العميم ، الجزيل ، الذى سيأتيه . كما رأينا فى شعر هذه المقامة : —

لله وعدك، مذ عامين ، أنشدنى : — — أنا المبدى ، فاسمع بى ولا ترنى
خذ من علومى ، ولا تركن إلى عملى — ولا يغرنك ، منى ، خضرة الدمن
فقلت أجـــرىَ ، عند الله ، أطلبه — حولين، ياوعد، تسقينى وتطعمنى...؟
من العجائب ، أبديت الشجاعة فى — وعدى، وعدت أكلت الخبز بالجبَن
مبالغات من الأقـــوال تسمعها — لوكنّ فى البحر ريحا طرن بالسفن
ياذا الذى جاد، فى الأحلام ، لى كرما — :يهنيك إنى قد استغنيت، من أذنى..!
فلا تكن تقطع التشريف عنىَ فى — كتاب ودك لى ، فى لفظك الحسن
حتى أفوز بملك الأرض، منك، ولا — أرضى بأنى ، فى غمدان ، ذى يزن
وخذ ثوابك ، وعدا، مثل وعدك لى — هذا بذاك . ولا عتب على الزمن

وأعتقد أن هذا الشعر ، بما فيه من فكاهة ، وتهكم ، وتخيل ، وسهولة لفظ . وبعد التجاوز عن بعض الهنات التى شابته . يمكن أن يعد من الشعر الحسن .

وقد رأينا فى هذا الشعر ، أسماء بعض الأزياء، والثياب، التى كان لبسها معروفا

في هذا العصر ، كالقاووق ، والفرو ، والجوخ . وبعض ما كان يطعمه الناس في مآكلهم . وأسماء أنواع من العملة المتداولة إذ ذاك . مثل الزنجرلى ، والفندقلى . وقد نجد تفسيرا لها فى مكان آخر .

كما نجد أيضا كلمة « بازار » الفرنسية ، بمعناها الصحيح ، وهو السوق . ولم تكن الحملة الفرنسية قد دخلت مصر ولا الشام ، طبعا ، حتى تنتقل من جنودها إلى ألسنة الناس . وربما عرفها السيد جعفر ؛ من ميناء ينبع . حيث تسير اللغات وتنتقل . حيثما تسير السفن والمتاجر .

ولهذا الشاعر الحجازى الشريف ، الظريف ، شعر من الأراجيز، ضمنه بعض النصائح الطبية . وكيف تصنع بعض الأقراص ، والعقاقير ، والمساحيق .

وله قصيدة لطيفة ، مرحة ، يشكو فيها بعض إخوانه ، لأنهم تواعدوا على مجلس أنيس بهيج، وتركوه فهو يصف كيف كان يسألهم ، واحدا ، بعد واحد ، عن وجهتهم ، حين لقيهم يوم هـذا المجلس ، وكيف كـذبوا عليه ، وانتحلوا المعاذر ، واختلقوا أسباب الافتراق . حتى لا يصحب واحدا منهم . وكيف سار كل منهم فى طريق وسلك ، إلى هذا المجلس الأنيس البهيج درباً ضيقا ، أو زقاقاً ، وهو يخفى نفسه ، حتى لا يعرفه . ثم يقول لإخوانه هؤلاء : ماذا تظنون بى . ؟ أترونى عفيفاً ؟ ثم ينتهى إلى أنهم قوم لا وفاء لهم ، ولا حياء عندهم .

وهذه هى القصيدة :

قل لأشياعى « الذى » صحبونى	ثم راحوا ، من بعـد معتزليَّة
ولأنصارى « الذى » خذلونى	واستعاضوا ، سواى ، أنصارية
لا تظنوا فى عفتى . هى ما هى	أنا قلدت مذهب الباحية
أى ذنب جنيت ؟ .. حتى استرقتم	نفسكم ، للمقيل ، وقت العشية
واحدٌ راح من زقاق القشاشى	يتمشى ، فى هيئة مخفية
ورجال ، من البرابيخ جاؤوا ،	ورجال من تحت جدر التكية
واحـد حامل كتابا ، يورّى	أنه سـائر إلى الكتبية

وأخ قال : قـد شربت دواء وأريد الإسهال ، فى العنبرية
وصديق سألته : أين تبغى . ؟ فلوى رأسه ، وقال : قضـية
قد نذرت الصيام شهرا ، ولاء وشرطت الإفطار بالعدســـية
لاتخبّثْ نفسى بذكر الـكوازى واللوازى ، والوزّة المحشـــية
أنا لا أشتهى الـكباب ، ولاالرز ولا زرباجـــة ، ولا اللبنية
قد زهدنا فى كل ما تشتهيه النفس ، حـــتى الدجاجة المقلية
عفت كل الطعام . قلت : فما الموجب . . ؟ قال : اللحوق بالصوفية
وأتى آخر ، فقلت ســـلام فسعى مسرعـــاً ، ورد التحية
ووراه شخص يجر خـــروفاً حاملا ، تحـــت كمه ، مطبقية
قلت : ما الحال . . ؟ قال قد شرد العبد ، بشالى ، والفرو ، والفرجية
قلت : قـــد مرّ عبدكم بطعام وشراب ، من قبلـكم ، من هنـيّة
قال : عبدى ياقوت . . ؟ قلت نعم ، قال : لقد بمته ، نهار الضحية
إسم هـــذا الماس ، قبحه الله .... أمّه الزنجية
ثم ولى عجـلان ، قلت انتظرنى أطلب العبد معْك ، للـتربية
أنا أولى بالجرى منك ، لأنى ما طعمت الغدا ، وبطنى خليـة
قال : أقعـد بالله ربك ، أقعـد بالنبى ، باليهود ، بالعيسوية . . . . !
ما يفوت العُبيـد ، وهو قريب حول نخـل الإمام والـكركية
ثم أنى سألت عن واقع الحال ، وتلك القضـية المخفيـة
فإذا أنتمُ كما قد ذكرنا لا وفا ، لا حيا ، ولا عصبية ... !

وهذه القصيدة ، كما ترى ، هى قصة من الشعر طريفة عذبة ، فيها خصائص القصة من وقائع ، وحوار ، وحسن حيلة .

وقد ترجم الجبرتى لسيد آخر شريف . قدم مصر ، ونال فيها مكاناً ممتازاً . ولـكنه لم يكن ، كالسيد جعفر الحجازى ، شاعراً ظريفاً . بل كان ، مع قوله الشعر، صوفياً . وهو السيد عبد الرحمن العيدروسى الحسينى التريمى .

نشأ عبد الرحمن فى تريم ، باليمن ، وطوّف بالبلاد ، وأقام فى الهند عشر سنين

وقدم مصر ثم تركها مراراً . وزار جزيرة قبرص ، وإسلامبول ، والشام . ثم استقر في مصر وطاف في بلادها كلها . وحج سبع عشرة مرة . وكان أمراء مصر — على ما بينهم من فرقة واختلاف — يخضعون له . ولا يردون له شفاعة .

وشعر السيد العيدروسي لا يخرج عن مستوى الشعراء الذين روينا بعضاً من شعرهم ، في هذا الفصل . وقد جمعه في ديوان سماه «ترويح البال وتهييج البلبال»[1] وذكر الجبرتي له مؤلفات أخرى كثيرة معظمها في التصوف .

ولد في سنة ١١٣٥ واستقر في مصر سنة ١١٨٥ ومات بها في المحرم سنة ١١٩٢ .

اسماعيل الظهوري

ومن شعراء هذا العصر ، شاعر اشتغل بالموشحات الأندلسية ، فجاء منها بشيء ما . وهو الشاعر الناثر ، إسماعيل أفندي ابن خليل الظهوري . كان رجلا قانعا يتكسب بالكتابة ، جيد الخط ، حسن الذوق فيه . وكان له متجر يبيع فيه البن بوكالة البقل ، بالقرب من خان الخليلي . وهو إلى ذلك له معرفة جيدة بعلم الألحان ، والموسيقى ، وضرب العود . ومات سنة ١٢١١ .

ومن شعر الظهوري ، موشحة نظمها على وزن موشحة ابن الخطيب الأندلسي أولها :—

ليت شعري ، يا أخلاء الهوى	هل أرى بدري ، بحاني ، مؤنسي . ؟
أم أقاسي عن زمان قد قسا	ورمى أحشاي ، سهما ، عن قسي ؟
يا سقى الله زمانا قد مضى	في مغاني مصر ، في عيش خصيب
حيث بدري قد قضى لي ما قضى	بالتداني ، إذ غفت عين الرقيب

ومنها : —

يا رياضا حسنها زاه يشيق	جاد ، في مثواك ، منهل السحاب
كم مضى لي ، فيك ، من معنى أنيق	حين كان اللهو مزهي الجناب
هل ترى عيني محياك الرشيق . . ؟	لابساً برد التهاني ، والشباب

(١) طبع هذا الديوان في المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٨٣ هـ .

وأرى بدرى ينــاجينى على ذلك البسْط الشهى السندسى
وأحلىّ صبر دهرى بالمنى من معان زاهيات الملبس

وقد ترك الظهورى القاهرة فترة ، إلى بلدة أطواب ، فى الصعيد . ولعله ألف موشحته تلك فى هذه القرية . فحنينه فيها إلى مصر ، ليس خيال شاعر .

ولعل أجود ما أورده الجبرتى من شعر الظهورى ، هذا الذى قاله فى الحنين إلى مصر ، وخاصة هذه القصيدة ، التى مطلعها : —

سلام على مصرٍ ، سلام شجٍ حنا تبلغها أيدى النسيم ، لها ، عنا

والتى يقول فيها ، بعد أن ذكر نيل مصر ، وظلالها ، وخلجانها ، والمقياس :—

ميادين لذّات ، وأقصى مــآرب ، وغايات آمالٍ ، لمن هام ، أو أ ّنا
فـكم نلت فيها من سرور ، وبغية إذ العيش طلق ، والهوى ضاحك سنا
وليلاتنا فيها ، وطيب حـــديثنا وجيب الدجى ينشق، عن بدرها، دجنا
تنكرتِ ، ياأيّام ، من ذا الذى وشى إليك بسوء . . ؟ ما الذى قد جرى منا
لئن كان ذنبى ، عندك ، الفهم والحجا فجهلى أحرى . فارجعى، لست أستغنى
إرادة حظى أتعبتنى ، ومن يكن يحاول حظا ، حال من دونه الأدنى
قلتْنى مصر ، وهى أهلى ، وشيعتى ودارى، وشوقى ، والمــآلف ، والمغنى
وأنزلنى طول النوى ، دار غربة بغربىّ مصر ، أشتــكى الهم والحزنا
أقمت بأطــواب ثلاثين ليـلة أقاسى بهاالأوصاب ، واخترتها سجنا
أردد عينى ، فى خلال ديارها فأنظر أهليها ، وقد ملؤا جبنا . . !

وللظهورى هذه القطعة من الشعر ، وسواء أكان ما فيها حقا، أم هو من غى الشعر وشيطانه ، فإنها تدلنا على أن الشعراء ، وأهل الفن ، كان لهم ، من حرية القول حظ غير قليل : —

هل العيش إلا فى اكـتساب مآثم . . ؟ أو العمر ، إلا فى اقتناء محارم . . ؟
أو النعم ، إلا فى ارتكاب كبيرة . . . ؟ أو السكر، إلافى ارتشاف مباسم . ؟
سقى الله أيام البطالة أدمعاً من العين ، تجرى كالغيوث السواجم

زمان به كان السرور بخنصرى ختاما ، وكان الظبى فيه منادمى
إذ العيش طلق ، والرياض بواسم عن النّوْر ، لـكن من شفاه الـكمائم
وسيّرى إلى تلك الدساكر ، سحرة وغـنّمى بها ، من طيبات مواسم
وجرى ذيول التيـه ، فى عرصاتها جهارا ، وضمى للقـدود النـواعم

. . . .

لقـد طالما نازعت فيهـا زجاجة تضمنت الأفراح ، من عهد آدم
معتّقـة ، صاغ المزاج لرأسها أكاليـل ، من در ، كدور دراهم
إذا ما جلاها مخطف الخصر ، فى الدجا وغنى عليها ، مثل شدو الحمائم
:—أبحت طريقى ، فى هواه ، وتالدى وصيرته مولى علىَّ ، وحاكمى

وله هذان البيتان : —

خبرانى عن قهقهات القنانى أنا ، منها ، فى غاية الأبهام
أرى ضحكها ، لبسط الندامى . ؟ أم بكاء على فراق المدام . ؟

وللظهورى بعض من الشعر يدل على أنه كان على شىء من الثقافة العلمية ، استخدم فيه علم الفلك ، على وجه لا بأس به .

عامر الأنبوطى

وهناك شاعر ماجن ظريف، اسمه الشيخ عامر الأنبوطى . كان هجاءاً ، كما يقول الجبرتى « لهيب شراره محرق.» وكان يجىء من بلده إلى القاهرة فيزورالعلماء والأعيان . ويتلقى ما يتداولونه من شعر فيصنع ، على وزنه وقافيته ، شعراً آخر هازلا ، يتناول فيه الطعام ، وأصناف المأكولات . وكان الشعراء يكرهون ذلك منه ، ويتحامونه ، حتى لا يحيل شعرهم إلى سخرية . وكان الشيـخ عبـد الله الشبراوى يكسوه ، ويكرمه ، ثم يقول له : بالله يا شيخ عامر لا « تزفرّ » قصيدتى ، وهذه جائزتك ، ثم يعطيه . وكان الشيخ الحفنى يكرمه أيضا، ويغدق عليه . ويستطيب الاستماع له . وكان الشاعر الأنبوطى شيخا كبيرا ، صالحا ، يكحل عينيه ، ويعنى بهيئته ، وهندامه .

صنع الشيخ الأنبوطى ألفية فى الطعام ، على وزن ألفية ابن مالك فى النحو ، أولها :

يقول عامر ، هو الأنبوطى   أحمد ربى ، لست بالقنوط
وأستعين الله ، فى ألفية   مقاصد الأكل بها محوية
فيها صنوف الأكل ، والمطاعم   لذت لكل جائع ، وهائم

وفيها يقول : —

طعامنا الضانى لذيذ للنهم   لحماً ، وسمناً ، ثم خبزاً ، فالتقم
فإنها نفيسة ، والأكل عم   مطاعماً ، إلى سناها القلب أم
والأصل فى الأخباز أن تقمرا   وجوزوا التقديد ، إذ لا ضرراً

وألف ، فى الطعام أيضاً ، قصيدة على وزن لامية ابن الوردى ، وهى :

اجتنب مطعوم عدس ، وبصل   فى عشاء ، فهو للعقل خبل
وعن البيصار ، لا تعن به   تمس فى صحة جسم من علل
واحتفل بالضأن ، إن كنت فتى   زكى العقل ، ودع عنك الكسل
من كباب وضلوع قد زكت   أكلها ينفى عن القلب الوجل

وأخرى على وزن لامية العجم لصلاح الدين الصفدى :

أناجر الضأن ، ترياق من العلل   وأصحن الرز ، فيها منتهى أملى
أكلى غداء ، وأكلى فى العشاء ، على   حد سوى ، إذا اللحم السمين قلى
فيم الإقامة بالأرياف ، لا شبعى   فيها ، ولا نزهتى فيها ، ولا جذلى
ناء عن الأهل ، خالى الجوف ، منقبض   كمعدم مات من جوع ، ومن قشل
فلا خليل ، بدفع الجوع يرحمنى   ولا كريم ، بلحم الضأن يسمح لى
طال التلهف للمطعوم ، واشتملت   حشاشتى بحمام البيت ، حين قلى
أريد أكلا نفيساً ، أستعين به   على العبادات ، والمطلوب من عملى
والدهر يفجع قلبى من مطاعمه   بالعدس والكشك والبيصار والبصل
ناديت ، هيا ولا تبطىء بغرفك لى   فإنه خلق الإنسان من عجل

وللأنبوطى ، فى الأطعمة والمآكل أزجال شعبية ، ألفها باللغة العامية منها :

أكلك من الضان رطلين   يزيد قلبك نفاسة
وابعد عن الكشك يازين   دا الأكل منه تعاسة

ومنها :

أكل المطبّق ، مع الفجر	بالشهد ، والسمن سايح
اللى يجيبه له أجر	فى جنة الخلد رايح

ومنها :

	يا طابخ الضانى اشتد	واغرف أوانى وسيعة
	عامر أناك ، وله يد	فى الأكل دايماً سريعة
و :	خشاف،ومشمش،وعناب	الشرب منهم دوايه
	من بعد ما كل كباب	يارب حقق رجايه
و :	والعدس، والكشك ، والفول	الأكل منهم شمـــاته
	يصبّحوا الشاب مخبول	قطعوا الجميع ، التـــلاته

مصطفى اللقيمى الدمياطى

وكان مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى ، شاعرا من الذين احتفل الجبرتى بهم ، وأطنب فى ذكرهم ومدحهم . كان أسعد أفندى هذا ، واحدا من إخوة أربعة ، كلهم شعراء . وقد أورد الجبرتى له مقامة طويلة ، سماها « المدامة الأرجوانية ، فى المقامة الرضوانية » ألفها فى مدح الأمير رضوان الجلفى، وضمنها كثيرا من شعره. ووصف فيها قصور هذا الأمير ، وصفا شائقـاً ، بارعا . ربما نعود إليه عند الكلام عن الحياة الاجتماعية ، وما كان فى بيوت الأمراء من ثروة ومن نعيم .

وشعر السيد مصطفى اللقيمى قريب من ذلك الشعر الذى أوردنا منه قدرا كافيا لشعراء آخرين ، فى هذا الفصل . ويبدو أن هذا الشاعر كان شديد اللصوق بالأمير رضوان ، فإن شعره كله يكاد أن يكون قاصرا على ذكره ومدحه ، وتهنئته . ووصف ما شيد ، على بركة الأزبكية ، من قصور ، وغرس من بساتين.

وللشاعر الدمياطى مزدوجة ، فى مدح هذا الأمير أيضا ، لعلها خير ما أورده الجبرتى من شعره. ولعلها ،أيضا ، أجود قليلا من تلك المزدوجات ، والموشحات، التى أوردها من شعر إسماعيل افندى الظهورى ، ونقلنا بعضها ، منذ قليل ، وقد استهل هذه المزدوجة بقوله : —

يا سعد عرِّج بالحمى ، والرند   وطف بأكناف الربى ، من نجد
فهم منى عينى ، وجل قصدى   وحبهم أثار نار وجدى
واشرح لهم حالى ، وما ألاقى   من لاعج الغرام ، والأشواق
وما جرى من دمعى المهراق   واذكر عليلا بات فى احتراق
يشكو تباريح الجوى والسهد

حليف شوق ، جسمه نحيل   أليف توق ، شفه الغليل
سلوانه ، والصبر ، مستحيل   يقول : هل لى فى اللقا سبيل
لأستريح من عنا ووجد

ومنها : —

لله ما أحلى ظبا ذاك الحمى   وما ألذ الوصل ، من تلك الدمى
هيَّجت شوقى ، والنسيم ، عندما   ذكرت، فاسعف بالحديث ، مغرما
يشوقه تـذكار ذاك العهد

وهات لى حديث لازبكية   وما حوت أدواحها الزكية
حسناً زهت أرجاؤها السنية   إذ لاح فى غرتهـا البهية
قصور رضوان العـلا والمجد

يا حبذا معاهـــد حسان   يغنيك ، عن وصفى لها ، العيان
قد حل فيها الحور ، والولدان   حصباءها الياقوت والمرجان
فانظر تراها ، جنة كالخلد

فكم بها من دوحة أنيقة   وروضة أغصانها وريقة
وربوة ، أنهارها غديقة   ومرجة ، أزهارها عبيقة
من نرجس ، وسوسن ، وورد

ولا شك أن القارىء مدرك ما فى هذا الشعر الذى أوردناه كله من خطأ فى اللغة . ولكن الخطأ فى اللغة لم يكن شيئاً غريباً على شعراء هذا العصر وبلغائه . وقد رأينا كيف أخطأ الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ الأزهر ، ورئيس الديوان . وكتاب الجبرتى

نفسه ، وهو واحد من كبار الكتاب فى ذلك العصر ، فيه من الخطأ ، والخطأ الفاحش ، شيء كثير .

وقد ترجم الجبرتى لرجل ، ليس من الشعراء ، ولا من الأدباء . ولكنه كان ذا لون من المعرفة غريب ، وكان يعلن هذا اللون من المعرفة ويناقش الناس فيه ، حتى اتهموه فى عقيدته ، وفى دينه . ولكنهم ، مع ذلك ، لم ينالوه بسوء ، لأنه كان صاحب سطوة ونفوذ ، وكان قريباً من محمد على ، وصاحب حظوة عنده .

يصف الجبرتى هذا الرجل بأنه « النجيب الأريب ، والنادرة العجيب ، أعجوبة الزمان ، وبهجة الخلان ، حسن أفندى ، المعروف بالدرويش الموصلى ، الذكى الألمعى ، والسميذع اللوذعى . كان إنساناً عجيباً فى نفسه ، مميزاً شهيراً فى مصره »

وقد طوف هذا الدرويش بالبلاد ، وعرف كثيراً من اللغات . كما درس فنوناً كثيرة من الرياضيات ، والفلسفة . واشتغل بذلك حتى «أهمل الواجبات الشرعية ، والفرائض القطعية . وربما قلد كلام الملحدين ، وشكوك المارقين » وكان لا يخشى أن يظهر ذلك على الناس . ولا أن يتحدث به إليهم . حتى طعنوا فيه ، وأخرجوه من زمرة المسلمين .

وكان الدرويش ، لذكائه ، ولباقته ، ومعرفته لكثير من اللغات ، وكثرة معارفه ، مقرباً إلى أصحاب السلطان . فلما أراد محمد على أن ينشىء مدرسة للهندسة والرياضيات ، اختاره معلماً فيها ، ورئيساً لها . وكان يعلم طلابها على آلات فى الهندسة ، والمساحة ، والفلك ، مجلوبة من انجلترا . ونجح فى عمله هذا نجاحاً كبيراً .

ومات هذا الرجل فى يوم الخميس السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٣١ فتحرك الناس ، بعد موته ، للطعن فيه ، وتجريحه ، حتى قالوا : مات رئيس الملحدين ، وانهدم ركن الزندقة . وأبلغوا نائب محمد على أن فى خزانته كتب الملحدين والكتاب الذى ألفه ابن الروندى فى معارضة القرآن . وفتحت خزائن الدرويش الموصلى ، فلم يكن فيها شيء من ذلك .

ولم يذكر لنا الجبرتى منشأ هذا الرجل ، ولا وطنه . ولعله لم يكن يعرف ذلك لأن الدرويش نفسه لم يكن يريد أن يعرف الناس وطنه ، ولا نشأته . فإن الجبرتى يذكر عنه ، أنه كان ينتسب إلى كل قبيل ، فمرة ينتسب إلى فارس ، وتارة إلى بنى مكانس »

ويبدو أنه كانت هناك صلات من المودة ، بين الدرويش الموصلى وبين الجبرتى ، فإن حديثه عنه ليس خالياً من العطف والتقدير ، وقد دفع عنه ، إلى حدما ، وبكثير من اللباقة ، تهمة الزندقة .

ونجد من رجال هذا العصر شاعراً من شعراء العبث والدعابة والهجاء ، اسمه الشيخ محمد شبانة . لم يذكر الجبرتى سنة مولده . وذكر أنه مات فى سنة ١٢٠٠ . ويقول إن شبانة هذا كان من نوادر وقته . اشتغل بالعلم فأجاد . واشتغل بالشعر فأجاد . وداعب أهل عصره من الشعراء وغيرهم فاشتهر بينهم وأذعنوا لفضله . ولـكن سليقته فى الهجاء والدعابة كانت أجود .

وكانت بين الشيخ شبانة وبين الشيخ قاسم الأديب مساجلات شعرية عابثة . منها هذه القصيدة التى أرسلها شبانة له على وزن قصيدة :

سبحان من قسم الحظـو ظ ، فلا عتاب ولا ملامه

منها : —

سبحان من قسم النحو س لقاسم ، وأذلّ هامه
وكساه ثوب جنـاية يخزى بهـا يوم القيـامه
هو ردء من هجتم البيو ت ، وردء من خطف العمامه
يحتـال فى نشل الحرير ، ولو تحصن فى دعامه
ويسل كحل العين ممن خوفه ينفى منامه
لو حل فى حرم الوزير ، مصاحبا ، ورأى غلامه
— : لمضى به لأخى الهوى فى غفلة يقضى مرامه
بالشـال عمم رأسه ولحيّة تأتى أمامه
خوف الجوالى أن ترا ه وفى تستره السلامة

والجوالى هم الذين يأخذون الجزية من النصارى ، يريد أنه يلبس العمامة على رأسه ، ويطلق لحيته أمامه ، يتستر بهما . ولولا ذلك لأخذت منه الجزية . وقد أجابه الشيخ قاسم بقصيدة عابثة أيضاً من الوزن والقافية .

السيد مرتضى الزبيدى

ومن العلماء الذين أرخ لهم الجبرتى . المحدث ، اللغوى ، السيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس ، من شرح جواهر القاموس(١)

وصفه الجبرتى بأنه « علم الأعلام ، والساحر اللاعب بالأفهام ، الذى جاب فى اللغة والحديث كل فج ، وخاض ، من العلم كل لج . المذلل له سبل الكلام . الشاهد له الورق والأقلام . ذو المعرفة والمعروف ، وهو العلم الموصوف . العمدة الفهامة ، والرحالة النسابة ، الفقيه ، المحدث ، اللغوى ، النحوى ، الأصولى ، الناظم ، الناثر ، الشيخ أبو الفيض السيد محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى الحنفى »

هكذا حدث السيد مرتضى ، عن نسبه وعن نفسه . وقال إنه ولد فى سنة ١١٤٥ . ولكنه لم يذكر فى أى البلاد ولد ، ولا فى أيها نشأ وتعلم . فإن الجبرتى يقول إنه نشأ « فى بلاده » وارتحل فى طلب العلم ، وحج مراراً ، واجتمع بطائفة من كبار العلماء ، فى مكة ، والطائف ، واليمن . ثم قدم مصر فى التاسع من صفر سنة ١١٦٧ ، أى فى سن الثانية والعشرين ، فحضر على كبار الشيوخ ، وتلقى عليهم ، فأعجبوا به ، وشهدوا له بالعلم ، وجودة الحفظ . وأعانه على الطلب والاشتغال بالعلوم ، أمير من أمراء ذلك العصر ، هو إسماعيل كتخدا عزبان . حتى أصبح ميسور الحال ، يركب الخيول ، ويلبس فاخر الثياب ، واشتهر أمره بين الناس . ثم سافر إلى الصعيد فأقام فيه زمناً ، مكرماً من كبار أهله . وكذلك تنقل فى بلاد كثيرة من دلتا مصر . وكتب عن رحلاته هذه رسائل . ثم عاد إلى القاهرة فتزوج بها وبنى بزوجه فى عطفة الغسال . وأبقى سكنه الذى كان يقيم فيه ، فى وكالة الصاغة . ثم انتقل ، فى سنة ١١٨٩ ، إلى بيت

(١) طبع تاج العروس بالمطبعة الوهبية بالقاهرة فى سنة ١٢٨٧

بسويقة اللالا ، بالقرب من مسجد الحنفى ، وكانت هذه المنطقة مساكن الأعيان وكبار الناس ، فى ذلك الوقت ، فأحبوه ، وقربوه . بل توددوا إليه . وزادوا فى إكرامه . وهو يظهر لهم التعفف والغنى ، ويعظهم ويفيدهم . ويكتب لهم التمائم والرقى ، ويجيزهم بقراءة الأوراد والأحزاب ، فأقبل عليه الناس إقبالا شديداً وتعلقت قلوبهم به .

ثم شرع ، بعد ذلك ، فى إملاء الحديث على طريقة السلف . يذكر الأسانيد والرواة ، والمخرجين ، من حفظه ، على طرق مختلفة ، ويكتب هذه الأسانيد ويجيز سامعيه بها وقصده علماء الأزهر يستمعون إليه ، فى جامع شيخون ، بالصليبة ، فشرع يقرأ لهم صحيح البخارى . وشاركهم فى الاستماع إليه ، كثير من الناس . فلما تناقل الناس أن كبار العلماء يسمعون إليه ، زاد قدره عندهم . ولكن العلماء انقطعوا عن سماعه فاستغنى عنهم بغيرهم ، وافتتح درساً آخر ، فى مسجد الحنفى فارتفع قدره بين الناس ، وتكاثر عليه الراغبون فى درسه ، والمعجبون بعلمه ، وطريقته فى التدريس ، التى لم تكن مألوفة عند علماء مصر ، كما كان زيه على غير زيهم ، ودعاه الأمراء والأعيان إلى بيوتهم ، يقيمون له الولائم الفاخرة . ثم يجلس فى بيوتهم ، مفتتحاً درسه ، يجلس إليه الخاصة من تلاميذه ، وصاحب البيت ، وأسرته ، وأصدقاءه ، وأولاده ، وبناته ، ونسائه من خلف الستور ، وبين أيديهم مجامر البخور ، بالعنبر والعود ، يملأ عبيره الزكى مجلس الشيخ ، ما دام يلقى درسه . حتى إذا فرغ منه ، كتب الكاتب أسماء الحاضرين ، حتى النساء ، والبنات والصبيان وكتب اليوم والساعة التى كان فيها المجلس . ثم أمضى عليها الشيخ بتوقيعه ، وهذه كانت طريقة الأقدمين من العلماء .

وقد حضر الجبرتى كثيراً من هذه المجالس ، واستمع إلى كثير من هذه الدروس ، ودعا السيد المرتضى إلى إلقاء بعضها فى بيته بالصنادقية وبولاق ، وغيرها ، كما سعى كبار الأمراء ، مثل مصطفى بك الأسكندرانى ، وأيوب بك الدفتردار ، إلى بيت المرتضى الزبيدى ، وجلسوا إليه مستمعين ، وكلما زاد إعجابهم به ، زادت صلاتهم له ، وتضاعف برهم به ، حتى امتلأت بيوته بالجوارى ، والخيرات .

ولما تولى محمد باشا عزت أمر مصر ، زاد فى رفعة شأنه ، وخلع عليه الخلع الثمينة ، ورتب له ، من مطابخه ، ما يكفيه من اللحم ، والأرز ، والسمن ، والخبز والحطب ، والغلال . وكتب إلى الدولة ، فى إسلامبول ، بشأنه ، فأمرت له بمرتب يومى ، قدره مائة وخمسون نصف فضة . وهو مرتب جزيل فى ذلك العصر ، وبهذا التكريم من عزت باشا ، ومن رجال الدولة ، بلغ المرتضى الزبيدى أوج مجده فترادفت عليه الرسائل ، من جميع الأقطار ، من الحجاز ، واليمن ، والهند ، والعراق والشام ، والمغرب ، والسودان ، وأرسل إليه ملوكها وأمراءها الهدايا العظيمة ، جاءت له من فزان بالمغرب ، أغنام نادرة ، فأهداها إلى السلطان ، وأهديت إليه الجوارى المليحة ، والعبيد ، وطيور الببغاء ، وطرائف الصناعات ، من الهند ، واليمن ، فكان يرسل مما يرد إليه من هذه الهدايا النادرة ، إلى أمراء البلاد ، وملوكها .

ولما قدم مصر حسن باشا الوالى ، لم يذهب السيد لزيارته ، بل زاره الباشا وخلع عليه خلعة سنيه ، وأهداه فرساً مسرجاً ، قيمته ألف دينار ، وكانت شفاعة الشيخ عنده لا ترد ، إذا جاءته منه ورقة ، قبلها ، قبل أن يقرأها ، ثم وضعها فوق رأسه ، ونفذ ما فيها ، فور قراءتها .

وكانت للسيد الزبيدى عناية كبيرة باقتناء الكتب النوادر ، كان صديقه الشيخ الزاهد أحمد بن سعيد السوسى التونسى يرسل إليه فى كل سنة ، قائمة بما يقع عليه منها ، فيطلب إليه الزبيدى أن يشتريه له .

وبلغ من سمو المكانة ، التى وصل إليها المرتضى الزبيدى ، عند أهل المغرب خاصة ، أن بعضهم كان يرى أن حجه بيت الله الحرام ، لا يتم إلا إذا زار هذا الشيخ ، ووصله بهدية . فمن حج البيت ، ولم يزر المرتضى الزبيدى ، ويقدم إليه شيئاً ، كان حجه ناقصاً .

ومن فاز من الشيخ بقطعة من الورق ، بقدر أنملة الأصبع ، قبّل الأرض بين يديه . وجعل هذه الورقة تميمة .

وأرسلت الدولة فى طلبه ، ليزور دار الخلافة ، فى سنة ١١٩٤ فأجاب ثم امتنع .

وبعد أن بلغ الزبيدى هذا المبلغ ، من المجد ، والشهرة ، والثروة ، أصيب بنكبة فادحة ، بوفاة زوجه ، التى كان يحبها حباً عظيما . فحزن عليها أعظم الحزن ، وبنى لها ، عند مشهد السيدة رقية ، قبراً أقام عليه مقصورة ، وعلق عليه الستور ، والقناديل . ولازم قبرها هذا أياماً كثيرة . والناس تجتمع إليه فيه ، فيطعمهم ، ويسقيهم القهوة ، والشربات . وكثير من القراء والمنشدين ، يتلون القرآن ، ويرتلون الأناشيد ، عند القبر . ثم بنى ، إلى جوار قبرها ، بيتاً أسكن فيه أمها ، وكان يبيت فيه أحياناً . وقصد إليه كثير من الشعراء برثائهم ، فأجازهم عليه . ورثاها هو بكثير من الشعر الحزين الذى يدل على صدق عاطفته نحوها . وعظيم رزئه فيها ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يتزوج أخرى ، غيرها .

تزوج الشيخ ، بعد زوجه هذه ، فبدأ حاله فى التغير .

ترك الدرس والقراءه . واعتكف عن الناس ، ولزم حريمه . وغلق بابه . ولم يعد يقبل ما كان يرسله إليه الأمراء والأعيان من هدية وصلة . ذهب إليه مصطفى بك الأسكندرانى ، صديقه القديم ، ومن أكبر المحبين به ، ومعه آخرون من الأمراء ، فاحتجب عنهم ، ولم يلقهم . وأهدى إليه أيوب بك الدفتردار ، صديقه القديم ، أيضاً ، خمسين أردباً من القمح ، وأحمالا من الأرز ، والسمن ، والعسل ، والزيت . وخمسمائة ريال . وأقمشة هندية ثمينة ، وجوخاً ، فرد ذلك كله ، ولم يقبله .

وكان السلطان محمد ، سلطان المغرب ، يصله فى مواسم كثيرة . فأرسل إليه ، بعد زواجه من هذه المرأة ، إحدى صلاته ، فى سنة ١٢٠١ فلم يقبلها ولم تعد إلى السلطان فلما علم ذلك أرسل إليه معاتباً ، مؤنباً وقال له . ليتك رددت الصلة التى أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين . أوليتك أعطيتها للفقراء والمحتاجين . فيكون لنا ولك أجر ذلك

وفى شهر شعبان ، من سنة ١٢٠٥ أصيب السيد بالطاعون ، وكان وبائياً فى هذه السنة . أصيب يوم الجمعة ، بعد الصلاة ، واعتقل لسانه ليلا ، ثم مات يوم الأحد . فأخفت هذه الزوجة ، وأهلها ، موته حتى نقلوا من بيته كل شىء ثمين

وكل مال ، ومتاع . حتى الكتب . وأظهروا ، بعد ذلك موته ، يوم الإثنين . ثم دفن فى قبره الذى كان أعده إلى جوار زوجه الأولى . ولم يعلم بموته أهل الأزهر ، لانشغال الناس بأمر الطاعون ولم يترك ولداً ولا بنتاً ، ولم يرثه أحد من الشعراء.

وكان السيد المرتضى نحيف البدن ، ذهبي اللون . أنيق الثياب يلبس عمامة أهل مكة ، لها عذبة تنزل على قفاه .

وبعد موته بزمن قليل ، تزوجت امرأته بمملوك من الأجناد، وأظهرت ما تركه السيد . فكان شيئاً كثيراً جداً . كان منه أكوام من المقصبات ، والأقمشة الهندية ، والفراء ، والساعات الثمينة ويسميها الجبرتى « ساعات العب » .

وقد بيعت أوراقه وكتبه، وبعض أمتعته ، بأكثر من مائة ألف نصف فضة. وقد اشترى الجبرتى قسماً كبيراً من هذه الكتب والأوراق ، ووجد فيها كثيراً من شعره . كما وجد فيها أصول كتابه ، عجائب الآثار ، التى كان أعطاها للسيد .

أما ما خلفه السيد المرتضى ، من الثروة الأدبية والعلمية ، فإن أبرز ما فيه كتابه « تاج العروس » ، وقد أمضى فى تأليفه نيفاً وأربع عشرة سنة ، وأتمه فى أربعة عشر مجلداً ، وأقام ، عند الفراغ منه ، وليمة حافلة ، سنة ١١٨١ ، جمع فيها كبار العلماء وشيوخهم ، وأطلعهم على طريقته فى وضع الكتاب ، فأعجبوا بها . وتبارى الشعراء فى تقريظه ، ومدح صاحبه .

وكان محمد بك أبو الذهب ، قد انتهى ، عند ذلك الوقت ، من بناء مسجده المواجه للجامع الأزهر ، وأنشأ فيه خزانة للكتب . فتحدث إليه بعض العلماء فى شأن تاج العروس فطلبه من السيد الزبيدى وأعطاه ، فى نظيره ، مائة ألف درهم فضة ووضعه فى خزانة الكتب التى أنشأها بالمسجد .

ولعل كتاب المرتضى الزبيدى هذا ، هو خير ما ألف العلماء ، واللغويون فى فى هذا العصر الذى أرخه الجبرتى كله . فهو ، وكتاب الجبرتى نفسه ، هما العمل ، الذى يستحق أن يذكر ، ويشاد به ، من إنتاج هذا العصر اللغوى ، أو الأدبى ، أو العلمى

وللسيد ، غير هذا الـكتاب ، رسائل فى علم الأنساب ، والأسانيد ، وتخريج الأحاديث . وشرح لبعض أجزاء من إحياء علوم الدين ، للغزالى . وكتاب أصول الفقه . سماه «الجواهر المنيفة ، فى أصول أدلة مذهب أبى حنيفة » وهدية الإخوان، فى شجرة الدخان وكتب أخرى فى تفسير بعض السور ، أو الآيات ، وفى شرح بعض الأحاديث ، وفى التصوف ، وفى مصطلح الحـديث ، وبعض المقامات وأرجوزة فى الفقه ، ورسالة فى تاريخ بنى أيوب

وكان المرتضى الزبيدى يعرف اللغتين ، التركية ، والفارسية ، وبعضاً من لغة الـكرج ، وزبيد ، التى ينسب إليها ، من بلاد اليمن .

وقد ذكر الجبرتى شعراً مما قاله الزبيدى فى رثاء زوجه « زبيدة » التى ماتت قبله فحزن عليها حزناً كثيراً ، وشعره فيها ، كما سترى ، فيه من صدق العاطفة ، ومن حرارة هذا الحزن المضطرم الصادق ، شىء كثير .

فمما قاله ، فى رثائها ، هذه القصيدة : —

خليـلىّ ، ما للأنس أضحى مقطعاً ... وما لفؤادى لا يزال مروعا

أمن غِـيَر الدهر المشتّ ، وحادثٍ ... ألمّ برحلى .. ؟ أم تذكرت مصرعا .. ؟

وإلا فراق ، من أليفـة مهجتى ... زبيدة . ؟ ذات الحسن والفضل أجمعا

مضت ، فمضت عنى بهـا كل لذة ... تقرّ بها عيناى . فانقطعا معـا

لقد شربتْ كأساً ، سنشرب كلنا ... كما شربت . لم يجد عن ذاك مدفعا

فمن مبلغن صحبى ، بمكة ، أننى ... بكيت ، فـلم أترك لعينىّ مدمعا

ومن شعره فيها أيضاً : —

خليلىّ ، هل ذكرى الأحبة نافع ..؟ ... فقد خاننى الصبر الجميـل العواقب

وهل لى عود ، فى الحمى ، أم تراجع ... لوصل ، بتلك الآنسات الـكواعب

لقد رحلت عنى الحبيبة ، غــدوة ... وسارت إلى بيت ، بأعلى السباسب

أقول ، وما يدرى أناس غدوا بهـا ... إلى اللحد ، ماذا أدرجوا فى السباسب

:—تأخرت عنها ، فى المسير ، وليتنى ... تقدمت ، لا ألوى على حزن نادب

وفى رثائها ، أيضاً ، يقول :

زبيدة شـــدت للرحيل مطيها	غداة الثلاثا ، فى غلائلها الخضر
وطافت بها الأملاك من كل وجهة	ودقّ لها طبل السماء ، بلا نكر
تميس ، كما ماست عروس بدلها	وتخطر ، فيها ، فى البرانس ، والأزْر
سأبكى عليها ما حييت ، وإن أمت	ستبكى عظامى ، والأضالع ، فى القبر
ولست بها مســتبقياً فيض عبرة	ولا طالباً ، بالصبر ، عاقبة الصبر

وفى قصيدة أخرى من هذا الشعر الحزين يعدد صفات زوجه تلك . فيذكر من ذلك كرم أخلاقها ، وصلتها لرحمها ، وطاعتها لزوجها ، وعنايتها بطعامه ، ولين كلامها ، حين تكلمه . ثم يقول إنها من عنصر كريم ، « عميدة قوم من كرام أطايب » .

وقد ذكر الجبرتى أن السيد الزبيدى قال ، فى رثاء زوجه ، كثيراً من الشعر . وأنه تركه خوف الإطالة . وليته حفظ لنا كل ما جمع من هذا الشعر الصادق ، الرقيق . الذى ينفرد بهذا الصدق ، وهذه الحرارة . إلى جوار ما حفظ من شعر كاذب ، أو غليظ . لا يصور عاطفة ، ولا يصدر عن وجدان . كما رأينا فى كثير من شعر المديح والرثاء ، والمناسبات . التى عنى الجبرتى بتسجيله والذى نقلنا بعضا منه ، فى كتابنا ، وفى هذا الفصل خاصة .

قاسم بن عطاء الله

وكذلك ترجم الجبرتى لقاسم بن عطاء الله المصرى . وقال إنه كان ، مع ارتجاله الشعر ، مشتهراً بالتوشيح والزجل ، حتى عرف أول أمره بالزجال . ولـكنه روى لنا بعضا من شعره ، لا خير فيه ، ولم يحفظ لنا غير شىء يسير من زجله وتواشيحه . وكانت ، كما يقول ، كثيرة جدا ، مشهورة بين أرباب الفن وأهل الغناء ، وليته عنى بتسجيلها وحفظها كلها .

حفظ لنا موشحة من شعره ، يقول إنها كانت مشهورة أيضا بين « أهل المغانى والآلاتية » .

أولها :

فيـك كل ما أرى حسنْ   مذ رأيت شكلك الحسن
جلّ من به عليـك من   أيها الذى الصدودَ سن
من لسيف أدعجيـك سن   مذْ حرمتَ مقلتى الوسن
مدمعى دماً ، نما   عنـــد ما ها
روى باللمـــا ،   ظما من تألمـــا
إن صـبك النحيل إن   جن ، كلما الظلام جن
بالشجا ينوح   والشـــــجن

وهذا الشعر قد نراه الآن غريبا شاذا . ولـكنه كان ، هو وغناءه ، مما يروق لأهل ذلك العصر ويعجبون به إعجابا شديداً . وهذه الموشحة قيلت فى مدح الأمير حسن بك رضوان .

وقبل أن أترك الشعر والنثر إلى غيره من نواحى الحياة الفـكرية والاجتماعية ، لا أجد بداً من تسجيل شعر لم يدونه الجبرتى . ولـكنى سأذكره . لأننا ندرك منه ، ذلك المدى الذى وصل إليه الشعر ، فى ذلك العصر ، من الضعف والانحطاط والغثاثة والبرود .

فهذه أبيات من الشعر ، نقشت على رخام وعلقت على مسجد السيدة زينب : —

نور بنت النبى ، زينب يعـلو   مسجدا ، فيـه قبرها ، والمزار
قد بناه الوزير ، صـــدر المعالى   يوسف ، وهو للعلا مختـار
من مليك الملوك ، سلطان كلّ   فى بنى عثمان ، إليـه يشار
صاحب النصر ، والفتوح ، سليم   نصر الله جيشه حين ساروا
وكذا خسرو ، محمد باشا   من به عز مصر والأقطار
دام إجـلالا ، كما قلت أرخ   مسجد مشرق ، به أسرار[1]

ومن بيت التاريخ الأخير ، نعرف أن هذه العمارة فى مسجد السيدة زينب ، كانت فى سنة ١٢١٦ . وأن الشعر قيل فى هذا التاريخ . ولم ينسب لقائله .

وهذا شعر آخر ، من شعر هذا العصر الذى نؤرخه . ولم يذكر قائله .

(١) الخطط التوفيقية ، لعلى باشا مبارك . ص ٨ ج ٥ .

وقد كتب هذا الشعر على باب المسجد الذى أنشأه الأمير ذو الفقار بك ، ويعرف بجامع الفسطاس ، وهو : —

جامعاً جاء لطيفاً ، وبديع الأنشا ... عالى السمك ، منيماً ، ووسيع الأحشا
فى بيوت أذن الله لها أن ترفع ... والعبادات بها ، كل زمان ، تفشى
دام فيه صلوات ، وأقيمت دعوات ... بنهار متجلّ ، ونهـار يغشى
ذو الفقار فاز بخير ، فقلا تاريخها ... عمر الجامع بالسعد ، بديع الأنشا[1]

وبيت التاريخ يعطى سنة ١٠٩١

ومن الشعر ، الذى لم يعرف قائله ، ويدل على مستوى الحياة الأدبية أيضاً ، هذه الأبيات ، التى سجل فيها منشئها عمارة الأمير عبد الرحمن كتخدا للأزهر.

تبارك الله ، باب الأزهر انفتحا ... وعاد أحسن مما كان ، وانصلحا
تقر عيناً ، إذا شاهدت بهجته ... بأخلاص بانيه للعلماء ، والصلحا
وادخل ، على أدب ، تلقى الهداة به ... قد قرروا حكماً ، ميزانها رجحا
بالباب قد بدأ الأكوان ، أرخه ... بعبد رحمن باب الأزهر انفتحا

ولعل هذ الشعر السخيف الركيك ، كان ينشئه شعراء مغمورون يتـكسبون به . يقصد إليهم الأمراء والأغنياء ليسجلوا لهم نبأ ما أقاموا من عمائر ، أو بنوا من مساجد . لأن شعراء العصر لم يكونوا ، لأمر ما ، ينشئون لهم مايريدون من شعر . فـكان الأمراء وغيرهم يشترون هذا الشعر ، لينقشوه على الرخام ، والحجر . يلبون به داعى غرورهم ، بوضعه على مساجدهم أو عمائرهم . ثم لا يكتبون أسماء هؤلاء الشعراء وقد كان فى القاهرة ، إلى عهد غير بعيد ، شعراء يقرضون الشعر ليبيعوه كل مشتر وراغب .

وفى هذا الفصل من الـكتاب ، وفى بعض فصوله الأخرى أيضاً ، نجد بعضاً من الشعر ، نزيد بتلاوته وفهمه ، إدراكنا لهذه الحياة الأدبية فى العصر الذى نؤرخه .

---

(١) خطط على باشا مبارك . ص ١١٣ ج ٤

الحيـــاة العقلية

شعاع من النور

وهناك ناحية من نواحي الحياة الفكرية ، قد يظن الناس ، كما ظننت أول الأمر ، أنها كانت جامدة كل الجمود . لم تتسم بحياة ، ولا نشاط ، ولا تجديد . والنشاط والحياة والتجديد فيها أشق ، وأعسر ، وأمعن في المجازفة والمخاطرة من التجديد والنشاط في هذه الناحية من الأدب والشعر . هذه الناحية العسيرة الشاقة ، هي حياة العقل والدين ، أو التقاليد الدينية ، على الأصح ، يحسبها الناس من الدين ، وهي ليست منه في شيء .

وقد سجل الجبرتي قصة سأحرص الحرص كله على استيعابها ، وتلخيصها تلخيصا وافيا ، أمينا . لأنها تدل على أن هذه الحياة التي يعسر النشاط فيها ، ويشق التجديد ، لم تمكن بعيدة عن محاولات قام بها بعض المفكرين الأحرار ، لإصلاح بعض نواحي العقيدة . والبعد بها عما لابسها من الانحراف ، والميل ، بل الخضوع للبدعة الضارة ، المفسدة . وسأجعل لهذه المحاولة فصلا خاصا جعلت عنوانه « واعظ من الروم » وقبـل أن أبدأ هذا الفصل ، أريد أن أنبه إلى أشياء مما يحيط بهذه المحاولة .

(فأول هذه الأشياء ، أن هذه المحاولة لمحاربة البدعة ، نبتت ونمت ، واستوت على ساقها ، ثم زكت ، بعيدة عن الأزهر . فصاحب هذه الدعوة ، لم يلق دروسه في الأزهر ، ولم يكن يستطيع ، بداهة ، أن يفعل ذلك . بل إن الأزهر هو الذي أحبط هذه المحاولة لإصلاح ناحية من نواحي العقيدة عند أهل مصر فرجال الأزهر ، ورجال العقيدة التقليدية ، كالقاضي التركي ، هم الذين قضوا على هذه المحاولة البارّة . ولم يقر لهم قرار ، إلا بعد أن أيقنوا أنها وئدت ، ولن تولد مرة أخرى .

والثاني من هذه الأشياء ، أن صاحب هذه الدعوة ، لم يكن مصرياً ، بل كان

تركياً ، وليت الجبرتى أفصح لنا عن منشئه وهويته .

(وثالث هذه الأشياء ، أن هذا الواعظ الرومى ، لم يكن مقلداً لصاحب الدعوة الوهابية ، ولا متأثراً بهذه الدعوة ، فقد ولد محمد بن عبد الوهاب ، منشئ المذهب الوهابى ، سنة ١١١٥هـ ، ومات فى سنة ١٢٠٦ ، بينما ظهر هذا الواعظ فى القاهرة وألقى دروسه فى مسجد المؤيد سنة ١١٢٣ . ففى هذا الوقت ، الذى كان يدعو فيه أهل مصر إلى ترك البدعة ، كان محمد بن عبد الوهاب ، فى الثامنة من عمره)

وقد نرى ، الآن ، مادعا إليه هذا الواعظ الرومى ، أمراً مألوفاً ، لاشيء فى الجهر به ، أو الدعوة إليه . ولـكنه ، من غير شـك ، كان شيئاً خارجاً ، كل الخروج ، عن مألوف الناس وعقيدتهم . وكان القائل به ، بله الداعى إليه . يحتاج إلى أعظم قسط من الشجاعة والإيمان .

وإذا رجعنا إلى ما كتبه الجبرتى عن اعتقاد الناس ، فى عصره ، فى الأولياء ، وما وصف به أعمالهم فى الموالد[1] فلا بد أن نعجب بشجاعة هـذا الواعظ . وهذه هى قصته : —

(١) نجد ذلك فيما يلى من هذا الفصل .

واعظ من الروم

روى الجبرتى فى حوادث شهر رمضان من سنة ١١٢٣ أن واعظاً رومياً ، أى تركيا ، جلس يعظ فى جامع المؤيد ، وكثر عليه الناس وازدحم المسجد بهم وكان أكثرهم من الأتراك . ثم « انتقل من الوعظ وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء ، وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء ، وتقبيل أعتابهم وفعل ذلك كفر يجب على الناس تركه ، وعلى ولاة الأمور السعى فى إبطال ذلك . وذكر أيضاً قول الشعرانى فى طبقاته إن بعض الأوليـاء أطلع على اللوح المحفوظ أنه لا يجوز ذلك ، ولا تطلع الأنبياء ، فضلا عن الأوليـاء ، على اللوح المحفوظ ، وأنه لا يجوز بناء القبـاب على ضرائح الأولياء ، والتـكايا ، ويجب هدم ذلك . وذكر أيضاً وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان »

(هذه كانت دعوة هذا الواعظ الروى ، وهى كما ترى دعوة جريئة كل الجرءة ، خصوصاً فى هذه البيئة وهذا العصر . وقد دعا إليها مفـكرون أحرار ، بعد هذا الرومى بقرنين من الزمان ، فجـبههم « العلماء » ورموهم بالـكفر والمنـكر .

(وقد انتقـل الواعظ الروى من الوعظ ودعوة « ولاة الأمور » لترك هذه العقائد والعادات التى يراها مكفرة لفاعليها ومعتقديها . انتقل الواعظ ورجاله من القول إلى العمل ، وأرادوا تقـويم الناس بالعصى بعد أن لم يقوِّمهم الوعظ « فخرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبابيت والأسلحة على باب زويلة فهرب الذين يقفون به. فقطعوا الجوخ والأكر المعلقة[1] وهم يقولون : ــ أين الأولياء...»

عند ذلك أسرع بعض الناس إلى علماء الأزهر ليفتوهم فى قول ذلك الواعظ . فـكتب شيخان من شيوخ الأزهر ، هما الشيخ أحمد النفراوى ، والشيخ أحمد الخليفى

---

(١) كان الناس يعتقدون أن تعليق هذه الأشياء على باب زويلة يقضى حوائجهم ، ولايزال بعض العوام يعتقد ذلك .

ينقضان قول الواعظ ، ويطلبان من الحاكم زجره على ماقال . وأخذ بعض هؤلاء الناس هذه الفتوى فدفعوها إلى الواعظ فى مجلس وعظه . فلما قرأها غضب ، وقال إن العلماء أفتوا بغير ما قلت ، وأنا أريد أن أجادلهم فى مجلس القاضى ، فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق ...؟ فقال له أنصاره : نحن معك لانفارقك ، فنزل عن كرسىّ وعظه . واجتمع عليه من الناس قريب من ألف ، فسار بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضى . فلما رآهم القاضى بهذه الكثرة انزعج منهم ، ثم سألهم عما يريدون ، فقالوا نريد أن تحضر الذين أصدرا هذه الفتوى لنباحثهما أمامك ، فقال القاضى : — إصرفوا هؤلاء الجموع ثم نحضرهما ونستمع إلى مجادلتكم معهم . ولكن أحداً من الجموع لم ينصرف ، بل تكاثروا على القاضى وقالوا له : — ماذا تقول أنت فى هذه الفتوى ...؟ قال هى باطلة . ! فطلبوا منه أن يكتب حجة بذلك . فلما رأى القاضى أن الأمر جد ، وأنهم لا يريدون أن يتركوه ، أراد أن يعمل فيهم الحيلة ، فقال للواعظ ومن معه ، إن الوقت قد ضاق والشهود قد خرجوا ، فلنترك ذلك إلى غد . فلما سمع الناس من ترجمان القاضى هذا الكلام ضربوه ، واختفى القاضى ومعه حريمه ، ولكن الناس لم يتركوا نائب القاضى حتى كتب لهم الحجة بصواب رأى الواعظ الرومى ، وخطأ رأى الشيخين ، النفراوى ، والخليفى .)

وقصد الناس بعد ذلك يوما إلى مسجد المؤيد لسماع واعظهم فلم يجدوه ، ثم قال قائل منهم إن القاضى منعه من الوعظ « فقام رجل منهم وقال : أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معى ، فتبعه الجمع الغفير ،فمضى بهم إلى مجلس القاضى . فلما رآهم القاضى ومن فى المحكمة ، طارت عقولهم من الخوف ، وفر من بها من الشهود ، ولم يبق إلا القاضى ، فدخلوا عليه وقالوا له : — أين شيخنا ...؟ فقال : لا أدرى ، فقالوا له : قم واركب معنا إلى الديوان ونكلم الباشا فى هذا الأمر ، ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم ، فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا ، وإلا قتلناهم . فركب القاضى معهم ، مكرها ، وتبعوه من خلفه وأمامه ، إلى أن طلعوا إلى الديوان ، فسأله الباشا عن سبب

حضوره فى غير وقته ، فقال : — إنظر إلى هؤلاء الذين ملؤا الديوان والحوش ، فهم الذين أتوا بى ، وعرفه عن قصتهم »

فلما عرف الباشا قصة القوم والواعظ ، أعطاهم أمراً بأن يحضر الشيخان النفراوى والخليفى لمجادلة الواعظ ، فذهب القوم إلى جامع المؤيد وأتوا بواعظهم وأصعدوه على كرسيه ، واتفق معهم على أن يجتمعوا بالمؤيد فى اليوم التالى ثم يذهبوا إلى القاضى لينجز ما أمر به الباشا من إحضار الشيخين .

ولكن أمر الباشا هـذا كان كفتوى نائب القاضى ، كتب كما كتبت ، لتسكين الفتنة ، وصرف الناس . فإنه ، بعد أن أخذت جماعة الواعظ من الباشا ماريدون من أمر ، أصـدر الباشا أمراً آخر « إلى إبراهيم بك ، وقيطاس بك يعرفهم ما حصل ، وما فعله العامه من سوء الأدب ، وقصدهم تحريك الفتن وتحقيرنا نحن والقاضى . وقد عزمت ، أنا والقاضى على السفر من البلد » .

فلما قرأ ابراهيم بك وقيطاس بك وبقية المماليـك ذلك ، لم يقر لهم قرار حتى نفى الواعظ من البلد وتفرق الناس من حوله . « وأمروا الأغا أن يركب ، ومن رآه منهم قبض عليه ، وأن يدخل جامع المؤيد ويطرد من يسكنه من السقط[1] » ، أى من العوام .

(وهـكذا أخرج من القاهرة[2] هذا الواعظ الرومى ، الذى أراد أن يخرج بالناس عن مألوفهم ، وأن يخالف ما يفتى به العلماء فى الأزهر ، وما يعتقده العامة ويحرصون على فعله)

وقد أرخ الشيخ حسن الحجازى ظهور هذا الواعظ ونفيه فى قصيدة أولها :

مصر قد حل بها واعظ — عن منهج صدق قد أعرض
أبدى ، جهلا ، فيها قولا — منه الحبلى ، حالا ، تجهض .!

---

(١) ص ٤٩ — ٥١ من الجزء الأول .

(٢) يروى أمين باشا سامى ، نقلا عن همّر ، أن هذا الواعظ نفى سرا إلى الشام . ونقل عنه أيضاً أنه دعا لهدم التكايا . وقال إن الدراويش أولى بهم أن ينصرفوا لطلب العلم بدل عكوفهم على الرقص : وذكر أن الناس تأثروا كثيرا بدعوته فلما نفى عاد الناس شيئاً فشيئاً لما كانوا فيه .

فأســاء الظن بســادات أحكام الدين ، بهم ، تنهض

وهى قصيدة ، كما ترى ، على وزن القصيدة التى كان يتغنى بها الشحاذون على أبواب المساجد ، والتى أولها : الحمد لرب مقتدر .

ومن هذه القصة ، نرى أنه ، على رغم الظلم والظلام الذى كانت تعيش مصر تحت سطوته ، فى ذلك الوقت ، نرى أن حركة تحررية مثل هذه وجدت لها مكانا فى عقول الناس ، حتى تبع هذا الواعظ ألف من رواد المساجد ، يقتحمون بيت القاضى وديوان الحاكم . وكان من الممكن أن تثمر هذه الحركة التحررية ثمرتها ، لو لم يقض عليها العلماء ، والقاضى ، والباشا .

ومن هذه القصة أيضاً . ومن تصرفات القاضى ، ونائبه ، والباشا ، نستطيع أن نحــكم على مستوى الأخلاق عند أصحــاب السلطة ، الدينية والزمنية ، إذ ذاك .

وقد رأينا ، فى ترجمة الشيخ حسن العطار ، أنه كانت عنــده نزعة لطيفة للتحرر ، ودعوة هادئة لاخراج مصر من قيود التقليد ، يمــكن أن نذكرها عند ذكر هذا الواعظ الرومى ودعوته .

(أما الحياة العلمية ، فــكانت سمتها الغالبة ، الأتجاه إلى الحفظ . ولذلك كان يكثر نظم العــلوم المتداولة شعراً ، ليسهل حفظه . وهذه السمة إستمرار لطريقة سادت الحياة العلمية عند تأخر العقلية الاسلامية ، وجفاف مواردها . ونجد كثيراً من الأمثلة على ذلك فى صفحات مختلفة من الجبرتى .)

بيت الشرايبى

ولا يكون الحديث عن الشعر والنثر ، والحياة الفــكرية والعقلية لهذا العصر كاملا ولا وافياً ، إلا بذكر قوم ، ليسوا من الشعراء ، ولا من الناثرين ، ولا من أهل الفــكر . بل كانوا تجاراً . ولــكن لهم ، فى هذه الحياة الفــكرية ، أثر كبير . وهم بيت الشرايبى .

كان آل الشرايبى من كبار التجار ، وكان بيتهم من بيوت المجد والعز والفخر . مماليكهم ، وأبناء مماليكهم ، من أعيان مصر وأمرائها . وكانوا ذوى ثراء فاحش . ورفاهية . وكانت بيوتهم ، فى الأزبكية ، تشتمل على إثنى عشر مسكناً ، وكل مسكن بيت مستقل ، فسيح . يتردد عليهم فيها الأمراء ، من غير موعد ، ولا دعوة . ويقصدهم فيها الشعراء ، والمادحون .

وكانت فى بيوتهم مكتبة عامرة . فيها أندر الكتب ، وأغلاها ثمناً ، يرغبون فى شرائها ، ويدفعون فيها نفيس المال . ثم يضعونها فى هذه المكتبة ، ويبيحون لمن شاء من العلماء ، وأهل الأدب ، أن يطالع فيها ، وقتما يشاء ، وكيفما يريد ، فهى موضوعة على الرفوف ، والخزائن . لا يكتبون عليها وقفية . ولا يدخلونها فيما يتوارثونه من مال ، وهى مال جسيم .

وكان من رغب ، من زوار بيتهم من العلماء وأهل الأدب ، فى أن يطالع كتابا فى أى علم ، أو فن . وجد ما يبتغى ميسوراً مباحاً . فإذا أراد أن يأخذ ما يشاء من كتب إلى بيته ، أو مسجده ، أو بلده ، أخذه . ولو لم يعرفه أحد من أصحاب البيت . فهم لا يمنعون راغباً عن كتاب ، مهما يكن الحال . وكان بعض من يأخذ الكتب من بيت الشرايبى ، لا يردها . بل يبقيها ، فلا يسأل عنها . وقد يبيعها ثم تعود إليهم مرة أخرى ، فيعودون إلى شرائها ، معتذرين عمن أخذها فباعها بأنه قد يكون محتاجاً ، وقد يخرج الكتاب من خزائنهم ، فيباع عليهم مرة بعد مرة ، وهم يشترونه راضين . ويضعونه ، فى كل مرة ، حيثما كان ، ميسورا مباحا ، لمن يقرأ ، مبذولا لمن يأخذ .

وكان بيتهم يفتح دائماً لكل طارق . ولا ينقطع منه الضيف . ولا يرد عن طعامه سائل ، ولا جائع ، ولا محتاج .

وقد مات كبير بيت الشرايبى هذا ، الخواجا الحاج أحمد بن محمد الشرايبى ، حوالى سنة ١١٧٠ .

وكان آخر هذه الطبقة من بيت الشرايبي ، شقيقه إبراهيم ، المشهور بابن الدادة ، صديقاً حميا للجبرتي . ومات في سنة ١٢٠٥ .

وكان لهذه الأسرة نظام عائلي فريد . يختارون منهم كبيراً ، يكلون إليه أمر أموالهم ، ينميها ويستثمرها ، ويقوم على حسابها العام كله . فاذا تجمع لديه ، آخر العام ، ريع هذه الأموال ، قام بدفع ما عليهم جميعاً من الضرائب . ثم أعطى كل فرد من أفراد الأسرة ، رجلا أو امرأة ، ما يلزمه لكسوة الصيف ، ثم لكسوة الشتاء . وخصص لكل منهم ، في كل شهر ، قدراً من المال ينفق منه على حاجته . وهو يعطى هذه النفقات الشهرية لكلٍّ منهم حسبما يرى أنه يكفيه ويستحقه . وهم لا يعترضون . وعند ما تبقى فضلة من المال في نهاية العام ، يفرقها عليهم ، حسب حاجتهم ، واستحقاقهم .

ويقول الجبرتي إن هذا النظام ، الاشتراكي ، بقي سائداً في بيت الشرايبي زمناً طويلا .

وكان من تقاليد هذه الأسرة ، أن يتزوج أفرادها فيما بينهم . فشبابهم يتزوج من فتيات الأسرة . ولا يتزوج من غيرها . وكذلك فتياتها .

وفي خطط على باشا مبارك أن بيت أسرة الشرايبي كان في ميدان العتبة الخضراء . وكان يعرف ببيت « الثلاثة ولية » . وأن السيد محمد الشرايبي بنى فيه مسجداً عرف باسمه ، ثم عرف فيما بعد باسم جامع البكري . وبيت الشرايبي هذا ، اشتراه الأمير رضوان كتخدا فيما بعد . وجعل منه قصوراً باذخة . تحدثنا عنها في مواضع أخرى من الكتاب . وبقي جزء من هذا البيت كانت فيه ، إلى سنين غير بعيدة ، المحكمة المختلطة القديمة .

حياة النــاس

فى القاهرة

نرى فى هذا السجل الحافل ، الذى سجل به الجبرتى كل صغيرة وكبيرة من تاريخ عصره ، هذه الحياة المصرية الصميمة حية تفيض بالحياة والقوة .

فهو يسجل هذه الحياة الاجتماعية التى كان الناس يحيونها فى القاهرة والريف . وكيف كانت هذه الحياة تسير بهم ، أو يسيرون فيها ، يوما بعد يوم . وعاما بعد عام . ويذكر ما كان فى القاهرة من قصور مشيدة ، وحدائق . وما كان يفيض بين أيدى أهلها من الأمراء والتجار والعلماء أيضا ، من الثروة . وما كانوا ينعمون به من رغد العيش وطيب الحياة . ويذكر ما كان ينال الناس من شقاء ومن مرض وفقر . حتى لا يجدوا ما يطعمون ، فيأكلون الجيفة ، والحمير ، والقطط . ويجدون أنفسهم سعداء ، إذا وجدوها ، بعد سعى ، وجهد ، وطول معاناة .

وهو يصف ، أيضا ، ما كان بين الناس من مودة ، وتعاطف ، وبر . وما كان عند أغنيائهم من أريحيّـة . وعند فقرائهم من أمانة . ويذكر أيام القاهرة ، ومواسمها . التى يحفل بها الناس ، ويبتهجون فيها . ويذكر شيئاً قليلا يشير به إلى حياة الفن والغناء ، وإلى ملاعبهم وأفراح السادة منهم .

الثروة والنعيم

أما ثروة الأمراء ، المماليك ، وما كان فى قصورهم من النعيم والترف ، فقد كان يسيراً على الجبرتى أن يصفه ، حيث كان صديقا لـكبارهم ، يزورهم فى هذه القصور ،

ويشاركهم فى بعض هذه الحياة المترفة التى كانوا يحيونها ، ويحرصون على أن يبلغوا بها غاية ما يستطاع من رفاهة ومن رغد[١] .

كان للسيدة زليخا ، زوجة إبراهيم بك ، تاج من الجوهر . ولم يكن كل ما تملك من الجواهر والذهب .

« وعندما زار فولنى مصر ، فى أواخر القرن الثامن عشر ، قدر عدد المماليك بنحو ٨٥٠٠ مملوك ، من الرؤساء ، الذين ينفق الواحد منهم ، على سلاحه وملبسه ، وزوجته ، وسراريه ، نحو ألفين وخمسمائة جنيه فى العام . وهذا تقدير شاهد عيان[٢] » .

وكان من عادة هؤلاء المماليك ، إذا أعتقوا واحدا من مماليكهم الصغار ، أن يخلعوا عليه الخلع الثمينة ، والثياب الغالية ، من صناعة الهند ، وحرير الشام . ويقدموا له البيوت ، بل القصور ، المؤثثة بالرياش الفاخر ، والجوارى والخدم . ويهدون له أصائل الخيل ، وقد يزوجوه .

وكذلك كانوا يصلونهم ، فى الأعياد والمواسم ، بالهدايا الكثيرة ، الكبيرة القيمة .

وحين هرب على بك ، بعد أن خذ له أنصاره ، إلى الشام . التجأ إلى صديقه الشيخ ظاهر فى عكا ، وأخذ معه ، من الأموال ، ثمانمائة ألف محبوب ذهبا ، على خمسة وعشرين جملا . ونقل معه أيضاً ، من المصوغ والحلى ، ما قدرت قيمته بمبلغ ثلاثة ملايين محبوب ذهب . أى ما قيمته الآن حوالى ستة وتسعين ألف جنيه .

وقد وصف فولنى ، فى رحلته إلى الشام[٣] ملابس جنود على بك وصفا دقيقا ، فقال إن ملابسهم تتكون من أربعة ، أو خمسة ، أردية وطيلسانات ، تتدلى على

---

(١) انظر ماوجد فى قصر مراد بك ، بعد فراره . فى الجزء الثالث من الكتاب

(٢) ص ١٠٠ من كتاب « المماليك فى مصر » للأستاذ أنور زقلمة .

(٣) قام فولنى برحلته إلى مصر وسوريا سنوات ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و١٧٨٥ . وهو كاتب فرنسى .

أرجلهم . وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الأبيض ، والثوب المتدلى فوق القميص ، من القماش الهندى الخفيف . وفوق ذلك القفطان من حرير مزركش ، تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع . ثم « السكرك » بأكمام قصيرة . ويطوف ، حول الرقبة ، فراء من السمور . ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه فى الحفلات ، يلف به جسمه جميعه . وكان عدد هذا الجيش أربعين ألف مقاتل(١) .

وكان مقبض الخنجر الذى يحمله على بك ، يقدر ثمنه بمائتى ألف جنيه(٢) .

وبنى حسن كاشف لنفسه قصراً من أجمل القصور . أنفق عليه ، كما يقول الجبرتى ، أموالا عظيمة . وقبل أن يتم بياضه دخل الفرنسيون القاهرة ، فخصصه نابليون لإقامة أعضاء المجمع العلمى ، الذى كان يرافقه ، وقد كتب أحد أعضاء هذا المجمع يصف هذا القصر ، وقصر قاسم بك ، الذى كان يجاوره ، وخصص لأعضاء المجمع الفرنسى أيضا ، كتب يقول : — « إن فى هذه القصور ، من أسباب الفخامة ، ما لا يقل عن اللوفر . وإنا لنجد فيها ، من أسباب الراحة ، أكثر مما فى اللوفر . وبجوارها حديقة فسيحة ، تبلغ مساحتها نحو خمسة وثلاثين فدانا . جيدة الغراس . أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزدانة بأجمل ما فى قصور المماليك من الأثاث(٣) » .

وكان قصر حسن كاشف هذا فى الناصرية . ومكانه الآن المدرسة السنية .

وكانت للأمير عبد الرحمن كتخدا ، صاحب العمائر الكثيرة ، الضخمة ، دار بحارة عابدين ، نقشت مجالسها بالذهب المموه ، واللازورد . وصبغت جدرانها بالأصباغ البهيجة ، البديعة الصنع . وزخرفت بالرخام والقيشانى وغرس إلى جوارها بستانا عظيما ، أقام فى داخله مجلسا تتوسطه أحواض المياه المفروشة بالرخام ، وأقيمت قاعة المجلس نفسها على أعمدة من الرخام الأبيض .

---

(١) ص ١٥٠ — ١٥١ من كتاب « المماليك فى مصر » لأنور زقلمة .

(٢) ص ٢٧ من كتاب « تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل » تأليف جورج يانج . الترجمة العربية .

(٣) ١٢٢ ج — ١ — من كتاب « تاريخ الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعى .

وبنى الأمير يوسف بك داراً على بركة الفيل ، تجاه جامع ألماس ، ظلت عمارتها مستمرة خمس سنين . وجاءه يوما ، من أراضيه فى الصعيد ، ثمانون ألف أردب من القمح ، فصرفها كلها أجورا على البنائين ، وثمنا للأحجار ، والحديد ، والخشب ، والجبس ، والجير . الذى كان يحتاجه لبناء هذه الدار .

وكان لمحمد بك الألفى بيت متنقل ، بل قصر مصنوع من الخشب . مجزوء إلى قطع متفرقة . تحمل على الجمال عند ما يريد السفر . ثم تركب ويضم بعضها إلى بعض ، وتربط بأربطة من الحديد . فيتكون منها بيت لطيف مرتفع عن الأرض بثلاث درجات . ويفرش بالطنافس الغالية ، والوسائد الحريرية والأسرة . وله سقف مرفوع . ونوافذ تفتح وتغلق ، حسبما يشاء .

وقد بنى الألفى ، فى سنة ١٢١١ قصرا من قصوره ، على بركة الأزبكية ، وبعد أن تم منه الطابق الأول ، لم يعجبه ، فأمر به فهدم ثم أمر ببنائه من جديد ، على وضع آخر . واختار أربعة من أمرائه يقفون للأشراف على البناء .

وطلب له الصناع ، والأخشاب ، والمؤن . حتى أوشك الناس ألا يجدوها . وأنشأ طواحين خاصة لطحن الجبس لقصره هذا . ولما أتمه جعل على نوافذه شرائح الزجاج الملون . والبلور الصافى النقى . حتى قدرت الشريحة الواحدة من البلور بخمسمائة درهم . ثم فرش القصر بالطنافس الغالية ، وعلقت فيه الستائر ، والوسائد المزركشة المقصبة . وبنى فيه حمامين ، فى كل طابق حمام . وعلق فى حجراته النجف ووضع فيها أشياء ثمينة أهديت إليه عند ما سافر إلى إنجلترا . وأنشأ فى طابقه الأول قاعة كبيرة لجلوسه فيها حوض كبير الماء ، فيه سلسبيل من الرخام مركب من قطعة واحدة . وله نافورة كبيرة يندفع فيها الماء . ومن حولها نافورات أخرى صغيرة على هيئة أسماك تمج الماء من أفواهها . وغرس إلى جوار هذا القصر بستانا عظيما .

(وقد أقام الألفى فى قصره هذا نحو عشرين يوماً من شهر شعبان سنة ١٢١٢ ثم دخل الفرنسيون مصر . فاتخذه نابليون سكناً له . ثم سكنه من بعده الجنرال

كليبر ، بعد سفر نابليون من مصر . ثم الجنرال عبد الله منو بعـد قتل كليبر .
ثم سكنه محمد على بعد ذلك).

وكان للأمـير رضوان كتخدا الجلفى بيت عظيم « ليس له نظير فى عمـارته وزخرفته ، وكلفته . وسقوفه من أغرب ماصنعته أيدى بنى آدم ، فى الدقة والصنعة وكله منقوش بالذهب ، واللازورد ، والأصباغ . وعلى مجالسه العليا قباب مصنعة ، وأرضه كلها بالرخام الملون » .

وقد أنشئت ، فى وصف هذا القصر ، ومدح صاحبه ، قصائد كثيرة . منهـا قصيدة الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى . رأينا طرفاً منها من قبل ، وقد نجد أيضاً فى موضع آخر من هذا الفصل ، شيئاً من مظاهر الثروة والنعيم عند المماليك .

وقد ذكر الجبرتى خبر هدية أرسلها الأمير اسماعيل بك كبير المماليك ، إلى السلطان مصطفى الثالث(١) فـكان منها ستة سروج للسلطان وأولاده . وكانت مع السروج عبـائات ، هى وقصاعها وقربوسها ، مرصعة جميعاً بالجواهر والذهب . والركابات واللجامات والشماريخ والسلاسل كلها أيضاً من الذهب الخالص . والرأس والرشمة من الحرير المنسوج بسـلوك الذهب وشماريخ المرجان والزمرد ، وجميع « الشراريب » من القصب والمرجان .

وقد صنعت هذه السروج أدق صناعة وأجملهـا فى بيت محمد أغا البارودى . وأرسل مع هذه الهدية كثيراً من القدور والأوانى الصينية الجميلة . مملوءة بأنواع مختلفة من الشربات ، كالورد والبنفسج ، ومن العطور كالصندل الممزوج بالمسك ، والعنبر ، وماء الود المـكرر ، ومن المربات الهندية مثـل القرنفل والزنجبيل . وأرسل معها عددا من أجمل الجياد ، وأقمشة هندية رقيقة ، وعودا وعنبرا ، وطرائف كثيرة . وقدر ثمن القدر الواحدة التى وضعت فيها هذه الأشربه أو العطور — وهى فارغة — بمائة دينار أو أكثر .

ووصف هذه الهدية لايدل فقط على الثروة التى كانت تسيل بين يدى المماليك.

---

(١) تولى من ١٦ صفر ١١٧١ إلى ٨ ربيع الأول ١١٨٧ [١٧٥٧ — ١٧٧٣ م]

بل يدل أيضاً على أن القاهرة لم تخل من الصناعة الدقيقة الجميـلة ، ولا من الذوق الرفيع الأنيق . رغم مافعل بها السلطان سليم بعد فتحها ، مماسجلناه فى موضعه .

وقد أقام اسماعيل بك الدالى حفلا لزواج ابنه ، دعا إليه عثمان باشا الحلبى . فلما انتهى الحفل وضع بين يدى عثمان باشا منديلا فيه ألف دينار . ورجا منه أن يفرقها « بقشيشاً على الخدم وأرباب الملاعيب » .

أما ثروة التجار، وأموالهم ، فيكفيك ، لتقديرها ، أن تذكرماوراه الجبرتى . عند حديثه عن إحدى الفتن التى وقعت بين الحـكام فى القاهرة . من أن بعض الجند لحق بالسيد أحمد المحروقى ، كبير تجار مصر ، وكان طرفا فى هـذه الفتنة . فسلبه عشرين ألف دينار اسلامبولى ، كانت فى ثيابه .

وفى سنة ١٢٠٢ أغار الأعراب على قافلة للحجاج والتجار، قادمة من السويس فنهبوا منها ، للتجار وحدهم ، سـتة آلاف جمل تحمل البضائع ، من الأقمشة ، والبن ، والبهـار .

وقد ذكر الجبرتى ، فى حوادث سنة ١١٣٥ ، أن جماعة من الجند سطوا ، وهم سكارى ، على نسوة من « نسـاء الأكابر » كن يتنزهن فى غيط الأعاجم ، عند قنطرة الدكة بالأزبكية ، فسلبوهن ثيابهن وحليهن ، ثم جاء آخرون ومعهم كبير منهم ، فأكملوا سلبهن ، وعروهن من ثيابهن جميعاً .

ويذكر الجـبرتى شيئاً كثيراً من الذهب والجوهر ، كن يتحلين به ويضمنه فى ثيابهن التى نهبت . وكان مع إحداهن غلام سلبت من على رأسه طاقية فيها جواهر وذهب . وسلب منها سروال شبيكة من الحرير الأصفر والقصب . وفى كل عين من الشبيكة لؤلؤة ، وفى تـكة السروال أيضاً .

وقد منعت النساء من النزهة وركوب الحمير فى غيط الأعاجم بعد هذه الحادثه .

ولما مات الخواجا محمد الدادة ، وكان تاجراً ، ترك ألفاً وأربعمائة وثمانين كيساً. وكان يملك خان الحمزاوى ، وغيره من الوكائل ، والحمامات ، والجامكية ، أى المخصصات ، والأراضى وثلاث سفن تسير فى البحر الأحمر .

وقد رأينا فيما كتبناه عن « الأزهر والعلماء » ما كان يشغل بعضهم من أمر الدنيا ، وكيف كانت لهم القصور ، والضياع الواسعة ، ورأينا ، فيما كتبنا عن الحملة الفرنسية ، أن غرامة فرضت على أهل القاهره . فكان ما طلب ، من الشيخ محمد السادات ، خمسون ألف فرنك . ومن الشيخ مصطفى الصاوى خمسون ألف أيضاً . كما فرضت خمسون ألفا اخرى على الشيخ محمد الجوهرى وأخيه .

وعندما مات الشيخ محمد شنن ، شيخ الأزهر ، سنة ١١٣٣ ترك لابنه موسى أربعين ألفا من الذهب البندقى . إلى جانب ثروة أخرى من النقود والفضة . والأملاك والضياع ، والوظائف والجماكى . ويذكر الجبرتى فى ذلك ما يدل على ما كان يسود الناس ، فى ذلك الوقت ، من الإخلاص ، والثقة ، والأمانة ، فيقول إن هذه الثروة العظيمة ، تركها الشيخ شنن أمانة عند الشيخ محمد الجداوى ، حتى يكبر ابنه موسى . فلما مات ، أداها الشيخ الجداوى كاملة إلى موسى هذا . بعد أن حفظها سنين ، . وبدد موسى هذه الثرة كلها .

وكذلك كانت لمن يتصلون بالحكم والحاكمين ثروات طائلة . يذكر الجبرتى أن محمداً علياً غضب ، أو تصنع الغضب ، على المعلم غالى ، كبير المباشرين ، وأمر بتفتيش بيته . فوجدت عنده نيف وستون جارية بيضاء ، وسوداء ، وحبشية ، وخلعه محمد على من وظيفته . فصالح المعلم غالى على نفسه . ودفع له أربعة وعشرين ألف كيس ، فأعاده إليها .

ومن مظاهر الثروة والنعيم ما ذكر عن حفلة المولد النبوى ، التى أقامها السيد خليل البكرى فى بيته . وحضرها نابليون . فقد بسط خمسين مائدة ، على كل واحدة منها خمسة أو ستة يجلسون على الوسائد . وكانت الأطباق على المائدة التى جلس عليها نابليون والبكرى ، من الفضة .

حياة الفوم

هذا الثراء ، وهذه الحياة الرغدة . كان لا بد لأصحابها من حياة اجتماعية بهيجة ومن ثقافة فنية . ولكن الجبرتى لم يوف هذه الناحية حقها من التسجيل ، إما لأنه

شيخ أزهرى . وإن كان من أهل الثراء ، وسادة المجتمع . وإما لأنه لم يكن يعتقد أن هـذه الناحية مما يستحق أن يحفل بتسجيله . وقد يكون كلا الأمرين سبباً لهذا القصور .

وقد ذكرنا فى تراجم بعض أهل الفـكر أنهم كانوا يجيدون العزف على العود وبعض الآلات الموسيقية . كما ذكرنا أن بعض شيوخ الأزهر كان ينظم الأغانى والغزليـات والتواشيح . بل رأينـا قسوته على العلماء خاصة ؛ لأسرافهم فى السماع واللهو .

وذكر الجبرتى أسماء بعض المغنين . والعازفين على العود ، والقانون ، والناى والـكمنجة . وهم ، ابراهيم الوراق ، والحبابى ، وقشوه ، وقال إنه كان لهم مرافقون يصحبونهم . ولـكنه لم يترجم لأحد منهم . وكان ورود أسمائهم فى سياق ترجمة أحمد باشا طوسون ، ابن محمد على ، حيث قال إنه أخذ أهل الفن هؤلاء مرافقين له فى معسكره الذى كان يتنقل به بين القاهرة والإسكندرية ورشيد .

كما ذكر ، فى تراجم كثير من المماليك ، والأعيان ، والعلماء ، أنهم كانوا يقيمون مجالس الغناء .

ولـكن مباهج الحيـاة ، والاستمتاع بالغناء ، والموسيقى . لم يكن قاصراً على هذه الطبقة المترفة من أهل الثراء والجاه . بل كان للقاهريين عامة نصيب كبير من هذه المباهج وهذا المتاع .

وفى وصف الجبرتى لحفلات كسر الخليج ، أى وفاء النيـل ، ما يدل على أن أهل القاهرة كانوا ينالون فيها من المرح ، والبهجة ، شيئـاً كثيراً . حتى أنهم كانوا ، فى بعض السنين يسرفون فى هذا المرح . ويخرجون به عن الحد . وكثيراً ما سلط عليهم الباشا ، أو الحاكم ، جنداً شداداً ، ليحول دونهم ودون الخروج بهذه البهجة ، وهذا المرح ، إلى الاستهتار . وسنرى شيئاً من ذلك بعد قليل .

وكانت بركة الأزبكية ، مثابة أهل السرور ، ومكان التنزه ، وترويح النفس لمن يشاء . كانت ، فى أيام الفيضان ، يملأها ماء النيل . وتغـطى صفحة هذا الماء بالزوارق تعد للنزهة نهاراً وليلا . وفى المساء توقد القناديل على دائرة البركة ،

فى تلك القصور الزاهرة التى تحيط بها . كما توقد الزوارق التى تسبح على سطحها . فيأتلف من هذه وتلك منظر بهيج يسر النفس ، ويشرح الصدر . وخاصة فى تلك الليالى القمرية من صيف القاهرة الساحر . فيختلط ، كما يقول الجبرتى ، « ضحك الماء ، فى وجه البدور والقناديل ،وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء أيضاً ، وصدى أصوات القيان والأغانى ، فى ليال لا تعد من الأعمار » .

وقد أطنب الشيخ حسن العطار ، وغيره ،من أدباء ذلك العصر وشعرائه ،فى بركة الأزبكية ، وجمالها ، وما كان يحيط بها من القصور . وما كان لأهل القاهرة فيها ، وحولها ، من مباهج ونعيم . وقد رأينا بعضاً من ذلك أول هذا الفصل .

وكذلك كانت من أماكن النزهة والراحة ، بركة الفيل . وكانت تبنى على جوانبها القصور الواسعة ، وتنشأ الحدائق الجميلة فى داخلها وخارجها ومن الشعر الذى قيل فيها : —

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت بها المناظر ، كالأهداب للبصر
كأنما هى ، والأبصار ترمقها ، كواكب ، قد أداروها على القمر

وكانت منازه الخليج أيضا ، والماء ينساب فيه رفيقا يسيرا ، فى ليالى الصيف ، بهجة لأهل القاهرة ومراحا ، ومكانا للهوهم وعبثهم ومتاعهم . حتى قيل فيه :

لا تركبن فى خليج مصر إلا إذا يسدل الظلام
يا سيدى ، لا تسر إليه إلا إذا هوّم النيام
والليل ستر على التصابى عليه ، من فضله ، لثام

وهذا الشعر لم يذكره الجبرتى . بل هو سابق على عصره الذى أرخه . ولكنه كان صادقا فى وصف هذه المنازه ومباهجها فى العصر الذى يؤرخه .

وقد أنشأ الأمير قاسم بك أبو سيف ، وكان يعرف بقاسم كاشف ، فى أحد قصوره على بركة الناصرية ، حديقة واسعة ، وكان هذا الأمير عارفا بالهندسة ، فأجرى فى هذه الحديقة مياه النيل بطريقة ابتكرها . وشق فيها طرقا ممهدة مستطيلة ومجارى للماء ، وغرس فيها الأشجار الباسقة ، والنخيل . وجعل هذه الحديقة طبقات ، يعلو بعضها بعضا ، والمياه تصعد إلى أعلاها عن طريق أنابيب خاصة .

وعند كل مصب لهذه المياه أقام مكانا للجلوس ، وعليه أشجار مظلة . وأباح الأمير دخول هذه الحديقة لمن يشاء . وسماها «حديقة الصفصاف والآس ، لمن يريد الحظ والإئتناس » ونقش ذلك الاسم على لوحة من الرخام ، رفعها على جذع شجرة ، على مدخل الحديقة .

وقد تكاثر الناس ، على حديقة الحظ هذه ، للنزهة والجلوس ، وأقيمت فيها المجالس ، والقهاوى . يجلس إليها المغنون والمطربون ، والناس من حولهم ، يرى بعضهم بعضا ، ويقصدون إليها من جميع الأطراف . وبعضهم كان يقضى فيها الليل كله ساهرا ، لاهيا .

كما كان يقصد إلى حديقة هذا الأمير كثير من الأعيان والكبراء ، يبيتون ليالى ، فى داخل القصر . بعد أن ينعموا نهارهم فيها . وكان يبيح لهم ذلك ، ويجىء لهم طعامهم من بيوتهم . ويقول الجبرتى إن هذه الحديقة « زاد بها الحال ، حتى امتنع من الدخول إليها أهل الحياء والحشمة » .

وقد سمع الجبرتى من الأمير قاسم ، الذى أنشأ هذه الحديقة ، أنه أنشأ ، فى الصعيد ، أعجب منها وأغرب .

وكذلك أنشأ فقيه من فقهاء الحنفية هو السيد سعودى اسكندر بيتا عظيما ، على بركة الأزبكية ، وغرس فيه حديقة عظيمة ، فيها قناطر وبوائك . وأباح دخولها للناس . فكان يجتمع فيها « عالم من أجناس الناس ، وأولاد البلد ، شيء كثير . وبها قهاوى ، وبياعون ، وفكهانية ، ومغانى ، وغير ذلك . وتقف عندها مراكب وقوارب ، بها من تلك الأجناس . فكان يقع بها ، وبالجسر المقابل لها ، من عصر النهار إلى آخر الليل ، من الحظ والنزاهة ما لا يوصف[1] » .

---

(١) قصر هذا الفقيه ، هو الذى اشتراه ، فيما بعد ، محمد بك الألفى وأضاف إليه غيره فكان من هذه القصور . بيته الذى سكنه نابليون كما ذكرنا من قبل .

أيام أهل القاهرة

مصر السعيدة ما لها من مثيل فيهـا ثلاثة فى الهنـا والسرور
مواكب السلطان ، وبحر الوفا وممل الهـادى ، نهاراً ، يدور

فى هذين البيتين ، جمع الشاعر أهم أيام أهل القاهرة ، التى يبتهجون بقدمها ، ويحتفلون بها ، ويظهرون فيها زينتهم : ويعلنون سرورهم .

أما مواكب السلطان ، فهى التقاليد التى كانت مصر تقوم بها لاستقبال « الباشا » الذى يختاره السلطان ، فى اسطنبول ، لحـكم البلاد . ويسمى الوالى . وكانت العادة تجرى بأن يبلغ الوالى الجديد نبأ قدومه إلى الديوان فى القاهرة ، عندما يصل إلى الإسكندرية ، أو رشيد ، أو السويس . فيختار شيخ البلد ، وهو كبير المماليك ، وفداً منهم لاستقباله . وقد يحملون له معهم الهدايا ، فإذا كان طريقه إلى القاهرة على النيل ، ركب سفينة فخمة ، مزينة ، تحيط بها السفن الأخرى محلاة بالأعلام والبيارق . وفيهـا الطبول تدق ، والزمور تعزف . وكلما صادفتهم سفينة فى النيل ، انحدرت معهم إلى القاهرة . فيـكون من هذا الأسطول النهرى مهرجان بحرى رائع . وعندما تصل سفينة الوالى إلى ساحل بولاق ، يذهب لاسـتقباله كبار المماليـك ، والصناجق ، وتطلق المدافع . وقد يذهب شيخ البـلد بنفسه لاستقباله فى بولاق . وبعد أن يرحب به مستقبلوه ، يسلمون إليه مفتاح القلعة ، مقر الحـكم والسلطان .

وقد وصف الرحالة الفرنسى سافارى أحد هـذه المواكب ، كما شاهدها فى المدة التى قضاها فى مصر من سنة ١٧٧٧ إلى نهاية سـنة ١٧٧٩ ، وهى من العصر الذى نؤرخه ، فقال : « شاهدت ، بعينى ، وصول الباشا ، ودخوله المدينة ، فى موكبه وزينته ، رأيت الموكب تتقدمه فصائل من الجنود المشاة ، يسيرون صفين ، وموسيقاهم أمامهم . وأعلامهم تخفق فوق رؤوسهم . يليهم الفرسان ، وعددهم نحو خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس . يسيرون بنظام حسن . ويحملون الرماح الطويلة

تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة ، وشواربهم الكبيرة . فكان لهم منظر حربي يبعث الروعة في النفوس . ويلي هؤلاء « البكوات » مرتدين الملابس البديعة ، وحولهم حاشيتهم من المماليك ، يمتطون صهوات الجياد العربية الأصيلة ، وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة . رأيت أعنة خيول الأمراء مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة . وعلى خيولهم السروج ، تتلألأ بالذهب . وكل بيك يسير في موكب ، على هذه الصفة . فكانت مواكبهم ، مجتمعة ، غاية في الرونق والفخامة ، يزينها جمال الفرسان ، وشكل ملابسهم ، وحسن استوائهم على متون جيادهم . ويليهم الباشا ، يسير الهوينا . وتتقدمه كوكبة من مائتي فارس ، وفرقة من الموسيقى . وأمامه أربعة من الجياد ، يقودها أربعة من السواس ، وعليها غواشيها ، موشاة بالذهب ، مرصعة بالأحجار الكريمة . وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً ، وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة ، يتوهج سناها في أشعة الشمس[1] » .

ويذكر الجبرتي استقبال الوالي هذا بقوله إنه جرى على العادة ، أو خرج الأمراء لملاقاته . وأشباه ذلك .

وأما بحر الوفا ، فهو احتفال أهل القاهرة بوفاء النيل . وكانوا يسمونه ، أول الأمر ، كسر البحر ، لأن السد يكسر لتجرى مياه النيل في الخليج . ثم نفر المصريون ، بذوقهم المرهف ، من كلمة « كسر » في هذه المناسبة ، فسموه « جبر البحر »

وكان بلوغ النيل ، في المقياس ، ستة عشر ذراعا ، إيذاناً بأفراح القاهرة بوفاء النيل . فيبلغ قاضي المقياس وليَّ الأمر أن النيل بلغ وفاءه . وينطلق المنادون في شوارع القاهرة يزفون لأهلها البشرى . وفي اليوم الذي يحدد ، بعد ذلك ، يقام الاحتفال ، فتزين السفينة « العقبة » . كما تزين غيرها من السفن . وقد ترسل الدعوات لحضور هذا الحفل . حيث يجتمع الوالي ونائبه . وشيخ البلد ،

---

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي . ص ٢٥ — ٢٦ ، جزء ١ .

كبير المماليك ، وقاضى القضاة . وكبار العلماء والأعيان . ويكسر الوالى أو نائبه سد الجسر . فإذا جرى الماء فى الخليج ، يشق القاهرة ، وتفيض منه بركة الأزبكية وغيرها من منازه القاهرة ورياضها . خرج أهلها فى مباهجهم إلى المقياس والروضة وغيرها يتنزهون . وتطلق المدافع ، وتقام الزينات على البيوت ، وتضاء القناديل فيها . وعلى جنبات البركة . وتسير فى الخليج الزوارق المزينة تضيئها القناديل أيضاً وتصدح الموسيقى . ويغنى المغنون .

وتمضى أهل القاهرة نهارهم هذا وليلهم فى سرور ، وبهجة ومرح شامل . فإذا كانت القاهرة فى حرب ، أو مجاعة ، أو وباء . لم يكن يقام هذا المهرجان ، وقد يكسر الجسر ليلا ، فيرى الناس ماء النيل فى الخليج صبحاً ، ولم يقيموا له زينته ولا مهرجانه .

وأما خروج المحمل ، فكان يجرى الاحتفال به ، عادة فى النصف الأخير من شهر شوال ، فى كل سنة . يجتمع لذلك ، فى ميدان القلعة ، الوالى ، أو نائبه ، وكبار المماليك ، وأمير الحج ، والعلماء ، والأعيان . ثم يمر الجمل ، الذى يحمل المحمل ، فى شوارع القاهرة الكبرى . وتسير الجمال تحمل روايا الماء والقرب ، ثم طوائف الجند ، على رؤوسهم الطراطير السود ، والقلابق . وخلفهم أمير الحج ، ثم أرباب الأشاير ، من رجال الطرق الصوفية ، يحملون البيارق ، والخرق ، والطبول ، والزمور ، ومن خلفهم المحمل . والناس على جوانب الطريق ، أوسائرون خلفه ، يتبركون به .

وكان يحتفل بعودة المحمل أيضاً ، عندما يتيسر للحجاج ، وأميرهم ، أن يعود .

ومن الأيام التى كان يبتهج فيها أهل القاهرة ، ويحتفلون بها ، ويشاركهم فى ذلك أهل المدن الأخرى ، يوم الرؤية . أى رؤية هلال رمضان . حيث كانوا يزينون بيوتهم بالأعلام ، ويضيئونها ، ليلا ، بالقناديل .

وكانت تقام ، فى القاهرة ، وفى غيرها من بلاد مصر ، فى بعض المناسبات ، مواكب تشبه المهرجانات ، التى تقام فى مدن أوربا المختلفة . مثل مهرجان الزهور ، والربيع ، والورد ، والقمح ، والتفاح ، وغيرها .

وكانت تقام فى أيام عامة ، معروفة ، وفى مناسبات يختارها الشعب ، ليظهر فيها ابتهاجه بما يحرك عاطفته . ويبرز شعوره ، نحو حادثة ، أو إنسان .

كان السيد عمر مكرم ، زعيم مصر . وكانت له مكانة تجعل أهل مصر كلها يرون فى أفراحه وأيامه ، ومواسمه الخاصة ، أفراحاً ومواسم للشعب كله . وفى يوم الإثنين السادس عشر من ربيع الأول سنة ١٢٢٤ (أغسطس ١٧٩٩) احتفل السيد عمر بختان ابن بنته . فأقام أهل القاهرة مهرجانهم الشعبى هذا . وسار فيه أرباب الحرف المختلفة ، يقودون عرباتهم وهى تمثل الحرفة ، أو العمل ، الذى تقوم به كل طائفة منهم . فيجيء أصحاب كل حرفة بعربة ، على هيئة مخصوصة يختارونها ويتسابقون فى زخرفتها وتزيينها بأنواع القصب ، والحرير الملون ، ويضعون على ظهرها أدوات صنعتهم ، أو تجارتهم . ومع هذه الأدوات ، الصانع . أو البائع ، كأنها حانوت متنقل . فتسير عربة ، مثلا ، عليها صانع حلوى ، بأوانيه ، وأكوابه ، وأدواته ، من الدقيق والسكر ، وغيره ، وهو يقوم بصناعته فوق العربة ، وهى تسير . ثم أخرى على ظهرها خياط يقص أثواباً ، ويخيطها . وأخرى عليها خباز ، بفرنه ، وعجينه . يصنع الخبز . وأخرى عليها بناء ، أو حداد ، بكوره ، ومطرقته ، وحديده ، الذى يطرقه ، ويطويه ، ويلينه . أو زيات ، أو عقاد يعقد الحرير . وكان الصيادون يصنعون عرباتهم على شكل قارب له شراع أو أكثر ، يسير على عجل ، وهكذا . وأمام كل عربة يسير أهل الحرفة التى تمثلها . ويخرج أهل القاهرة ليشاهدوا هذه المواكب الشعبية الجميلة ، ويروا فيها صورة مشرقة ، منسقة ، حسنة العرض ، من حياتهم العامة والخاصة . وكانوا يتسابقون ، من الصباح الباكر ، للجلوس فى الأماكن التى تمر بها هذه المواكب ، كما يفعلون الآن . ويدفعون ، فى الجلوس بها ، أجوراً غالية . ويلبس الناس ، من المتفرجين ، والسائرين فى المواكب ، أحسن ثيابهم ، ويظهرون فى أبهج زينتهم ، فقد كانوا يسمونه « يوم الزينة[1] » .

---

(١) بقيت هذه المواكب إلى وقت قريب . وقد رأيناها ، فى طفولتنا . فى مدينة قريبة من الإسكندرية ، تسير على هذه الصورة ، فى شوارعها .

وكانت هذه المواكب تمـــر بشوارع القاهرة ، وميادينها ، بين فرح الناس وابتهاجهم .

وفى يوم الخميس السابع من المحرم سنة ١٢٢٩ (٣٠ ديسمبر ١٨١٣) احتفل محمد على بقران ابنه اسماعيل ، بابنة عارف بك ؛ ابن خليل باشا ، وزفاف ابنته إلى محمد بك الدفتردار ، فأمر أرباب الحرف بإقامة هذا المهرجان . وقضوا أياما عدة فى تنظيمه وتزيينه ، وترتيب سيره . وكانت العربات التى اشتركت فيه ، ممثلة للحرف المختلفة ، إحدى وتسعون عربة . وقد اختار هذا اليوم ، ليشترك الأوربيون فى هذه الأفراح باشتراكهم فى عيد رأس السنة .

وبقيت هذه المواكب الشعبية ، من شروق الشمس إلى غروبها ، تشق القاهرة ، من الموسكى إلى باب الحديد ، إلى بولاق . وشاء الله ، أن ينزل مطر غزير فى ذلك اليوم ، والمواكب تسير فى وسط المدينة . وناهيك بمطر غزير ،فى شوارع القاهرة الضيقة ، المتربة ، فاختل النظام ، وابتلت العربات ، وما زينت به ، وأطفىء ما كان موقدا فوقها من أفران ، وأكوار . وسكت المغنون والعازفون ، ونزلت الراقصات ، والمغنيات ، من فوق العربات ، ولقى الناس من ذلك عناءاً شديداً ، تـكدر به صفوهم فى المهرجان وتلفت ثيابهم ، ووقع كثير منهم فى الماء والطين .

وهذه المهرجانات ، ليست لهواً ولعباً ، بل هى « معرض » متنقل ، يمثل الحياة الصناعية ، والإنتاجية فى البلاد . وهى منافسة فى العمل على تقدم هذه الحياة ، وازدهارها . وتذكير للناس بما فى وطنهم من صناعة ، حتى يعرفوها ، ويقبلوا عليها ، ويفـكروا فيها وهى منافسة ، أيضاً ، فى الإخراج ، والتنسيق وإبراز الزينة ، وتذوق الجمال ، وعرضه على جماهير الناس ، وتعويدهم إدراكه ، وحبه ، لتهذيب حسهم . وهى مواسم للتجارة ، والانتقال ، والسفر ، وكلها مظاهر للنشاط المفيد ، المنتج .

وهى ، بعد ذلك ، مباهج عامة للشعب ، تمـكن مابين أفراده من وشائج ، وتنمى مابين نفوسهم من روابط المحبة ، والتعاون ، والعمل . وتعودهم النظام .

وتدخل فى حياتهم الكادحة ، كثيرامن السرور ، والسعادة والبهجة .

ولكن أهل القاهرة ، لم يكونوا ، فى هذه الأيام التى ذكرها الشاعر ، ولا فى غيرها من هذه الأيام التى ذكرناها ، يكتفون بإظهار السرور ، والبهجة ، والفرح البرىء ، المقتصد .

بل كانوا يتجاوزن ذلك إلى نوع من الحرية والتطرف والشطط . لا يرعون فيه تقاليدهم الطيبة . ولا يلتزمون أوامر دينهم ، وما مكارم أخلاقهم . ولا حدود آدابهم ، فى التحفظ ، والتجمل ، والبعد عما يسقط المروءة ، ويستحى منه كرام الناس .

وكان أكثر ما يكون ذلك ، فى أيام جبر الخليج ، أو وفاء النيل ، كما أشرنا إلى ذلك ، منذ قريب . وكما نرى فى صفحات غير قليلة من الجبرتى . ملأها سخطا ، ومرارة ، وألما . لما كان يفعل الناس بأنفسهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم . وما كان فى حياة معاصريه ، من أهل القاهرة خاصة ، وغيرهم على العموم ، من الانحراف والتطرف ، الذين خرجا بهم عن الحد .

أخلاق الناس وآدابهم

فى صفحات غير قليلة ، وفى سنين متقاربة أو متباعدة . نرى مثل هذه الـكلمات التى يصور فيها الجبرتى مظاهر الحياة الأخلاقية فى عصره : — « كانت أيام هذا الشهر ، من أسوإ ، ما رأى الناس . بحيث لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات . فى غالب الجهات . لأجل امرأة ، أو أمرد[1] » .

أما تفصيل هذا الذى يجمله الجبرتى فى مثل هذه الـكلمات ، فهو شىء كثير ، وعجيب حقا .

وكان أعجب ما يجترأ عليه من ذلك أهل عصره ، يقترفه جند الدولة . وقوادها ، وأمراؤها أيضا . بل وبعض ولاتها كذلك .

يقول الجبرتى ، عند حديثه عن حروب محمد على فى الحجاز ، إن زوجة أحد المحاربين ، أسرت فى إحدى المواقع . فلما طلبها زوجها ممن وقعت فى يده . قال له : — سأردها إليك غدا ، بعد أن تبيت عندى هذه الليلة .

ويقول إن هذا الجند كانت معه ، عند سفره للحجاز ، صناديق المسكرات . وكان لا يسمع فى معسكراتهم أذان . ولا تقام فيه صلاة . وأن كثيرين من قتلى جند مصر فى هذه الحرب ، وجدوا غلفا ، غير مختتنين . ثم يروى عن بعض كبار هؤلاء الجند قوله « إن أكثر عساكرنا على غير الملة ، وفيهم من لا يتدين بدين . ولا ينتحل مذهبا » .

وفى رمضان ، من سنة ١٢٣٠ ، كان أكثر أتباع الدولة ، وكبار الجند ، مفطرين . يجهرون بذلك من غير احتشام ، ولا مبالاة . ويجلسون على الحوانيت ، والمصاطب ، يأكلون ، ويدخنون . ويأتى أحدهم ، وبيده « الشبك » فيدنى مجمرته من أنف مسلم صائم . وينفخ فيه دخانه ، على حين غفلة . ساخرا منه ،

(١) حديثه عن شهر صفر سنة ١٢١٩ . « ص ٣١٦ جزء ٣ »

هازئاً به . وحدث أن أدخل رجل من الجند امرأة فى مسجد الأشرفية ، وفعل بها الفاحشة فيه ، بعد صلاة الظهر ، فى رمضان ، من هذه السنة .

ويذكر الجبرتى قصة أخرى عن هؤلاء الناس من جند الدولة ، تتلخص فى أن واحدا منهم تعلق بغلام من أهل القاهرة . وصار يتبعه فى الطرقات ، حتى لقيه ليلة فى مكان قريب من جامع ألماس . فأمسك به ، يريد أن يغتصبه ، فى الطريق ، فتودد إليه الغلام حتى دخل به درب حلب المعروف بدرب الحمام ، وكانت فيه بيوت خربة . ثم جأه الغلام بموسى ، كان يخفيها ، فقطع بها عضوه . وتركه بين الحياة والموت . حتى جاء بعض رفقائه من الجند فحملوه . وكان ذلك فى رمضان .

وكانوا يمرون بشوارع القاهرة فى نهار رمضان . والقهاوى مقفلة . فيطلبون أصحابها ليفتحوها ، وليصنعوا لهم القهوة ليشربوها . فإذا أبى صاحبها ، أو اختفى منهم كسروها ، وعبثوا بما فيها من الآنية والأدوات . حتى يجىء لهم قهرا .

وكان يجتمع فى معسكراتهم الكثير من النساء المحترفات للبغاء . فينصبوا لهن الخيام . ويجىء بعد ذلك البائعون ، وفيهم بائعوا الحشيش . والغوازى والراقصون . وكثير من أهل الأهواء ، والفساق ، و «العيّاق» من أولاد البلد . فينصرفون جميعاً إلى شرب المسكر ، وأكل الحشيش ، والاجتماع بالنساء ، والغلمان . ولعب القمار ، جهاراً . فى نهار رمضان ولياليه .

ويختلط أهل البلد ، الفاسقون منهم ، بهؤلاء الجند ، يشاركونهم ذلك كله . وكان كبار الجند يفعلون ذلك ، أمام جندهم ، وأمام الناس . ويجهرون بذلك الإثم كله

يقول الجبرتى ، فى حوادث شهر رمضان سنة ١٢٢٤ ، إنه وصلت إلى القاهرة طائفة من جند الدلاتية[1] من ناحية الشام . وكانوا يصحبون معهم جماعة « من المخنثين المعروفين «بالخولات» . الذين يتكلمون بالكلام المؤنث . ومعهم «دفوف

---

(١) الدلاه ، أو الدلاتية ، جند من أكراد سوريا . ونجد وصفهم وأصلهم فى صفحة ٢٤١ من الجبرتى ، الجزء الرابع .

وطنابير » . ويقول عنهم ، فى موضع آخر ، من حوادث سنة ١٢٢٠ إنهم كانوا « يخطفون النساء والأولاد . بل يلوطون فى الرجال الاختيارية » أى كبار السن .

وفى شهر ذى الحجة من سنة ١٢١٧ اغتصب أربعة من الجند غلاما لحلاق ، فى خط بين السورين . فتصدى لهم هذا الحلاق ، فقتلوه . وذهبوا بالغلام إلى بيت لهم . وتكاثر الناس عليهم يريدون إخراج الغلام . وحضر كبير من الجند ليخرجه أيضا فضربوا رجاله بالرصاص حتى قتلوا منهم ثمانية . ولم يستطيعوا إخراج الغلام . أو أخذهم إلى الباشا . وفى اليوم التالى جاء الباشا بجنده إلى هذا البيت . فأخرجهم ، بعد معركة أخرى ، وقتلهم شنقاً . ولـكنهم وجدوا فى بيتهم أكثر من ستين امرأة مقتـولة . وفيهن من وجدوها وطفلها مذبوح معها ، فى حضنها .

(ويقول الجبرتى إن شر هؤلاء الجند ، كان لا يقف عند حد ، وقد وقع بالناس ، من ذلك ، بلاء عظيم . حتى حضروا من أطراف القاهرة ، ومن مصر القديمة ، إلى الأزهر يشـكون ويستغيثون . ويذكر الجبرتى أن جند الدلاة ذهبوا ، فى عهد ولاية أحمد باشا خورشيد سنة ١٢٢٠ ، إلى قليوب . فنهبوها ، وأخذوا نساءها وبناتها وصبيانها وباعوهم فيما بينهم . وحاربهم الفلاحون من أهلها حتى قتل منهم — من الفلاحين — أكثر من مئة)

(ونستطيع أن ندرك الآن . ما كان يلقاه أهل القاهره ، خاصة ، من بلاء ، على يد هؤلاء الجند ،وما كانوا يشيعون فيها من فساد ، وإثم ، وشر . إذا عرفنا أن عددهم كان ، قبيل قدوم الحملة الفرنسية ، إثنى عشر ألفاً . وكان سكان القاهرة إذ ذاك ثلاثمائة ألف)

وكان بعض الحـكام ، من المماليك ، يدفع الناس دفعاً إلى مقارفة هذه الرذائل . فهو يقول عند حديثه عن الأمير رضوان كتخدا الجلفى ، الذى مات سنة ١١٦٨ ، إن النساء تبرجن فى عهده ، وتظاهر الناس بالمعاصى حتى خرجوا عن الحد وكان عنع أصحاب الشرطة من التعرض لهم فيما يفعلون « فـكانت مصر ، فى تلك الأيام .

مراتع غزلان ، ومواطن حور وولدان ، كأنما أهلها خلصوا من الحساب ورفع عنهم التكليف والخطاب » .

أما أن بعض الولاة كان على هذا الحال ، فإنا نجد خبر ذلك فى حديثه عن مقتل على باشا الجزائرلى ، أو الطرابلسى . فقد تولى هذا الرجل ولاية طرابلس ثم خرج منها ، أو أخرج ، بالحرب . فلما ترك طرابلس أخذ معه غلامين جميلين من أبناء الأعيان، رهينة وقدم إلى مصر فتعرف إلى مراد بك وكسب صداقته . وأنزله مراد فى أحد قصوره بالجيزة . ثم ذهب على باشا إلى الحج ، فى سنة ١٢٠٧ وهناك التقى ببعض الحجاج من أهل طرابلس ، وهم يكرهونه ، وكان قد أخذ الغلامين معه إلى الحج ، فعرفهما الطرابلسيون ، وأنكروا ذلك إنكاراً شديداً ، وكبرعليهم. فذهبوا إلىأمير الحج ، وأبلغوه ذلك . وطلبوا إليه أن يخلص الغلامين من هذا الفاسق . فأرسل معهم أمير الحج بعض رجاله ، إلى على باشا، على حين غفلة . فوجدوه نائماً، ومعه أحد الغلامين . فسبوه ولعنوه . وقصوا لحيته ، وكانت ضخمة. وضربوه بالسلاح حتى جرح جرحاً بالغاً . وأخذوا منه الغلامين . ثم عاد إلى مصر فأقام فيها .

وقد اختارت الدولة هذا الرجل ، وهو مغربى ، من الجزائر ، والياً على مصر ، بعد ذلك بعشر سنين . فقتل فى بلدة القرين ، بالشرقية ، ودفن بها ، بعد أن تولى حكم مصر فترة قصيرة . وكان هذا الرجل ، إذا دخل عليه العلماء مد رجليه فى وجوههم وتعمد تحقيرهم .

وكانت للجند ، وللدلاة والأتراك منهم خاصة، شناعات أخرى، وقبائح كثيرة، شقى منهم بسببها أهل القاهرة وغيرهم شقوة عظيمة . فمن قبائحهم أنهم كانوا يقتسمون مع أصحاب المتاجر والدكاكين أرباحهم ، يزعمون أنهم يدخلونهم فى حمايتهم فلا يعتدى عليهم أحد . فيضع الجندى منهم شارة على طائفة من المتاجر والدكاكين ثم يقاسم أصحابها أرباحهم ، لأن هذه الشارة حماية لهم ، وكانوا يفعلون ذلك حتى على القهاوى ، وصالونات الحلاقة . كما كانوا يقفون على مداخل القاهرة ، فيشترون الفاكهة ، واللبن والجبن والحطب، وغيرها، من الفلاحين القادمين لبيعها.

فيشترونها منهم بأبخس الأثمان ، أو يأخذونها غصباً. ثم يبيعونها للناس فى داخل القاهرة بأغلى ثمن . وقد يأخذون منهم أموالا قبل أن يدخلوهم .

وكثيراً ما كانت تتأخر مرتبات الجند ومخصصاتهم . فكانوا يأخذون بأيديهم ما يشاءون من أموال الناس وأقواتهم . يذكر الجبرتى من حوادث جمادى الأولى سنة ١٢١٦ ، أى بعد خروج الفرنسيين ، ودخول الجند العثمانى ، يذكر أن طوائف العسكر عربدت بأسواق القاهرة ، وخطفوا أمتعة الناس . وما يبيعه البائعون من الشواء ، والفطير ، والبطيخ ، والبلح . وسببوا ذلك بأن « علائفهم » تأخرت . وكان هذا الأمر كثير الحدوث فى أوقات مختلفة .

وكان بعض الجنود يجلس فى بعض الحوانيت ، ثم يقوم ويعود بعد ذلك فيدعى ضياع نقوده أو شىء منه . ولا يترك الحانوت حتى يأخذ من صاحبه شيئاً .

وقد يدخل الحانوت فيختلس ما يستطيع اختلاسه . وبعضهم كان يشتغل باستبدال النقود الزائفة ، بالغش ، أو بالقهر والقوة وكانوا يعترضون النساء فى الأسواق والشوارع من غير حياء

وقد فشى فى وقت من الأوقات ، أمر حماية الجند لأصحاب المتاجر والحوانيت ، كما أشرنا منذ قليل ، واستطاعوا ، بفضل هذه الحماية ، أن يمتنعوا عن دفع الضرائب. وتأثرت بذلك أموال الدولة ، حتى عجز الوالى عن صرف مرتبات الحرمين والأوقاف والعلماء والأشراف والأرامل والأيتام ولم يجد الوالى على باشا بداً من التدخل فى سنة ١١٠٢ ، لأبطال هذه الحماية . ولكنها كانت تعود أشنع وأفحش مما كانت

وكان بعض الجند يبيع أصناف المأكولات ، والخضار . أو يفرض نفسه رئيساً على حرفة ، فيأخذ من طائفتها ما يشاء من الضرائب ، وعليهم أن يزيدوها فى ثمن البيع

وكان بعضهم يشترى الخراف ويذبحها ويبيع لحومها بالثمن الذى يفرضه ويزيد

فيه مايشاء . وينقص فى الوزن ، ولايستطيع أحد أن يعترض عليه أو يراجعه .

وفى سنة من حكم محمد على، قل وجود الحطب الرومى فى القاهرة حتى ندر، وغلا ثمنه . فـكان الجند القادمون من الصعيد يحملونه معهم إليها فيبيعونه لأهلها بأغلى ثمن .

وكانت لهذه الطوائف من الجند ، ويسميها الجبرتى دائماً « العسكر » ، عوائد يتفننون فيها لابتزال أموال الناس ، وخاصة فى الريف ، منها « الوجبة » .

والوجبة هى خروف ، أو فطيرة ، وقدتـكون مالا ، يفرضه الملتزم على الفلاحين ويتقاضاه منهم عند حضوره لجمع المال ، أو استيفاء الضرائب .

ومنها «حق الطريق» وهو مال يفرضونه على الفلاحين ، أجراً لهم على الانتقال إلى بلادهم وقراهم لأى أمر من الأمور ولوكان انتقالهم لجمع المال ، أو لأخذ الضريبة . وهم يقدرون حق الطريق هذا كما يحلولهم ، وقد يأخذونه أكثر من مرة

ومن عوائدهم « كراء الأسنان » . وكانوايسمونه « ديش كراسى [1] » وكراء الأسنان معناه أن أتباع الأمير ، أو الحاكم ، إذا كانوا معه فى مكان ، وجىء لهم بالطعام ، بعد أن يطعم أميرهم ، لايتقدمون إلى طعامهم حتى يعطيهم صاحب المكان مالا قبل أن يأكلوا .

يقول الجبرتى إن الشيخ عبد الرحمن السلمونى مباشر وقف السلطان الغورى ، أقام حفلا لزواج بنته ودعا بعض الأمراء وكبار الجند ، فلما أكلو ، ومد السماط لأتباعهم . أبوا أن يأكلوا حتى يأخذ كل منهم عوائده من كراء الأسنان .

فلم يسع الشيخ السلمونى إلا أن أعطا كل واحـد منهم ريالا ، وكانوا خمسة وأربعين

وكانت لهم عادة أخرى اسمها « الجمعية » .

فقد كان من عادة المختصين بخدمة الوالى ، ونائبه أن يخرجوا فى كل يوم من

---

(١) ديش بالتركية أسنان . وكراسى . أى كراء ، أو أجر .

أيام الجمع ، وقد لبسوا أحسن ثيابهم ، فينتشرون فى أنحاء القاهرة يطوفون على بيوت الأعيان والسراة ، وكبار القوم . ليطلبوا منهم « البقشيش » . ويسمون ذلك « الجمعية » .

وكان من عادة الناس أن يجلسوا فى مكان ظاهر من بيوتهم فى ذلك اليوم . وعند ذلك يمرون بهم ثم يقفون ، وفى أيديهم العصى المفضضة ، فيعطيهم صاحب البيت مايرجون . وقد يمر غيرهم ، وغيرهم ، فيعطيهم . لأنهم كانوا يرون ذلك فرضا واجبا . ويقول الجبرتى إن هذه « الجمعية » ثقلت على الناس حتى كان بعضهم يظل داخل منزله فى ذلك اليوم ، أو يتركه . بسببها . فأبطل محمد على هذه العادة . وكف خاصته ورجاله عنها .

وكانوا يفعلون بأهل الريف الأفاعيل . يذهبون إليهم بأوراق مكتوبة باللغة التركية ، فيوهموهم أنها تتضمن تخفيفاً عنهم فى الضرائب ، أو المال . ويطلبون لذلك « حق الطريق » مالا عظيما ويأخذونه . ثم لا يكفيهم ذلك . بل يسلبونهم مواشيهم . وقد يحبسون كبارهم وشيوخهم حتى يدفعوا فوق ذلك مايطلبون . ثم يظهر آخر الامر أن هذه الأوراق من مخترعاتهم وصنع أيديهم . وكانت القاهرة كثيراً ما تمتلىء بهؤلاء الفلاحين الذين هاجروا من قراهم وبلادهم فرارا من ظلم هؤلاء الجند .

وكانوا يسلبون من ينفردون به من الناس ، فى أطراف القاهرة ، ويقتلونه . ويستأجرون الحمير من أصحابها ليركبوها إلى خارج المدينة ، ثم يقتلون المكارى ويذهبون بحماره إلى السوق فيبيعوه .

ويقول الجبرتى إن هذه القبائح والشناعات زادت من « العسكر » العثمانى بعد دخولهم القاهرة وخروج الفرنسيين « حتى تمنى أكثر الناس ، وخصوصا الفلاحين ، أحكام الفرنساوية » .

وكانت فرق العسكر المختلفة يقاتل بعضها بعضاً ، فى داخل القاهرة . ويقع منهم القتيل والجريح . ويجد الناس وأصحاب المتاجر من ذلك بلاء شديدا وشقاء بالغا . وكثيرا ما كانوا يقتلون غريمهم ، ويلقون جثته فى طرقات القاهرة زمنا

قد يصل إلى ثلاثة أيام ، تظل فيها تطؤها أقدام الناس ولا تدفن .

وفى وصف الجبرتى لجبر الخليج من سنة ١٢١٩ دلائل محزنة على ما بلغه ظلم الجند وعسفهم واستهتارهم بجميع القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية . وتلخيص هذا الوصف أن الوالى — أحمد باشا خورشيد — نزل لكسر البحر ، ومعه القاضى ومحمد على وكبار العسكر . ولم يحضره أحد من المصريين فلما جرى الماء فى الخليج ركبوا فيه زوارقهم تسير بهم على الماء ، وهم يطلقون الرصاص من بنادقهم ، فقتل من رصاصهم عدد من الناس ، رجالا ونساء ، ثم نزل كبار العسكر من زوارقهم فدخلوا بيوتهم على الخليج ، ومعهم نساء ، من سيئات السيرة .

وجاء جماعة من المصريين ليأخذوا قتيلا لهم ليدفنوه . فمنعهم كبار الجند ، الذين قتلوه ، من أخذه ، حتى يدفعوا لهم ثلاثة آلاف درهم فضة . ولم يستطع أهل القتيل أخذ جثته حتى دفعوا لقاتليه ألفاً وخمسمائة درهم . وكذلك فعلوا بمن جاء بعدهم ليوارى جثث قتلاه . وكانت امرأة تطل من نافذة لترى ذلك ، فصوّب كبير من العسكر رصاصة إلى رأسها فصرعتها .

وفى شعبان من نفس السنة تهدم حمام على من فيه ، ومات تحت أنقاضه ثلاث عشرة من النساء والأطفال والبنات . وخرجت الباقيات عرايا ينفض التراب عن جسومهن . فجاء كبار العسكر ليمنعوا أصحاب القتلى من نقل قتلاهم ، حتى يدفعوا دراهم ، وليأخذوا ثياب النساء من تحت الأنقاض .

وقد بلغت أخلاق السادة من الناس ، حتى القضاة ، حدا جعل شاعرا يقول ، فى قاضى القضاة ، هذا الشعر : —

فى مصر ، من القضاة ، قاضٍ ، وله فى أكل مواريث اليتامى ، وله
إن رمت عدالة فقل ، مجتهداً من عدّله درهمـــا ، عَـــدَله

ومن الطبيعى أن يكون لذلك كله أثره فى حياة الناس . ورخائهم وأمنهم وخاصة إذا لم يف ماء النيل ، أو حل بالناس وباء فنحن عند ذلك نجد هذه الصورة التى رسمها الجبرتى عن حياة أهل القاهرة ، فى شعبان سنة ١٢٢٥

«وفى هذا الشهر خرج المشايخ والناس إلى جامع عمرو ، وأرسلوا فجاءوا بالأطفال من مصر وبولاق، وخطبوا وصلوا ليرفع الله البلاء عن الناس، وليزيد ماء النيل . ولم يجد المجتمعون مايأكلونه ، وأضر بهم الجوع » .

وهذه الصورة عن حياة المصريين كاهم فى سنة ١١٩٨ [١٧٨٣ ، ١٧٨٤] م

فهو يقول فى ختامها إنها « انقضت ، كالتى قبلها ، فى الشدة والغلاء ، وقصور النيل ، والفتن المستمرة ، وتواتر المظالم والمصادرات ، وانتشار الجباة فى كل النواحى لجمع المال حتى هلك الفلاحون وضاق ذرعهم واشتد كربهم ورحلوا عن بلادهم أما مساتير الناس ، فقد باعوا دورهم ومتاعهم ومواشيهم . ومن ظن عنده شىء من المال أخذ وحبس وطولب بأضعاف مايقدر عليه . وتوالى طلب السلفة من التجار عن الضرائب المقبلة . فزادوها على أثمان بضائعهم ، ثم مدوا أيديهم إلى المواريث ، فإذا مات أحد أخذوا ماله وكل ماعنده سواء ترك وارثاً أم لم يترك ، وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس فى نظير مال يدفعونه فى كل شهر فلا يعارضهم معارض فيما يفعلون .

وحل بالناس مالا يوصف من أنواع البلاء . وفسدت النيات ، وتغيرت القلوب . ونفرت الطباع . وكثر الحسد والحقد فى الناس بعضهم لبعض . فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى بها إلى الظالم . حتى خربت الأقاليم، وانقطعت الطرق ، وعربدت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ، ومنعت السبل ، إلا بالحراسة والمجازفة . وترك الفلاحون بلادهم من الفقر والظلم ، وانتشروا فى القاهرة ، بنسائهم وأولادهم ، يصيحون من الجوع ، ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الكناس شيئاً يكنسه . واشتد الحال حتى أكل الناس الميت من الخيل والجمال والحمير . فإذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه ، ومنهم من يأكله نياً من شدة الجوع . ومات كثير من الفقراء من الجوع » .

وكذلك نجد هذه الصورة عن حياتهم فى سنة ١٢٠٣ .

وجهوا إلى الناس فى الأرياف قساة المحصلين لأخذ الأموال قبل أوانها .

فكان المحصلون يدهمون الفلاحين فى بيوتهم ، ومعهم العدد الكثير من العسكر ببنادقهم وأسلحتهم . فيشاغلونهم ، ويلاطفونهم بالإكرام ، فلايزيدهم ذلك إلا قوة وغلظة . ويطلب منهم الفلاحون تأخير المال فيسمعونهم فحش القول . والشطط فى فرض « حق الطريق » . وقد يدخلون الدار وليس فيها سوى النساء . فيقع منهم الشر الكثير . حتى تفر النساء من الحيطان والنوافذ .

وكانوا يوقفون كل سفينة تسير فى النيل . فيخرجون ما فيها . وقد ينهبونه كله ، أو يفرضون على أصحابها ما يشاؤون من المال . وكان زعيمهم فى ذلك ، مصطفى كاشف ، يجلس فى قلعة طرا فيجيئه أصحاب هذه السفن ، وأصحاب البضائع التى تحملها فيدفعون له ما يشاء من مال . حتى لا ينهب رجاله سفنهم وأموالهم .

ويقول الجبرتى إن أنباء هذه الاستباحة للبلاد ، ذاعت فى الأقطار التى يفد منها الجند والماليك . فكثر فى ذلك الوقت قدومهم إلى مصر . ونشط تجار الرقيق لتسهيل رغبتهم فى الحضور للقاهرة . والالتحاق بخدمة رجال الدولة فيها ، ليشاركوهم فى نهب هذا المال المستباح .

ويقول أيضاً أن القرى كانت ، فى بعض السنين ، تكاد تقفر من أهلها . وأن بعض القرى كان أهلها يدفعون عن الفدان الواحد ، من المصاريف ، والأموال والمغارم ، أربعة آلاف نصف . مع أن الخراج المفروض عليها لا يزيد عن مئة وعشرين . ونجد فى فصول أخرى من الكتاب ، وفيما سجلناه من عصر محمد على خاصة ، مظاهر أخرى ، مما كان يقع بالناس من ظلم وعسف وقسوة .

ومن طريف ما سجله الجبرتى ، فى حوادث شعبان ١٢١٦ ، أنه بينما كان جند الدولة ، وكبارها يفعلون ذلك بأهل مصر ، أرسل السلطان « فرمانا » شريفا إلى عرب البحيرة ، يثبتهم فيه على بلادهم ، ويقرر لهم فيها مزايا ، ثم يشترط عليهم فى مقابل ذلك هذه الشروط : « أن يوفوا بعدم التعدى وإيصال الرزية والمضرة ولو بمقدار ذرة ، إلى الرعايا . وديعة خالق البرايا ، فإن وقع منهم أقل ظلم للعباد ، أخرجوا من ديارهم . بعد أن تسلب أموالهم . ويتلاشى حالهم حتى يصيروا لاعين

ولا أثر ، ولا مخبر ولا خبر . ولا معالم ولا معاهد . ولا مشارع ولا موارد .
تأخذهم صاعقة العذاب الهون . ويحل بهم من البلاء ما لا يطيقون ..! »

وقد سجل الجبرتي هذا الفرمان الشريف بنصه ، رغم طوله . ونقلنا منه هذه السطور بنصها أيضاً .

وليس من الأمانة ، ولا مما يتفق مع واقع التاريخ ، أن نقول إن مقارفة هذه الرذائل ، أو بعضها ، كانت مقصورة على الجند والقواد والأمراء ، أو الولاة .

فالقول بذلك مما يجافى الحق . ويجانب ما سجله الجبرتي عن أخلاق الناس وآدابهم فى ذلك الزمن .

وكذلك لم يكن هذا المستوى من الأخلاق والفضائل ، قاصرا على أهل القاهرة وحدهم . بل نجد أشياء من ذلك فى غيرها من المدن .

فقد انتقلت عدوى هذا الظلم والاستهتار من العثمانيين ، والعسكر ، إلى العرب . فى رمضان من سنة ١٢٠٢ ، وكان مراد وإبراهيم ينازعان إسماعيل بك الحكم ، خرج العرب على قافلة التجار والحجاج القادمة من السويس . فنهبوا ما فيها من المال ، وكان شيئاً كثيراً ، منه ستة آلاف جمل محملة بالبضائع . وسلبوا متاع الحجاج وملابسهم . وأخذوا نساءهم فمرّوهن عن ثيابهن ، ثم باعوهن لأصحابهم عرايا .

أما ما نجده عند غير الجند ، والقواد ، والأمراء ، والولاة ، والأعراب ، من مثل ذلك ، أو ما هو منه قريب ، فنكتفى فيه ، إلى جانب ما ذكرنا ، بذكر حادث رواه الجبرتي فى حوادث سنة ١١٩١ وسماه « حادثة الشيخ صادومة » .

الشيخ صادومة

كان الشيخ أحمد صادومة رجلا شيخا . له شيبة وهيبة ، وأصله من مدينة سمنود . وكانت له شهرة عظيمة فى الروحانيات ، وتحريك الجمادات ، ومخاطبة الجن ، وإظهارهم لمن يريد أن يراهم ، وللناس فى شأنه اختلاف . وكان الشيخ حسن الكفراوى . العالم الكبير صاحب المؤلفات ، ومفتى الشافعية ، وشيخ مسجد أبو الذهب ، صديقاً حميما للشيخ صادومة ، كبير الاعتقاد فيه . دائم الذكر له والثناء

عليه ، عند الأمراء ، وخاصة عند صديقه محمد بك أبو الذهب . حتى قربه هذا الأمير وأحبه . واتفق أن اختلى أبو الذهب بحظية له ، فرأى على سوأتها كتابة . فسألها عن ذلك ، وأخافها بالقتل ، فأخبرته أن امرأة ذهبت بها إلى الشيخ صادومة ، حيث كتب لها ذلك ، ليحبها سيدها . فأرسل أبو الذهب جنده إلى الشيخ حيث جاءوا به ، فقتله ، وألقاه فى النيل .

وأخرج ما فى بيته من أشياء ، فكانت منها تماثيل . وفيها تمثال من قطيفة ، على هيئة عضو الرجل . فكان أبو الذهب يضع هذه التماثيل إلى جانبه إذا جلس إلى الناس ويأخذ منها هذا التمثال من القطيفة ، فيرفعه إلى أعين الجالسين ، وهم يتعجبون ، ويضحكون . وهو يقول لهم : انظروا أفاعيل المشايخ ..! ثم عزل الشيخ الكفراوى عن إفتناء الشافعية وعن مشيخة مسجده ، بسبب صداقته الحميمة للشيخ صادومة وثنائه عليه .

شيخ مدينة بنها

وأما فى غير القاهرة ، فنذكر قصة هذا الرجل ، الذى ظهر فى مدينة بنها سنة ١٢٢٢ .

كان اسمه الشيخ سليمان ، بدأ أمره بأن أقام زمنا فى عشة بناها فى المزارع . فاعتقد فيه الناس الصلاح والولاية ، والجذب . واجتمع إليه كثير من أهل القرى ، وكان أكثرهم من الأحداث . ونصبوا له سرادقا كبيراً ، كانوا يملأونه بالنذور ، والهدايا ، يرسلون بها إليه . وصار هو يكتب إلى الناس فى البلاد المجاورة ، يطلب منهم القمح والدقيق . فيبادرون بإرسال ما يطلب . ثم انتقل الشيخ بعد ذلك بدعوته إلى ناحية أخرى . وصبغها بصبغة عامة . فأطلق رجاله يقولون للناس إن المماليك ، والحكام . قوم ظالمون . فلا تعطوهم شيئاً ، ولا تطيعوا لهم أمراً . ولا تدفعوا لهم ضرائب . ومن جاءكم من رجالهم فاقتلوه . فإنه لاظلم اليوم . وسمع الناس دعوة الشيخ وأطاعوها . فكلما جاءهم الجند ، أو رجال الدولة لمال ، أو لشىء . زجروهم ، وطردوهم . وإن عاندوا قتلوهم . حتى ثقل أمره على حكام ذلك الإقليم .

ولـكن الشيخ ، انحرف واشتط . عنـدما رأى نجاح دعوته . وقوة أمره . فظهر منه ما كان خافياً . فقد بدأ يتطلع إلى الأحداث من الغلمان . ويستجلبهم ، ويطلب قدومهم إليه . حتى اجتمع لديه منهم مئة وستون . أسكنهم سرادقاته . وكان كثير منهم أبناء مشايخ البلاد وأعيانها . وكان إذا علم أن فى بلدٍ غلاماً وسيما ، أرسل يطلبه ، فيحضروه إليه فى الحال . ولو كان أبوه عظيم البلدة . حتى صاروا يجيئون إليه من غير طلب . واجتمع إليه ، عداهؤلاء المئة والستون من الغلمان ، كثيرون من ذوى اللحا . ووضع هذا الشيخ عقوداً من الخرز الملون ، فى أعناق الغلمان ، وأقراطاً فى آذانهم . كما يفعل الناس بالفتيات والبنات .

وقامت فى ذلك الوقت مشكلة بين شيخ من شيوخ الأزهر ، اسمه الشيخ عبد الله زقزوق البنهاوى ، وبين حـكام القليوبية بسبب نزاع على أرض يدعيها الشيخ . وظن الشيخ ، كما يقول الجبرتى ، أنه سينال ماريد « بقال المصنف ، إكراما لعلمه . » ولـكنه لم ينل ما يدعيه . وشكا أمره إلى محمد على ، وإلى نائبه ، ولـكن العلماء الذين طلب إليهم محمد على أن يبحثوا شكواه ، لم يجدوه على حق . فقدم هذا الشيخ إلى بنها ، واتصل بالشيخ أحمد . وزين اليه أن يهبط القاهرة ، وأن يلتقى بعلمائها وأهلها . فهم لا بد أن ينصروه . وقد بلغتهم دعوته ، وسمعوا بكراماته ، وله فى نفوسهم منزلة عظيمة . ورأى الشيخ أن يفعل ما أشار به صاحبه . فجمع رجاله ، وغلمـانه ، ومعهم طبول ، وكاسات . وسار حيث دخل القاهرة على حين غفلة . وكان رجاله يحملون فى أيديهم « الفرقلاّت » يفرقعون بها وهم يسيرون فى شوارع القـاهرة ، ولهم صياح وضجيج . ومن خلفهم الغلمان . وشيخهم فى وسطهم . وسار هذا الجمع حتى دخل المسجد الحسينى . ودخل بعض منهم منزل السـيد عمر مكرم . وهو يفرقع « بالفرقلة » . وبقى حالهم على ذلك إلى العصر . وكان رجل من كبار الجند ، اسمه إسماعيل كاشف أبومناخير ، يعرف الشيخ ، ويعتقد فى ولايته . فذهب به ومن معه إلى بيته ، حيث أطعمهم واستضافهم . وفى الصباح ركب الشيخ بغلة الـكاشف وذهب بطائفته إلى ضريح الإمام الشافعى حيث جلسوا يذكرون .

وعند ذلك وصل خبره إلى نائب محمد على ، فأرسل إلى السيد عمر مكرم يرجوه أن يرسل إليه الشيخ ، ليتبرك به . وعرف السيد عمر أن الكتخدا يضمر للشيخ السوء . فأرسل إليه من يحذره . وقدم الكتخدا وكبير من رجاله إلى بيت السيد عمر ، فقال لهما إنه أرسل إلى الشيخ من يحضره فلم يلحق به . وأراد كبير من الجند أن يمسك بالشيخ ورجاله وغلمانه ، فى مسجد الامام الشافعى ، قبل أن يخرج منه . ولكنه خشى مغبّة اقتحامة .

وانتهى الأمر بالشيخ إلى الهرب . وتفرق عنه الملتحون من رجاله . أما الغلمان فيقول الجبرتى إن الجند قبضوا عليهم ، وأخذوهم إلى دورهم . ولم ينج منهم إلا من كان هرب . ولما وصل خبر هذا الذى جرى على الشيخ وجماعته ، إلى الشيخ زقزوق ، تبرأ منه . وذهب إلى نائب محمد على تائباً .

وكانت نهاية الشيخ أحمد البنهاوى أن جاء به نائب محمدعلى ، وأمر طائفة من الجند فأخذوه ، وأربعة بقوا معه من أتباعه ، وذهبوا بهم إلى بولاق ، فقتلوا الشيخ ، وألقوه فى النيل . وألقوا رفقاءه الأربعة فيه أيضاً . ولكن واحداً منهم ، استطاع أن يسبح إلى البر وينجو .

وقد حفظ لنا الجبرتى كثيراً من هذه الصور ، ومثلها ، وسجل بها حياة الناس ، كما هى ، وأخلاقهم ، وآدابهم . وكان ، وهو يدون ذلك ، يسجل ، إلى جانبه سخطه وغضبه ،وكان يبلغ به السخط ، مما يرى ويسمع ، حدا كبيراً . حتى قال مرة إن الإسلام نفسه ، منتف عن كثير من أهل ذلك العصر . والإسلام ، عنده ، حين يقول ذلك ، قرين الفضائل والآداب والخلق الكريم . ولا سبب غيره لوجودها فى نفوس الناس .

الموالد

ويسوقنا الحديث عن الشيخ أحمد البنهاوى ، وقد كان يدعى التصوف والولاية ، إلى ذكر ما سجله الجبرتى ، مما كان يفعله أمثال هذا الشيخ ، فى الموالد .

كان القاهريون، وغيرهم، يحتفلون، كما يحتفلون الآن، بمولد الحسين، والسيدة زينب، والإمام الشافعي، والسيدة نفيسه. وكثير غيرهم من الأولياء والصالحين. كما يحتفلون جميعاً بمولد السيد البدوي في طنطا، والسيد إبراهيم الدسوقي في دسوق.

ولنتخذ مولد الحسين مثلا لما كان يجري في غيره من الموالد.

فالجبرتي يتحدث في الجزء الرابع من كتابه عن نشأة الاحتفال بهذا المولد. فيقول إن هذا المولد ابتدعه مباشر لوقف المسجد الحسيني كان يسمى السيد بدوي ابن فتيح. أصابه مرض. فنذر؛ إن شفاه الله، أن يقيم هذا المولد. وكان المولد، أول الأمر، هو إضاءة المسجد، وقبته، بالقناديل، والشموع. وترتيب فقهاء يقرءون القرآن نهاراً، ويتدارسونه. وآخرون يقرأون، ليلا، دلائل الخيرات. ثم تغير الحال، وانضم إلى الفقهاء كثير من الجهلة، وأهل البدعة. فمنهم من يقيم حلقات الذكر، ويردد اسم الله، محرفاً. وينشد له المنشدون القصائد والموالات. ومنهم من يقول أبياتاً من بردة البوصيري، في مدح النبي عليه السلام، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة الصلاة على النبي. ومنهم جماعة، من المغاربة، يجلسون صفين متقابلين، وينطقون، بلغتهم، كلاما معوجاً بنغم خاص، وطريقة جروا عليها. وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها، على قدر النغم، ضرباً شديداً. مع ارتفاع أصواتهم.

وتقف جماعة أخرى مقابلة لضاربي الدفوف واضعين أكتافهم في أكتاف بعض، لا يخرج واحد عن الآخر، يتلوّون وينتصبون. ويرتفعون وينخفضون. ويضربون الأرض بأرجلهم. كل ذلك مع الحركة العنيفة، والشدة الزائدة، بحيث لا يستطيع ذلك إلا كل من عرف بالأيد والقوة. وهذه الإيقاعات، والحركات، تجرى على نمط الضرب بالدفوف. فيقع بالمسجد من هذا كله، ضجيج كبير، ودوى عظيم. وإلى جانب هؤلاء كثير من الفقراء، والمنشدين، كل له طريقته، ونشيده. ثم يقول: — « هذا مع من ينضم إلى ذلك من جمع العوام؛ وتحلقهم بالمسجد، للحديث والهذيان. وكثرة اللغط والحكايات، والأضاحيك. والتلفت إلى حسان الغلمان، الذين يحضرون للتفرج. والسعي خلفهم، والافتتان بهم.

ورمى قشور اللب ، والمكسرات ، والمأكولات فى المسجد . وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه ، وسقاة الماء . فيصير المسجد ، بما اجتمع فيه من هذه القاذورات ، والعفوش ، ملتحقاً بالأسواق الممتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وكان يجتمع إلى هذه الموالد ، العامة ، والسوقة ، وأهل الحرف السافلة ، ومن لا يجد ما يأكله . يحملون القناديل ، والشموع ، والطبول ، والزمور . وينطقون بكلام محرف يظنون أنه ذكر ، وتوسلات يثابون عليها . فإذا اعترضهم معترض . أو تصدى لهم لائم ، رموه بالاعتزال والخروج والزندقة . ثم يمضون ليلتهم ساهرين فإذا أصبح الصبح ، عجز كل عن أداء عمله .

ويقول الجبرتى إن هذا المولد ، استمر الاحتفال به عشر سنين ، وناذره ، السيد بدوى فتيح ، لم يزدد إلا مرضا ومقتا ثم بطلت إقامته عندما دخل الفرنسيون القاهرة . ولكنهم ، بعد ذلك ، أمروا بإقامته . « لأن ذلك يوافق هوى العامة . لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة . وتلك هى طبيعة الفرنساوية » .

ومن الذين ترجم لهم الجبرتى من أصحاب الأضرحة والموالد ، الشيخ على البكرى . ويعرفه سكان القاهرة ، كما يعرفون مولده ومسجده بالقرب من جامع الرويعى . وكان السيد على البكرى ، كما يصفه الجبرتى ، رجلا أبله ، يمشى عريانا فى الطريق ، مكشوف الرأس والسوءتين ، غالبا ، وكان له أخ صاحب دهاء وحيلة . وكان دائم المنازعة والخصومة لأخيه الشيخ . ثم بدا له فيه أمر . فقد وجد الناس ، على عادة أهل مصر ، يعتقدون فى أخيه الولاية والكرامة ، ويلتمسون منه البركة . فحجر عليه ، ومنعه من مغادرة البيت ، وألبسه ثيابا . وأظهر للناس أنه قد أُذن للشيخ بلبس الثياب لأنه تولى قطبا . وتكاثر الناس ، وخاصة النساء ، يسعون إلى بيت الشيخ والتبرك به ، والإصغاء إلى ألفاظه وتخليطاته ، وتأويلها بما يلائم رغبة نفوسهم . وتكاثرت مع هؤلاء المريدين والزائرين ، الهدايا والنذور والأموال وكان أخوه ، صاحب الدهاء والحيلة ، يذيع فى الناس من كرامات الشيخ ومعرفته أسرار النفوس ما يشاء .

وامتلأ بيت الشيخ وأخيه بالأموال والخيرات. وزاد جسم الشيخ ، كما يقول الجبرتى، ضخامة ،من كثرة الأكل والفراغ والراحة، حتى صار «مثل البوّ العظيم» ! وظل هذا حال الأخوين حتى مات الشيخ سنة ١٢٠٧ فأقام له أخوه ضريحا ومقاما، وزاد فى ذكر كراماته وفيوضاته ، وخصص له المقرئين والمنشدين والمداحين ، يشيدون بولايته وقطبانيته ، ويذكرون أوصافه فى قصائدهم، وهم« يتواجدون ويتصارخون، ويمرّغون وجوههم على شباكه وأعتابه ؛ ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ، ويضعونه فى جيوبهم وعبهم » وهذا الشيخ البكرى هو الذى قال فيه البدرى الحجازى قصيدته التى ذكرناها من قبل ، والتى يقول فيها : —

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كلّ ذى جنة ، لدى الناس ، قطبا

ولم يكن الشيخ من أسرة البكرى . بل جاءته هذه النسبة لأنه كان يسكن فى سويقة البكرى .

الشيخة أمونة

وعندما كان الشيخ على البكرى يمشى فى الطرقات عريانا ، قبل أن يحجبه أخوه ، تعلقت به امرأة تسمى الشيخة أمونة . وصارت تسير خلفه أينما سار ، وهى تلبس إزارا . وأخذت هى الأخرى تخلط فى ألفاظها عندما تدخل معه إلى بيوت الناس . واعتقد الناس أيضا فى ولاية الشيخة أمونة، وأسرعوا إلى مهاداتها بالمال والملابس ، وقالوا إن الشيخ لحظها وجذبها فصارت من الأولياء ، وزاد ذلك من تطرفها ، فنزعت ثياب النساء ولبست ملابس الرجال . وصارت ظلا للشيخ . لا تفارقه أبدا وكلما سارا تبعهما الأطفال والعوام ، ومنهم من اقتدى بهما فنزع ثيابه «وتحنجل» فى مشيته وكل من فعل ذلك قال الناس إن بركة الشيخ مسّته فجذبته. وزاد الحال ، وفشى أمر الشيخ والشيخة حتى كان يسير خلفهما جمع كبير من أوباش الناس والصغار ، وصاروا ، عندما يمرون بالأسواق ، يخطفون ما يحلوا لهم من شىء . ولهم فى سيرهم ضجة عظيمة . فإذا جلس الشيخ فى مكان، إجتمع حوله خلق عظيم ،ووقفت أمونة على درج دكان ،أو مرتفع من الأرض ،تتكلم بفاحش القول ، بالعربى ، والتركى . والناس يصغون ، يقبلون يدها ويتبركون بها .

ومر هذا الموكب أمام بيت رجل من المماليك ، يسمى جعفر كاشف . فغاظه وهاله ، فقبض على الشيخ والشيخة ومن حولهما من المجاذيب . أما الشيخ فقد أدخله بيته فأطعمه، ونحّى الناس عنه ثم أطلق سراحه . وأما المجاذيب فقد حبسهم وضربهم ضربا شديدا، حتى تابوا ، واستفاقوا ؛ ولبسوا ثيابهم ، وعادت لهم عقولهم . وأخرج الشيخة من محبسها إلى المارستان ، فبقيت فيه زمناً مع المجانين · ويقول الجبرتي إنها خرجت بعد ذلك بسنين « فصارت شيخة على انفرادها . ويعتقدها الناس والنساء . وجمعت عليها الجمعيات والموالد » .

وهذا الذى كتبه الجبرتي؛ عن إقامة الموالد ، وما كان يقع فيها من المنكرات. هو من المواطن القليلة التي خرج فيها عن مجرد السرد ، والتدوين ، وتسجيل الحوادث ، إلى إبداء الرأى والتعليق بالنقد أو الاستحسان . وهو ، في نقده هذا ، يدل على أنه عالم لا يخضع لهوى العامة ؛ ولا يسكت على بدعة .

ثم يسوقنا الحديث عن مدعى التصوف والولاية ، مرة أخرى ؛ إلى ذكر هذه القصة الطريفة عن عنز الشيخ عبداللطيف . وفيها نجد صورة من مستوى أفهام الناس في ذلك العصر ، وأخلاق بعض المنتسبين إلى الدين . كما نجد صورة من صور الحاكم الجرىء ، الحازم وهذه هى القصة :

الشيخ والعنز

يذكر الجبرتي من حوادث سنة ١١٧٣ أن خدم مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة ، اختلفوا فيما بينهم في أمر العنز .

ذلك أن هؤلاء الخدم ، وكبيرهم الشيخ عبد اللطيف ، أظهروا للناس عنزاً صغيرة ، وألفوا حولها قصة ، خلاصتها أن جماعة من المسلمين الذين يحاربون في بلاد الكفار ، وقعوا أسرى في أيديهم ، فنذروا لله إن أخرجهم من الأسر ، أن يذبحوا عنزا يوزعون لحمها صدقة . بعد أن يجتمعوا حولها ليلة يذكرون الله ويدعون ويتوسلون. وجاؤوا بهذه العنز الصغيرة ليبيتوا ليلتهم حولها يذكرون ، وتوسلوا بالسيدة نفيسة لينجوا من أسرهم ، فعلم «الكافر» الذى أسرهم بما عزموا عليه ، فزجرهم

وسبهم ، ومنعهم من ذبح العنز ، فلما بات ليلته تلك ، رأى فى نومه رؤيا مزعجة هالته ، فلما أصبح الصباح أعتق أسراه وأعطاهم دراهم ، وصرفهم مكرمين ، فركبوا مركباً وقدموا مصر ، ومعهم العنز ، وقصدوا مسجد السيدة نفيسة . ونسج الشيخ عبداللطيف، ومن معه من خدم المسجد، هالة عظيمة من المجد حول تلك العنز ، ونسبوا إليها الكرامات ، فقالوا إنها تصعد وحدها إلى منارة المسجد ، وتدخل مقام السيدة، تفعل ذلك وهم يدخلونها حجرة مقفلة ليلا ، فإذا أصبحوا وجدوها حيث تشاء ، فوق المنارة ، أو داخل المقام ، وقالوا إنها ، العنز ، تتكلم ، وأنهم سمعوها بآذانهم ، وأن السيدة نفيسة تكلمت وأوصت بها ، بالعنز ، خيراً . وأن الشيخ عبد اللطيف سمع كلامها من داخل القبر .

وأخذ الشيخ عبد اللطيف هذا ، شيخ المسجد النفيسى ، يبرز العنز للناس ، ويجلسها بجانبه ، ويقول للناس فيها ما يقول ، حتى صارت حديث القاهرة كلها ، وأقبل النساء والرجال من كل فج لزيارة تلك العنز ، يأتون إليها بالنذور والهدايا . فقال لهم الشيخ إن هذه العنز المباركة ، لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، وتشرب ماء الورد ، والسكر المكرر ، فأتوه من ذلك بالقناطير ، وعمل النساء للعنز قلائد الذهب ، والأطواق والحلى . يسارعن بها إلى الشيخ . وافتتن الناس بها فتوناً شديداً ، وشاع أمرها فى بيوت الأمراء وأكابر النساء ، فأرسلن ، على قدر مقامهن ، النذور والهدايا ، وذهبن لزيارتها ومشاهدتها ، وازدحمن عليها . ومن لا يسمح لها مقامها بالذهاب لها ، أرسلت للشيخ الهدايا العظيمة ملتمسة زيارة العنز لها .

فلما وصل ذلك كله إلى سمع عبد الرحمن كتخدا ، كبير الأمراء المصريين فى ذلك العهد ، أرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه أن يحضر ومعه عنزه المباركة، ليتبرك بها هو وأهل بيته ، فركب الشيخ بغلته ، وعنزه فى حجره ، ومعه طبول وزمور وبيارق ومشايخ ، وحوله كثير من الناس ، ودخل بطبوله ومشايخه وعنزه بيت الأمير عبد الرحمن ، وصعد بالعنز إلى مجلسه ، وكان عنده كثير من الأمراء والوجوه . فلمس العنز متبركا بها ، ثم أمر فأدخلت إلى الحريم ليتبركن بها وكان الأمير عبد الرحمن قد أوصى كبير طباخيه ، قبل حضور الشيخ ، بأن يذبح العنز

ويطبخها . فلما أتمت العنز زيارة الحريم أدخلوها إلى المطبخ فذبحت وطبخت .

وقدم للأمير، وللشيخ وجلوسهما، الغداء، ومنه العنز، وكان الشيخ يأكل منها ، وكلما تركها إلى غيرها من الطعام قال له الأمير عبد الرحمن : — كل ياشيخ عبد اللطيف من هذه العنز السمينة ، فيأكل منها ويقول : — والله إنها طعام طيب ، ومستو ، ونفيس ، والأمير وجلساؤه يتغامزون . فلما فرغوا من الأكل ، وشربوا القهوة ، طلب الشيخ العنز ، فعرفه الأمير أنها هي التي كانت بين يديه في الصحن ، وأكلها ، فبهت ! « فبكّـتـه الأمير ووبّخـه ، وأمره بالانصراف ، وأن يوضع جلد العنز على عمامته ، ويُذهب به كما جاء بجمعيته ، وبين يديه الطبول والأشاير ، ووكل به من أوصله محله على تلك الصورة »

وفي قصة العنز هذه يقول الشيخ عبد الله الأدكاوي هذا الشعر : —

بنتُ رسول الله ، طيّبة الثنا	نفيسة ، لذْ ، تظفر بما شئت من عز
ورُم ، من جداها ، كل خير ، فإنها	لطلابها ، يا صاح ، أنفع من كنز
ومن أعجب الأشياء ، تيس أراد أن	يُضل الورى ، في حبها ، منه ، بالعنز
فعالجها مَن نوّر الله قلبـــه	بذبح ، وأضحى التيس ، من أجلها مخزى

وهكذا لقي هذا الشيخ جزاءه . جزاء من يفشي الجهالة ، ويدعو إلى الضلالة ، ويتاجر بالدين ، ويكذب على الله والناس ، يبتغي عرض الحياة الدنيا وهو الذي يسعى الناس إليه ليهديهم . وليجدوا عنده المثل والقدوة ، في الصدق ، والعفة والأمانة ، والفضيلة ، وتقوى الله .

ويقول الجبرتي ، عند حديثه عن تعمير مراد بك مسجد الفسطاط ، جامع عمرو بن العاص ، إن هذا الجامع كان بعيداً عن الناس والعمران ، وبقي زمناً متخرباً . وأنه أدرك الناس وهم يصلون فيه الجمعة اليتيمة ثم يقول ، في وصف صلاة الناس لهذه الجمعة فيه ، إن الناس كانوا يجتمعون في الجامع ، للتسلية ، من القاهرة ، وبولاق ، ويحضر بعض الأمراء والأعيان . ويجتمع في صحنه أرباب الملاهي ، من الحواة ، وملاعبي القرود ، وأهل الملاعيب ، والنساء الراقصات ، المعروفات بالغوازي .

قامت القيامة

ومما سجله الجبرتى ، عن مستوى التفكير عند أهل هذا العصر ، أنه فى يوم الأربعاء ، الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١١٤٠ ، أشيع فى الناس أن القيامة ستقوم يوم الجمعة السادس والعشرين منه . [٢ أغسطس سنة ١٧٢٨ م] ، وفشا هذا الكلام بين أهل مصر ، فى القاهرة ، والقرى . فودع الناس بعضهم بعضاً وهم يقولون : — بقى من عمرنا يومان . وخرج الكثير من الناس إلى المتنزهات وهم يقولون : فلنمتع نفوسنا بالدنيا ، قبل أن تقوم القيامة . وخرج أهل الجيزة نساءاً ورجالاً يغتسلون فى النيل . وبعض النـاس علاه الحزن ، واستولى عليه الخوف والوهم . ومنهم من أخذ يتوب ، ويصلى ، ويدعو ، ويتوسل . ومن بدا عليه الشك فى صدق هـذا الذى شاع فى الناس ، لا يلتفتون إليه . ويقولون : القيامة قائمة يوم الجمعة ، ما فى ذلك شك . فقد قال ذلك فلان وفلان ، من اليهود والنصارى العارفين . وقالوا إن بعض هؤلاء العارفين ، عرض على بعض الأمراء أن يسجنه حتى يجيء يوم الجمعة هذا . فإذا لم تقم القيامة ، فله أن يقتله . وكثر فى الناس الهرج والمرج ، حتى جاء اليوم الموعود ، وأصبح الناس يوم السبت . فانتقلوا يقولون : إن فلاناً العالم ، أخبر بأن سيدى أحمد البدوى ، والدسوقى والشافعى ، تشفعوا فى ذلك فلم تقم القيامة . اللهم انفعنا بهم ، فإننا لم نشبع من الدنيا .

مجتمع أهل السيادة

هذه صورة أعتقد أنها كافية ، لتمثيل أخلاق الناس وآدابهم ، ومستوى تفكيرهم وإيمانهم . وتأثرهم بالخرافات والبدع . وهذا حكم على المجموع طبعاً . لا على الجميع .

وقد رأينا فى هذه الصورة نماذج من أخلاق الجند ، والأمراء ، والولاة . وعامة الناس وأوساطهم . أما أهل السيادة ، فى مجتمع القاهرة . فكانت آدابهم وأخلاقهم ، بعيدة إلى حد كبير عن هذه الرذائل ، والخرافات . وما يشبهها . وكان لأهل هذه السيادة ، من ثروتهم ، وبيئتهم ، ومعارفهم ، وسعة آفاقهم الذهنية والاجتماعية ، ما يجعلهم أقرب إلى التصون . وما يجعل حياتهم مزيجاً من هـذا التصون ، الذى تفرضه عليهم فضائلهم وآدابهم ومعارفهم ، أو تدينهم ، ومن هذه السماحة التى تقتضيها ثروتهم ، وسيادتهم ، وأذواقهم ، وسعة فراغهم .

ونحن نذكر مثلا لهـذه السماحة ، فى مجتمع أهل السيادة فى القـاهرة ، أورده الجبرتى .

فهو يقول عن صديقه الحميم ، الشيخ اسماعيل الخشاب ، إنه تعلق بشاب فرنسى من شباب الحملة ، كان جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وكانت بينهما مودة وتصافٍ ، حتى لا يجد أحدهما صبراً على فراق صاحبه .

وقد أورد الجبرتى ، كما أورد على باشا مبارك فى خططه أيضاً ، قصيدة من الشعر ، قالها الشيخ اسماعيل الخشاب فى هذا الشاب الفرنسى ، وصفها الجبرتى أنها « من الشعر الرائق ، ونظم الغزل الفائق » (١) وهى : —

علّقته ، لؤلؤى الثغر ، باسمه	فيه خلعت عذارى ، بل حلانسكى
ملكتُه الروح ، طوعاً ، ثم قلت له :	متى ازديارك لى ؟ أفديك من ملك
فقال لى ، وحميّا الراح قد عقلت	لسانه ، وهويثنى الجيد ، من ضحك
إذاغزا الفجرُ جيش الليل ، وانهزمت	منه عساكر ذاك الأسود الحلك
فجاءنى ، وجبين الصبح مشرقة	عليه ، من شغف ، آثار معترك
فى حلة من أديم الليل رصعها	بمثل أنجمه ، فى قبة الفلك
فخلت بدرا به حفّت نجوم دجاً	فى أسود ، من ظلام الليل ، محتبك
وافى ، وولى بعقل غير مختبل ،	من الشراب ، وستر غير منتهك

وقد كان الشيخ إسماعيل الخشاب سكرتيراً للديوان الذى أنشأه الفرنسيون فى القـاهرة ، يكتب له الأوامر والقرارات . ويسجل ما يدور فيه من قول ورأى . واختاره الجنرال منو رئيساً لتحرير جريدة أراد أن يصدرها فى القاهرة باسم « التنبيه »

ولست أدرى ، أهو من السماحة ، أم من شىء آخر ، هذا الذى روى عن السيد خليل البكرى .

---

(١) للخشاب ديوان طبعته مطبعة الجوائب فى القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ

كان هذا الشيخ نقيباً على السادة البكرية ، وكبير هذا البيت العريق . وكانت له مع الفرنسيين صلات ومواقف ، نجدها فيما كتبناه عنهم . ولما نزح الفرنسيون وزالت عنه حمايتهم ، أقيمت عليه دعوى من تاجر للرقيق ، ملخصها أنه أخذ غلاما مملوكا من هذا التاجر ، بثمن بخس ، واستعان عليه فى ذلك بالفرنسيين ورفع الأمر فى هذه القضية إلى القاضى . وانتهى النزاع بأن نزع الغلام من السيد البكرى ، وأعيد للتاجر . وكأن هذا الغلام كان ذا منزلة عظيمة فى نفس الشيخ . فإن الجبرتى يقول : إنه عند ما نزع منه « تجرع فراقه » .

ويقول نقولا الترك ، عن السيد خليل البكرى ، إن نابليون خلع عليه نقابة الأشراف ، بدلا من الزعيم السيد عمر مكرم ، لأن السيد خليل « كان محباً لجمهور الفرنساوية . فلأجل ذلك بغضته الإسلام المصرية » .

ويقول عنه نقولا أيضاً « كان فى أكثر الأوقات ، شرب ، فى منزله ، مع الفرنساوية ، المنكرات » .

ونقولا ، كما نعرف ، كان شديد اللصوق بالفرنسيين ، ودائم الاتصال بهم ، يستطيع أن يعرف وأن يرى من شؤونهم ، وشؤون من يتصل بهم ، الشيء الكثير وسنجد فى موضع آت من هذا الفصل حديثاً آخر عن الشيخ البكرى وعن بنت له .

وقد رأينا فى تراجم العلماء ، وشيوخ الأزهر ، وكانوا سادة فى مجتمع أهل القاهرة ، أمثلة أخرى لهذه السماحة ، التى رعاها التصون ، والعفة .

ومما حفظه لنا الجبرتى عن حياة الناس ، فى ذلك العصر ، ويتصل بأخلاقهم وآدابهم . أنه كانت فى القاهرة ، وفى غيرها من المدن أيضاً ، مواقف . تقف فيها النساء المحترفات للبغاء . وكانوا يسموهن « الخواطى » . وذكر مدينة جرجا ، عرضا ، ضمن البلاد التى كانت فيها هذه المواقف . ويفهم مما ذكره أن الحكام كانوا يفرضون عليهن ضريبة . وكذلك كانت ، فى القاهرة وغيرها ، أماكن لشرب الخمر والبوظة . كانت تفرض عليها الضرائب أيضاً .

وكان بعض الولاة يمنع ذلك كله . كعبد الله باشا الكبورلى ، فى القاهرة .
وسليمان بك القاسمى ، فى جرجا .

وكان نظام الطبقات ، هو النظام السائد فى ذلك الوقت . وكانت سيادته صارمة . حيث يعلو الحكام من الأتراك خاصة ، على المصريين علواً كبيراً . وكان الناس يقبلون ذلك راضين ، أو ساخطين ، أو غير مدركين .

عند ما سئل سليمان الحلبى ، قاتل الجنرال كليبر ، هل يعرف الوزير الأعظم..؟ أى الوالى التركى ، قال إن مثله لا يعرف الوزير « لأنه ابن عرب » .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، وأشد إثارة للعجب . لما فيه من الدلالة على فوارق المجتمع وحدوده . حتى بين العلماء ورجال الدين أنفسهم . فعند ما سئل سليمان هذا هل زار الشيخ الشرقاوى ، وهل يعرفه ..؟ قال إنه لم يره ولم يعرفه « لأنه ليس من ملته — يقصد مذهبه — فالشيخ الشرقاوى شافعى . وسليمان حنفى » .

فضائل الناس

وكانت فضائل الناس ، من الأمانة ، والمروءة ، والكرم ، والتعاطف . تبرز واضحة قوية ، عند ما تكون حياتهم هادئة مستقيمة سهلة . لا يكدرها عليهم وباء ، أو حرب أهلية ، أوقحط ، أوغلاء . ولم يكن الناس ، فى ذلك الوقت يعرفون اشتراكية الدولة . ولاالضمان الاجتماعى ، ولاتنسيق الثروة وتوزيعها . بل كان فيهم ، حتى فى هذه الأيام الهادئة ، المستقيمة ، السهلة . الفقر المدقع ، والكدح الكادح فى سبيل كسرة الخبز . ولكنهم ، مع ذلك ، كانوا أهل أمانة ، ومروءة ، وكرم ، وتعاطف . وكان الأغنياء يعرفون حق الفقير عليهم ، ويؤدونه . دون أن يلزمهم به قانون .

كانت بولاق مقراً لجمرك القاهرة . وكانت تكدس فيها الغلال الوافرة ، على الساحل ، دون أن توضع فى مخازن . ودون أن يحرسها أحد . وقد وصفها مسيو جومار ، أحد مهندسى الحملة الفرنسية . ولم يفته مغزى ذلك . بل قال « إن الثقة

بين الناس فى مصر ، كانت على أتم ما يكون . بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يد إلى تلك الغلال[١] » .

وكان فى كل بيت من بيوت الأعيان مطبخان ، أحدهما للرجال ، فى أسفل البيت، والثانى فى مكان الحريم . فيمد صاحب البيت السماط ، فى وقت الغداء ، والعشاء ، مستطيلا فى مكان بارز من البيت ، يراه الناس جميعا . ثم يجلس إلى هذا السماط ، وحوله الضيف من كل قاصد . ودون سيّد البيت ، مماليكه ، وأتباعه . ويقف الخدم فى وسط السماط ، يفرقون الطعام على الآكلين ، ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلى ، والمحمر . ولا يمنع أحد من الدخول ، وقت الطعام ، أبدا . ويرون ذلك من أكبر العيوب . حتى كان بعض ذوى الحاجات ، إذا حجب من الدخول على أمير ، أو كبير ، انتظر وقت الطعام . فلا يمنعه أحد ، فيدخل ، ويأكل ويصل إلى غرضه من ملاقاة الأمير ، ومخاطبته فيما يشاء وكان من عادة الأمراء وأهل السيادة ، إذا رأوا على مائدتهم رجلا لم يروه من قبل ، ولم ينصرف بعد الطعام . عرفوا أن له حاجة . فلا يخجلوه بأن يبدأ بها ، أو يتحدث إليهم فيها . بل يطلبه سيد البيت فيسأله عن حاجته فيقضيها له . وإن كان محتاجا ، بره ، وأعطاه وهذا من أسمى ما تصل إليه رقة العاطفة ، والتلطف فى قضاء حاجة المحتاج . مع ستر مروئته وحياءه .

وكانت للناس مواسم للخير . يبرون فيها الفقراء ، ويذكرونهم بالصدقات . منها أيام أول رجب ، وليلة الإسراء والمعراج ، ونصف شعبان ، وليالى رمضان ، والأعياد ، وعاشوراء ، ومولد النبى . وفى هذه الأيام يطبخون الرز باللبن ، والزردة ، ويملؤون منها قصاعا كثيرة ، يفرقونها على من يعرفونه من المحتاجين . ويجتمع فى كل بيت ، من بيوت الأغنياء ، الفقراء ، والمحتاجون ، فيفرق عليهم الخبز . ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك الرز باللبن ، والزردة . ويعطونهم ، بعد ذلك ، مالا . ولهم ، غير ذلك ، صلات وصدقات ، على من يعرفون من الفقراء . فى غير هذه المواسم والأيام .

وكذلك كان حال السراة من أهل الريف . وسنذكر ذلك فى موضعه .

---

(١) ص ٥٩ جزء ١ من كتاب تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى

المحتسب والتسعير الجبرى

وكان الناس ، فى القاهرة خاصة ، يعرفون نظام التسعير الجبرى ، والعقوبة على من يبيع بأزيد من الثمن الذى فرضته الدولة . أو يطفّف الكيل والميزان .

(كانت من الوظائف الهامة ، فى ذلك الوقت ؛ وظيفة المحتسب ، أى أمين الاحتساب . وهى وظيفة قديمة فى الدول الإسلامية المختلفة ، أنشأها عمر بن الخطاب ، وكانت من الوظائف القضائية . لا يتولاها إلا كل من له قدم راسخة فى المعارف ، والعلوم ، والقوانين الشرعية . وكان لصاحبها سلطات واسعة . كان من سلطة المحتسب أن يختبر الأطباء والجراحين ، والبياطرة ، ومعلمى الأطفال ، فى الكتاتيب ، ومعلمى السباحة فى الماء ، قبل أن يزاول كل منهم عمله ، وله كذلك أن يستمع لمن يريد تدريس العلوم ، ويناقشه قبل أن يأذن له بالتصدر للتدريس . وكانت له مراقبة المراكب المسافرة ، والدواب المعدة للحمل ، وروايا الماء ، التى تحمل ليستقى الناس منها .

وكان من شأنه فرض التسعير الذى يراه محققاً ليسر الفقير ، ومجزيا لربح التاجر والبائع . وإلزام الناس بالعمل به . وعقوبة الخارجين عليه وكانت لبعض المحتسبين فى ذلك صرامة قاسية . وعقوبات شاذة ، عجيبة . ومنهم من كان على غير ذلك .

فمن أهل الصرامة القاسية ، والعقوبات الشاذة العجيبة . المحتسب محمد أغا أباظة . كان إذا أنقص الجزار فى وزنه شيئاً من اللحم ، قطع من جسده قطعة وفّى بها هذا النقص ، فى الوزن . ومصطفى كاشف كرد ، وعثمان أغا الوردانى . كانا كذلك أشد المحتسبين قسوة . كان بعضهم يأمر بأن يربط مخالف التسعيرة بالحبال عارى الرأس . ثم يصلب على مفترق الطرق . ويأخذ رجال المحتسب الأشداء فى ضربه بالنبوت ، أو جلده بالسوط ، حتى يأمرهم بتركه . وكان بعضهم يأمر بقطع شحمة الأذن بالسكين ، عقوبة على المخالفة . ويأمر بخرم الأنف ، وتعليق اللحم أو الخبز الذى باعه صاحبه بأكثر من سعره ، فى فتحة الأنف ، ويسير

به الجند ، على هذه الصورة ، فى شوارع القاهرة . وكانوا يسمون هذه العقوبة « التجريس »

وباع رجل مرة « كنافة » بأزيد من سعرها . فأجلسه المحتسب فوق صنية الـكنافة ، وهى على النار .

وجرّسوا رجلا بأن أركبوه حماراً ، ووجهه إلى خلف ، وهو قابض بيده على ذنب الحمار ، ووضعوا على رأسه عمامة هى مصارين حيوان مذبوح . وعلى كتفه أمعاء هذا الحيوان . وحلقوا نصف ذقنه ، ونصف شاربه . وساروا به فى مسالك القاهرة ، على هذا الحال وكان الآمر بهذه العقوبة هو ، لاظ محمد ، كتخدا محمد على ، سنة ١٢٢٩ هـ .

وكانوا فى بعض الأوقات ، يعـاقبون على شرب الدخان وكثيراً ما كانوا يشربونه فى « الجوزة » . فأمر المحتسب — فى ولاية محمد باشا اليدكشى سنة ١١٥٦ — من يشرب الدخان . بأن يأكل حجر « الجوزة » بمـا فيه من الدخان ، والنار .

وعاقب محتسب محمد على ، مصطفى أغا كرد ، من يطيل السهر ،بقطع أذنه ، أو أنفه .

وكانوا يفرضون سعراً لـكل ما يحتاجه الناس ، من الخبز ، واللحم ، والقماش، والماء ، والجبن ، والزبد ، والسمن ، والعطور ، والخضار . وكان يوزن بالرطل ، — حتى الفجل ، والليمون — والقمح ، والفول ، والعدس ، والصابون ، والبن والسكر ، والشمع

وقد وصف الجبرتى موكب المحتسب ، الأمير على أغا مستحفظان ، وصفاً يبعث الرعب فى النفوس . فقد كان يضع على رأسه العمامة الديوانية ، المعروفة بالبيرشانة . وأمامه أصناف الجند ، من القابجية ، واللازمين ، وأمراء الأبواب ، مع طوائفهم . وخلفه الجوايشية ونائب القاضى ، وقوّاس يحمل كيساً مملوءاً بالعكاكيز ، أو النبابيت ، ثم يقف على رأس كل شارع ، وحارة ، فينادى مناديه

بالأسعار ويقول الجبرتى إنه أمر فى يوم واحد ، هو ثالث أيام عيد الفطر ، بأن يضرب ، بالعكاكيز ، ستة من مخالفى التسعيرة . فماتوا جميعاً من الضرب .

وكان على أغا هذا يسير بموكبه يوما ، فالتقى به كبير من المماليك ، هو إسماعيل بك الدفتردار . فلما أحس إسماعيل بك بقدومه ، من بعيد ، أخلى له الطريق . حتى مر . فلما عوتب فى ذلك ، قال إنى فعلت ذلك لأننا كتبناه على أنفسنا ، وحتى نكون مثلا لغيرنا من الناس ، فى احترام المحتسب ، وطاعته .

وقد مات على أغا مستحفظان ، فى سنة ١١٢٣ ﻫ ، وهو ساجد فى صلاة الجمعة ، فى اليوم الثانى من أيام عيد الفطر . ورثاه الشيخ حسن البدرى الحجازى بقصيدة يقول فيها : —

أحلّ البـــلايا ، والرزايا وما دهى ... وما كان قمّاعا ، بمن دأبه الظلم
من السوقة الأشرار ، الانجاس[1] منهم ... من البخس والخسران ، عزم له عزم
فأرجح مـــيزانا ، وأوفى مكايلا ، ... وأخمـــد نيرانا ، وقام به سلم
وليس له من مبغض ، غير مغرض ... عن الحق ، أومن فى عقيدته ســقم
وظن بليد الطبع ســـوءً فمالهِ ... فقلت له : اكفف ، فاتك العلم والفهم

الحياة فى الريف

عندما يكتب الجبرتى عن ريف مصر ، وقراه . يذكر الفلاحين ، والعرب . وهؤلاء هم سكان الريف وأهله . وقد تناول الجبرتى حياة الفلاح ، وخلقــه ، فى الجزء الرابع من الـكتاب ، بما يمكن أن نجعله صورة كاملة له . ومنها نرى أنها صورة لم ينلها كثير من التغيير ، كما نعلم ، ولـكنا نرجو أن ينالها ، تغيــير شامل . فى وقت قريب أو بعيد .

فى شهر جمادى الأولى من ســنة ١٢٢٩ أطلق محمد على رجاله من الـكتبة ، والأقباط ، والرزنامجى ، إلى جزيرة شلقان لتحرير دفاتر الأطيان ، وقياسها على الطبيعة ، وفرض الضرائب .

(١) لصحة الوزن تحذف الألف الأولى من هذه الـكلمة ، ولا تنطق الهمزة .

ويتخذ الجبرتى هذه المناسبة سبيلا للحديث عن الفلاحين ، وما يلقونه من ظلم ، وعنت ، ومذلة ، وهوان . وأنهم ، عندما رأوا رجال الدولة هؤلاء ، جفلوا ، وتركوا أوطانهم وزروعهم . وباعوا مواشيهم ، ودفعوا أثمانها فيما زاد عليهم من الضرائب . ثم يقول إنهم ، بعد فرارهم ، « سيعودون مثل الكلاب ، ويعتادون سلخ الأهاب » وأنهم كانوا أذل من العبد الذى يشترى بالمال ، فربما هرب العبد من سيده ، إذا كلفه فوق طاقته ، أو أهانه . أما الفلاح فلا يستطيع ، ولا يسهل عليه أن يترك وطنه وأهله . ولو أنه استطاع ، وفعل ، فسيجىء به الظالمون مرة أخرى ، قهراً ، ليزيدوه نكالا وإذلالاً . ثم يتحدث عن «العونة» و «السخرة» فيقول إنهم كانوا ينادون على الفلاحين ليلا للتبكير فى صباح اليوم التالى للعمل فى خدمة «الملتزم» . فمن تخلف ، حتى بعذر ، أحضره الخفير ، أو المشد، يجره من شنبه ،ويشبعه شتما وضرباً . وقد اعتاد الفلاحون ذلك حتى صار واجباً ..!

وكانوا يلاقون من المغالطة فى الضرائب والأموال المفروضة عليهم أشياء كثيرة . فقد يدفعون هذه الضرائب أكثر من مرة ، لأنهم لا يستطيعون مراجعة المحصلين ، ولا طلب « الورد » منهم ، حتى يكون حجة فى يدهم على السداد . ويستعمل الجبرتى كلمة « الورد » بمعناها الذى يعرفه مالكوا الأراضى الآن فى مصر . وقد يدفعون قدراً من المال يوازى الضريبة نفسها « هدية » للمحصلين . أو تفرض ضرائب أخرى من المحصلين يأخذونها لأنفسهم ، وهى « حق الطريق » الذى أشرنا إليه من قبل وإذا ادعى مدع على آخر مالا ، وكتب بذلك إلى الحاكم . أمر هذا رجاله بالذهاب إلى المدعى عليه ليدفع ما ادعاه عليه المدعى ، ولو لم تكن معه وثيقة ولا سند ، ثم يدفع بعد ذلك حق الطريق لرجال الحاكم . فإذا تأخر أرسل إليه آخرين . وفرض لهم حق طريق آخر للاستعجال . فإذا لم يدفع حبس وضرب حتى يدفع هذا كله .

وقد أفسد هذا الظلم نفوس الفلاحين ، وأخلاقهم . حتى أنهم ، كما يقول الجبرتى ، كانوا إذ ولى أمرهم رجل عادل رحيم ، ازدروه فى أعينهم ، واستهانوا به وبرجاله ، وماطلوه فى دفع ما عليهم . بل كانوا يسمونه بأسماء النساء ..! استهانة به

واستخفافاً بأمره. وتمنوا زواله، حتى يولى عليهم جبار لا يرحمهم كما أفسد هذا الظلم نفوسهم بإيقاع بعضهم الشر ببعض، وأكلهم ما قد يكون تحت يدهم من مال الوقف حتى تخربت مساجد كثيرة، وأسبلة، لأن المتنظرين عليها من الفلاحين، وأعيان الريف، كانوا يأكلون ريع ما وقف عليها، مهما كان كثيراً.

كما كان يقع بينهم كثير من الخصام، وكثير من القتل أيضاً.

وقد ألف الشيخ حسن البدرى الحجازى أبياتاً أربعة، فى وصف حال الفلاحين إذ ذاك، وما كان ينزل بهم من بلاء، فقال: —

وسبعة بالفلاح قد أنزلت	لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم، أستاذهم[1]، والمشد،	والقتل، فيما بينهم، والقتال
مع النصارى، كاشف الناحية	وزد عليها كدهم فى اشتغال
وفقرهم ما بين عينيهم	مع اسوداد الوجه. هذا النكال

وهذا الذى كتبه الجبرتى عن الفلاحين، كان هو الحال الغالب الأعم فى كل هذه السنين التى دون تاريخها. كما أن هذه الصفات التى أشار إلى بعضها، وهذه النوازل التى عدها الشيخ الحجازى سبعاً منها، كانت هى صفاتهم الغالبة ونوازلهم أيضاً فى هذه السنين، وفى تاريخهم الطويل وهى، كما أشرنا، نتيجة طبيعية للظروف الاجتماعية التى سادتهم، ونوع الحكم الذى كانوا يحكمون به. فهم ضحية للظلم والفساد، والإقطاع والإستبداد.

وكان أسوء ما يبتلى به الفلاحون، فوق ما يقع عليهم من ظلم وسخرة، القحط، بنقص فيضان النيل، والغرق، بزيادة الفيضان. والأوبئة[2]. فنقص النيل كان يلازمه، بطبيعة الحال بوار الأراضى، وتلف الزرع، وموت البهائم، والناس أيضاً فى أحيان كثيرة، من العطش، والجوع. وكانت الزيادة توقع التلف بالزروع.

---

(١) الأستاذ هو الملتزم، الذى يأخذ الضرائب.

(٢) اجتاحت الأوبئة مصر فى هذه الفترة، فى سنوات ١٠٥٢ و ١١٠٨ و ١١٤٧ و ١٢٠٥ هـ. وهى تقابل سنوات ١٦٥٢، ١٦٩٦، ١٧٣٤، ١٧٩٠ — ١٧٩١ م

وتمنع الإفادة من الأراضى فى بعض الأحيان . وكثيراً ما كان يجىء الغرق ، والوباء معاً ، متعاقبين كما حدث فى سنة ١٢١٥ « ١٨٠٠ » م فقد جاء فيضان النيل فيها عالياً . ثم أعقبه الطاعون . فكان الناس لا عمل لهم إلا دفن الموتى. وقد أرسل الشيخ حسن العطار ، وكان قد ترك القاهرة إلى أسيوط فراراً من الوباء ، إلىصديقه الجبرتى ، كتاباً يقول فيه إنعدد الذين يموتون فيها بسببالطاعون ،كان يقرب من ستمائة ، كل يوم . وكان هذا الوباء ومثله ، يستتبع ، بطبيعة الحال ، مجاعة ، بسبب هجرة كثير من الفلاحين من بلادهم . وموت الكثيرين منهم ، وانشغال الآخرين بموتاهم . وقد ذكر مسيوجومار ، أحد مهندسىالحملة الفرنسية ، أنه مات بهذا الطاعون ، فى شهر واحد ، عشرة آلاف ، من سكان القاهرة . وقدر الدكتور لارى ، كبير جراحىالحملة ، منماتوا بهذا الوباء ، بمئةوخمسينألفا . فى القاهرة ، والوجه القبلى .

حبيب وهمام :

أما حياة العرب ، فى ريف مصر ، فسنتخذ مثلا لها ، من ترجمة أسرة حبيب، وسيرة شيخ العرب همام وكانت الأولى صاحبة السطوة فى إقليم الوجه البحرى ، وكان الثانى زعيما على الهوارة . وصاحب السطوة والجاه ، فى الصعيد . وكان سويلم وهمام متعاصرين . وماتا فى سنة واحدة .

يصف الجبرتى سويلم بن حبيب ، بأنه المقدام الشهير، والضرغام النجيب، من أكابر عظماء مشايخ العرب بالقليوبية . وكانت مساكنه ، ورجاله ، فى دجوة على شاطىء النيل . أما أبوه حبيب فأصله من قرية بجوار أسيوط إسمها شطب . فلما مات حبيب تولى الرياسة ابنه الأكبر سالم ، وكان فارساً شجاعا . حتى جعله الناس وفرسه ،مقوّمان ، فىالحرب ، بألف فارس . فطار صيته وكثرت جنوده وفرسانه وخيوله . ودخل فى طاعته العرب كلهم . لا يفعلون شيئاً إلا بأمره واتسع سلطانه ، وعظم أمره وبطشه . وجعلت له حراسة البرين على النيل ، من بولاق إلى رشيد ودمياط . وكانت بين سالم وأبيه وبين الأمير الكبير إسماعيل بن إيواظ

خصومة وحرب ، فتسلل سالم إلى خيل كانت لابن إيواظ فقطع معارفها وأذنابها وتركها . فغضب ابن إيواظ من ذلك ، غضباً شديداً ،وأسرّها له . ثم سلطعليهما رجلا شجاعا من أمرائه . اسمه حسن أبو دفّية . فحارب أولاد حبيب . وسلط عليهم المدافع . ولم تكن عندهم مثلها . فحاربوه بخيولهم ، وبنادقهم . واستطاع سالم أن يهزم أبا دفيه . وأن يلقي مدافعه فى النيل . فقام ابن إيواظ بنفسه لحربه . حتى هزمه ، وحرق بيوته كلها فى دجوة . وسلبه ما فيها من خيول ، وأبقار ، وأشياء كثيرة .

ولم ير حبيب بداً من الفرار إلى غزة ، حيث مات فيها . فعاد سالم إلى مصر . واحتال حتى دخل ، مع صديق لوالده ، على ابن إيواظ . فلما عرفه قال له : — أتيت بيتى ولم تخف . ؟ فقال له سالم نعم، أتيت وكفنى معى . إما أن تنتقم فتقتلنى. وإما أن تعفو . فرحب به ابن إيواظ . وطلب إليه أن يحضر أهله وكتب له أماناً وأنعم عليه بكسوة وأذن له فى أن يقيم حيث كان أبوه . وأوصاه أن يتقى الله. ثم ذهب حيث أقام عند كبير آل الشوارى حتىأقام بيوته ، وبيوت أهله وأنصاره فأنشأ له ولهم دوراً عظيمة ، وحدائق، وسواقى ، ومعاصر ، ومساجد . ثم تولى، بعدذلك ، حراسة البرين ، من بولاق إلى رشيد ودمياط . وأصبح صاحب الكلمة النافذة فى بلاد الوجه البحرى كله . وصارت كل السفن التى تشق النيل فى هذه البلاد ، تحت حكمه . يفرض عليها الضرائب ، الشهرية والسنوية . فزاد فى سعة حدائقه . وأنشأ على النيل بستاناً عظيما غرس فيه أنواع النخيل وأشجار الفاكهة المختلفة . حتى كانت فاكهته لا تنقطع صيفاً ولا شتاء . وأحضر له البستانيين من رشيد والشام . ثم اشترك فى حروب قامت بين كبار المماليك نال فيها نصراً ومجداً وأموالا عظيمة . فاشترى الجوارى البيض . وبقى على حاله ، من السطوة والثروة حتىمات فى سنة ١١٥١ . وتولى أخوه سويلم حراسة البرين بعده ، فزادتسطوته وثروته . حتى كان رجاله يقفون فى طريق السفن التى تسير فى النيل وينادون رجالها . فإذا أطاعوهم فرضوا عليهم ما أحبوا من ضريبة . وأخذوا ما شاءوا من بضاعة وأن عصوا عليهم قطعوا طريقهم ، وجاءوا بهم صاغرين ، وأخذوا

منهم أضعاف ما يأخذون عادة . وأنشأ سويلم لنفسه حرساً من العبيد السود ، يركبون الفرسان . ويلازمونه حيث سار . وكان لا يبيت فى داره . بل يجىء فى الثلث الأخير من الليل ، فيدخل إلى بعض حريمه . ثم يخرج عند الفجر إلى ديوانه فيحضر اليه الكتبة ، يعرضون أوراقهم ، ويتلقون ما يأمرهم به ، ويكتبون ما يريد أن يرسل من كتب ورسائل إلى القاهرة ، أو البلاد التى تخضع لحكمه . ويحضر إلى ديوانه أيضاً أرباب الحاجات ومشايخ البلاد ، والجند ، والملتزمون ، والفلاحون ، والعرب . وكلهم واقف بين يديه . ولا يستطيع ملتزم ، ولا حاكم ، ولا شيخ ، فى القليوبية والشرقية خاصة ، أن يبرم أمراً إلا بموافقته . وزاد سويلم فى بناء مساكن أهله فى دجوة ، فأنشأوا دواراً عظيما ، له مقاعد شاهقة الارتفاع ، تحمل على عروشها أعمدة عليها بوائك مقصورة يراها الناس من مسافة بعيدة فى البر والبحر وفيها مجالس عدة ، ومخادع ، ولواوين ، وفسحات علوية وسفلية . وبنى بداخله مسجداً ومكاناً فسيحاً ، للضيوف من كل جنس وطارق . وجعل أمامه على شاطىء النيل طريقاً فسيحاً ، ومساطب لجلوسه . كما بدأ يتخيّر ، ويتأنق فى ركوبه ولباسه . حتى كان النـــاس ينسبون إليه ما يبتدع فى ذلك : فيقولون هذا سرج حبايبى — أى منسوب لابن حبيب — وشال حبايبى ، ومركوب حبايبى ، وكان ، إلى شدة مراسه ، وقوة بأسه — كريماً — يحب العلماء وأرباب الفضائل ويأنس بهم . ويستطيع أن يشاركهم حديثهم ويرسل إليهم الهدايا .

وبقى سويلم ، وأسرة حبيب حتى تولى على بك الكبير حكم مصر فحاربهم حتى قتل سويلم ، وخمسة وأربعين من كبارهم . ثم قضى على من بقى منهم بعد ذلك ومحا ما كان لهم من سطوة وهيبة . وكان ذلك فى سنة ١١٨٣ هـ

وأما شيخ العرب همـام ، فيصفه الجبرتى بأنه الجناب الأجل ، والكهف الأظل ، الجليل المعظم ، والملاذ الأفخم ، ملجأ الفقراء والأمراء ، ومحط رحال الفضلاء والكبراء . الأمير شرف الدولة همـام بن يوسف بن أحمد ، الهوارى . عظيم بلاد الصعيد . ثم يطنب فى ذكر مايتصف به من الكرم . فمن ذلك أنه كان إذا نزلت بساحته الوفود من الضيفان ، تلقاهم خدمه ؛ وأنزلوهم فى أماكن معدة

وأحضروا لهم ما يحتاجونه من الحوائج . وتقدم لهم ، مهما طالت إقامتهم ، الأطعمة الفاخرة فى الغداء ، والعشاء ، والإفطار . ويجدون ، فى كل وقت ، السكر ، والحلوى ، والمربات ، وشمع العسل ، والآنية النظيفة ، الكثيرة ، لطعامهم وشرابهم . وكان بعض الناس يقيم فى ضيافته شهوراً ، وهو لا يعرفه . وطعامه لا ينقص ، وكذلك خدمته وإكرامه . فإذا انتهت ضيافة الضيفان . ورأى فيهم محتاجا ، أكرمه ، وأعطاه أكثر مما كان يرجو وينتظر . ومن الناس من كان يقصده ، فى كل سنة ، فينال من بره ما يكفيه السنة كلها . أما من يقدم عليه من كبار الناس أو من أهل الفضائل ، فإنه كان يزيد فى إكرامهم . ويهدى إليهم الجوارى ، والعبيد ، وقناطير السكر ، والغلال ، والسمن ، والعسل . وكان هذا حاله على الدوام ، فى كل أيام السنة . فكان الخدم يهيئون الفطور للضيوف من طلوع الفجر ، فلا يفرغون من ذلك إلا فى الضحى . ثم يشرعون فى تهيئة الغداء ، فلا يفرغون منه إلا قريبا من العصر ، ثم يشرعون فى تهيئة العشاء إلى وقت من الليل .

وكان رجلا بشوشا ، قوى الذاكرة . إذا رأى إنسانا ، مرة واحدة ، ثم غاب عنه سنين ، ورآه بعد ذلك ، عرفه وأقبل عليه . وإذا جلس إلى كتّابه وحاسبى أمواله . أخذ يستمع إليهم ، ويأمرهم ، ويملى عليهم كتبا ، ومراسيم . لا يغرب عن فكره كبير أو صغير . وكان يفعل ذلك فى الليل ، ثم ينام ساعة قليلة ، يقوم بعدها إلى الصلاة . وعندما يجلس إلى الناس يضع إلى جانبه فنجانا فيه قطعة من القطن ، وماء الورد ، فإذا قرب منه بعضهم ، مسح بتلك القطنة — بعد انصرافهم — عينيه ، وشمها .

وكان همام كثير الإكرام للعلماء . زاره السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، فأكرمه إكراما عظيما . وأهدى له الغلال ، والسكر ، والعبيد ، والجوارى . وكان هذا شأنه مع أهل العلم والفضل .

أما ثروته فكانت عظيمة جداً . من ذلك أن عدد الثيران ، التى كانت مخصصة لزراعة القصب وحدها ، كان إثنى عشر ألفاً . وعنده غيرها ، من الثيران المعدة للحرث ، ودرس الغلال ، والطواحين ، والسواقى . وغيرها من الجواميس والأبقار .

أما مخازن الغلال ، وحواصل السكر ، والتمر ، بأنواعه المختلفة ، والعجوة . فشيء لا يمكن حصره وكان من يرى مخازن الغلال ، من بعيد ، يظنها مزارع ، لطول مكث الغلال فيها وكثرتها . فينزل عليها المطر . وتختلط بالتراب . فتنبت وتصير خضراء ، كأنها مزروعة . وكان عنده من الجند ، والقواسة ، من المماليك ، عدد وافر . أقاموا عنده ، وتزوجوا . وتخلقوا بأخلاق الهوارة ، وتعلموا لغتهم وله دواوين وكتاب عديدون من الأقباط ، ومحاسبون ، ومحصلون . لا يقف عملهم ليلا أو نهارا . وعنده من الجوارى ، والسرارى ، والعبيد ، شيء كثير جدا . أفرد لهم سجلا خاصا . وفى ختام كل سنة يطلب من كاتب هذا السجل عدد من مات منهم . وقد يكون أربعمائة ، أو خمسمائة ، فى سنة واحدة .

ووقعت حروب بين على بك الكبير ، وبين خصوم له من المماليك . كانوا من أصدقاء همام ، وكان يعينهم . فلما تغلب عليهم على بك ، عرف همام أنه لن يتركه . وغدر به ، بعد ذلك ، بعض أهله ، وانحازوا إلى على بك . فترك همام فرشوط ، حيث كانت منازله وبيوته . ورحل إلى إسنا ، فمات بها فى شعبان من سنة ١١٨٣ ، وهى نفس السنة التى مات فيها سويلم بن حبيب .

وترك أولاداً ثلاثة ، درويش ، وشاهين ، وعبد الكريم . واستطاع أولهم أن يترضى على بك ، فأعاده إلى فرشوط ، وإلى مكان أبيه ولكنه كان قاسيا سيء السيرة . أخذ يقبض على خدم أبيه ، ويسلب أموالهم . فأخذ من خادم يسمى زعيتر ، كان وكيل البصل المرتب لمطابخ همام ، أموالا عظيمة . منها أربعون ألفاً من الذهب البندقى ، دفعة واحدة . وكذلك أخذ من العامل المخصص لصناعة الأبراد لكسوة الجوارى السود والعبيد . ومن وكلاء الغلال ، والسكر ، والسمن ، والعسل ، والتمر ، والشمع ، والزيت ، والبن . وشركاء المزارع . فلما علم على بك بما فعل بهؤلاء . وما جمع من أموالهم . أخذها منه . ثم صادره محمد بك أبو الذهب ، بعد ذلك ، فى كل ماله . حتى أخرج ما فى بيوته من المتاع ، والآنية ، والنحاس . فكانت قناطير مقنطرة . وجاء درويش هذا بعد ذلك إلى القاهرة ، فمات فيها ، كما يموت أى فرد من الناس .

وكان بعض أبناء همام ، كما كان بعض أفراد أسرة حبيب ، من أصدقاء الجبرتى

المسلمون والنصارى

كان وجدان الناس ، فى هذا العصر الذى نؤرخه ، وجداناً دينياً . ولم تكن العاطفة الوطنية قد وجدت عند المصريين . وهذه فترة من الزمن ، مرت بها كل أمة . فالعاطفة الوطنية عاطفة طارئة على شعور النـاس جميعاً ، وإحساس محْدث نبت ، ونمى ، عند أهل الأوطان كلهم ، بعد أطوار سابقة عليه ، مرت بها مصر كغيرها من الأمم . وما كانت الحروب الصليبية إلا تنفيساً عن هـذا الوجدان الدينى . أخذ طريقه إلى الخصام والدم . بدلا من المحبة والرفق . وقد عاش العالم كله دهوراً طويلة لا يجد أهله لهم عاطفه عامة ، ولا وجدانا ، إلا هذا الوجدان الدينى .

ثم ظهر بعد ذلك الشعور بالوطن ، ووجدان الوطنية .

كان وجدان الناس فى مصر إذن ، دينياً . وكانت عاطفة الدين ، والمشاركة فى العقيدة ، هى الشعور الذى يجمع الناس بعضهم إلى بعض . ولذلك يقول الجبرتى : قام المسلمون ، وفعل المسلمون . وهو يقصد المصريين . ونجد فى الوثيقة التى سجل بها الفرنسيون مقتل الجنرال كليبر ، أنهم قبضوا على « المسـلم » سليمان الحلبى . ولـكن الملاقات والصلات ، بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى ، وخاصة المسيحيين ، كانت — فى عمومها — علاقات مودة وأخوة . بقدر ما تسمح به ظروف الأحوال وملابساتها . وقد كانت الملاقات والصلات بين المسلمين أنفسهم ، لا تخلو كذلك من شرور ، ومن خصام وعنف . وحرب أيضاً . فـكثيراً ما نرى الحرب قائمة ، فى هذا العصر ، بين الجند ، والمصريين . وكلهم مسلمون أو بين المماليك والدولة ، أو بين المماليك بعضهم وبعض . أو بين المصريين والوهابيين . وكل هؤلاء المتحاربين مسلمون .

كان المسلمون يعاملون غير المسلمين ، عادة ، بروح التسامح ، والرفق . التى أوصاهم بها القرآن الـكريم . وكان غير المسلمين ، عادة ، يقابلون هـذا التسامح

والرفق ، بما يوجبه عليهم من الولاء ، والمحبة ، والإخلاص . وكان المسلمون وغيرهم يقعون تحت نير واحد من الظلم ، والجبروت . فهو كفيل بتوحيد عواطفهم ، أو تقريبها . إلى جانب الأسباب الأخرى للتوحيد والتقريب . وهى المشاركة فى العمل ، والجوار ، والخلطة ، والتقارب العنصرى والثقافى .

هذا الولاء ، وهذه المحبة والاخلاص ، وجده غير المسلمين ، فى الجملة ، فى مصر . وقد كان العالم كله ، إذ ذاك ، أقرب إلى التعصب الضيق ، منه إلى السماحة الكريمة الرحبة . وكان الناس قريبين إلى بقايا الحروب الصليبية . ما تزال باقية ، فى آفاق أوطانهم ، أصداء تلك النواقيس التى دعا إلى دقها بطرس الراهب . وما زال آباؤهم وأجدادهم يتحدثون إليهم عن وقائع هذه الحروب ، فى دمياط ، وغيرها من الثغور . وما زال « فرسان مالطة » يتربصون بالسفن فى البحر الأبيض ، ويغيرون عليها ، متأثرين بهذه الحمى ، التى ملأت رؤوسهم بها نواقيس بطرس الراهب .

فى هذه الأيام نفسها ، وتحت تأثير هذه المشاعر التى توحى بالانحراف والتطرف ، لم يجد غير المسلمين ، فى مصر ، إلا الأخوة ، والمعزة ، والكرامة ، ما داموا يعرفون حق وطنهم ، وحق إخوانهم ، عليهم .

وكان النظام الاجتماعى ، ونظام الحكم ، يفرضان على النصارى دفع الجزية . ويقول الجبرتى إن المعلم غالى ، كبير القبط فى عصره ، التزم بأن يدفعها إلى محمد على خمسة وثمانين كيساً(١) . ولم تكن قدراً ثابتاً ، معروفا . بل كان يفرضها الوالى ، أوشيخ البلد ، كبير المماليك ، كيفما شاء . وكان بعض الحكام أيضاً يظهر من ضيق الأفق شيئاً كثيراً فيوقع بغير المسلمين ظلمه ، كما فعل إسماعيل بك الصغير المعروف بالغزاوى . وقد مات فى سنة ١١٩١ .

ولكن هذا النظام الاجتماعى نفسه ، ونظام الحكم ، كانا يجعلان للنصارى واليهود سلطاناً عظيما فى الدولة ، وعلى الشعب . فقد كان هؤلاء ، إلى جانب اشتغالهم بالتجارة ، والصناعة ، والزراعة ، يختصون بالشؤون المالية فى الدولة . كان

---

(١) يقول أمين باشا سامى ، فى الجزء الثانى من تقويم النيل ، إن الكيس كان خمسمائة قرش . ويقدره الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، فى كتابه عن السيد عمر مكرم ، بنحو أربعين جنيها ، بالعملة الحالية .

منهم جباة الضرائب . وهم الذين يقدرونها على الأراضى ، والمحاصيل . وفى أيديهم سجلاتها ، وأورادها ، وحساباتها . وما يسجل فيها من الأراضى البور ، فتعفى من الضريبة . ومن المنزرع ،فيفرضون عليه القدر الذى يريدون . وسلطتهم فى ذلك مطلقة ، وكلمتهم نافذة . وما يكتبونه فى سجلاتهم ، لا معقب عليه بعدهم . وكان كبار المماليك يختارون لإدارة أموالهم الخاصة ، القبط ، واليهود . ويولونهم فى ذلك الثقة كلها . وكان الكتبة ، والمحصلون ، ورؤساؤهم من المباشرين ، كلهم من القبط غالباً ، ومن اليهود أحياناً . سواء فى أموال الدولة ، أم فى أموال الأمراء . والسراة .

ويقول الجبرتى إن محمداً علياً وضع لسجلات هذه الضرائب نظاما ، كان يقضى بأن تكتب باللغة العبرية [1] لأن فرقة من كتابها كانوا من اليهود .

وكان رئيس المشرفين على هؤلاء الجباة يسمى « كبير المباشرين » وقد بلغ بعض هؤلاء من الثروة والمجد مبلغاً عظيما . مثل المعلم رزق ، والمعلم إبراهيم الجوهرى ، وأخيه جرجس . والمعلم غالى . فالمعلم رزق كان بمثابة وزير مالية الدولة فى عهد على بك الكبير . وكان أيضاً أمين سره وكبير مستشاريه فى شؤون الدولة .

ويقول الجبرتى إن « المعلم رزق » ، « بلغ من العظمة ما لم يبلغه قبطى ، فيما رأينا » .

أما إبراهيم الجوهرى فقد تولى ، عند محمد بك أبو الذهب ، خليفة على بك الكبير ، ما كان يتولاه المعلم رزق عند على بك . من أمور المال والخراج والضرائب .

ويقول فى ترجمته إنه أدرك بمصر من العظمة ، ونفاذ الكلمة ، وعظم الصيت والشهرة ، مع طول المدة ، ما لم يسبق لمثله . وبعد وفاة محمد أبو الذهب ، نال عند خلفه ، إبراهيم بك مكاناً أعظم . حيث « قلده جميع الأمور ، فكان هو المشار إليه فى الكليات والجزئيات . حتى دفاتر الرزنامة ، والميرى وجميع الإيراد

(١) ص ١٨٢ من الجزء الرابع .

والمنصرف . وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته . وكان من دهاقين العالم ودهاتهم ، لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور ، ويدارى كل إنسان بما يليق به من المداراة ، ويحابى ويهادى ويواسى . ويفعل ما يوجب انجذاب القلوب والمحبة . ويهادى ويبعث الهدايا العظيمة والشموع إلى الأمراء . وعند دخول رمضان ، يرسل إلى غالب أرباب المظاهر ، ومن دونهم ، الشموع والهدايا والأرز ، والسكر ، والكساوى » .

ثم يقول إنه فى أيامه ، عمرت الكنائس والأديرة ، ووقفت عليها الأوقاف الجليلة والأراضى ، ورتبت لها المرتبات العظيمة والأرزاق ، والغلال . ولما مات حزن عليه إبراهيم بك كثيراً . وخرج إلى قصر العينى ليشاهد جنازته . وفى ذلك من روح التسامح ، والمحبة ما فيه .

وتوفى المعلم إبراهيم الجوهرى سنة ١٢٠٩ [١٧٩٥ م] .

وتولى جرجس الجوهرى مكان أخيه إبراهيم . ونال ، مثله ، مكانة عظيمة . وبقى ، مدة احتلال الفرنسيين مصر ، محتفظاً بهذه المكانة . ومتمتعاً بالجاه والسطوة والرعاية . وافر الحرمة ، وعند ما عاد العثمانيون ، بعد الفرنسيين ، نال عندهم الحظوة والسلطان .

يقول الجبرتى ، إنه رآه يجلس إلى جنب محمد باشا خسرو ، والدفتردار شريف افندى ، ويشرب فى حضرتهم الدخان ، وينادونه « جرجس افندى » ويرعون جانبه . ويشاورونه فى الأمور .

وكان جرجس الجوهرى عظيم النفس ، كريماً . يفرق على جميع الأعيان فى رمضان ، الهدايا الغالية . كما كان يفعل أخوه إبراهيم . وكانت له ثروة عظيمة ، وقصور تقف على بابها الخدم ، والحجاب .

كما كان خيّرا لا يوافق على إرهاق الناس بالضرائب والمظالم . يطلب منه محمد على أن يجمع له قدرا كبيراً من المال ، فيقول له : هذا لا يتيسر ، ويأبى .

فلما ظهر المعلم غالى تقرب إلى محمد على ، وزين له ما شاء من إرهاق للناس ،

وفرض ما يريد عليهم . وإذا أبى جرجس الجوهرى أمرا يطلبه محمد على ، تقدم إليه غالى وقال له أنا أجمع لك هذا المال . وأنفذ لك هذا الأمر . وانتهت سياسة المعلم غالى بتغير محمد على ، على جرجس . حتى خاف على نفسه منه فهرب إلى الصعيد . ثم حضر بأمان من محمد على . ولكنه لم يباشر أمراً ، حتى مات فى شعبان من سنة ١٢١٥ .

وأصبح المعلم غالى ، بعد ذلك كبير المباشرين . ويسّر لمحمد على أن يجمع من الأموال ما يشاء . كما جمع لنفسه مالا عظيما . ولكن محمد على صادره بعد ذلك فى كثير منه . ففى حوادث شهر رمضان من سنة ١٢٢٥ — فى السابع عشر منه — طلب محمد على المعلم غالى ، وحبسه ، كما طلب المعلم فلتيوس ، والمعلم جرجس الطويل ، والمعلم فرنسيس ، أخا المعلم غالى ، وباقى الأعيان من مباشرى القبط . فنفى بعضهم إلى دمياط . وحبس الآخرين فى القلعة . وختموا على دورهم . ثم انتهى الأمر بالعفو عن غالى ، على أن يدفع قدراً من المال يشك الإنسان فى تصوره . ولكن الجبرتى يذكره ويحدده ، بأربعة وعشرين ألف كيس .

ومن مظاهر المودة والإخلاص ، ما رواه الجبرتى من أن كاشف البحيرة ، من قبل محمد على ، قبض على السيد حسين نقيب الأشراف فى دمنهور ، وألزمه بأن يدفع ألفى ريال ، وإلا قتله بعد أربع وعشرين ساعة . فلما عجز عنها ، رجا من النصارى المباشرين أن يدفعوها عنه ، فدفعوها ، ونجا ، أو كما يقول الجبرتى بأسلوبه الظريف « تخلص بالحياة » .

ومن طريف ما ذكره الجبرتى ، وهو مظهر من أقوى المظاهر ، التى تدل على الشعور والعاطفة بين المسلمين والأقباط . أنه ، فى سنة ١٢٢٣ جاء النيل ناقصا . وانتظر الناس وفاءه ، فلم يف . فضجوا وانزعجوا ، ولم يجدوا غلالا . ثم رأى العلماء أن يقيموا صلاة الاستسقاء ، فى جامع عمرو ، فذهب كبارهم ، ومعهم السيد عمر مكر . وأهل الأزهر ، وكثير من الأطفال ، يدعون الله فى صلاتهم أن يوفى لهم النيل .

وأقيمت صلاة الاستسقاء فى صبح يوم زاد فيه النيل زيادة قليلة . فلما أتموا صلاتهم ، ورجع كثير منهم إلى القاهرة ، عاد النيل فنقص مازاد من ماء قليل .

وبعد يومين عاد العلماء والناس إلى جامع عمرو ، يتوجهون إلى الله فى صلاة الاستسقاء ، مرة أخرى، أن يوفى لهم النيل . وأشار بعضهم بأن يشترك الأقباط فى الصلاة ، فاشتركوا . وجاء المعلم غالى ، كبيرهم ، ومعه كثير منهم ، فجلسوا فى ناحية من المسجد ، حتى أتم المصلون صلاتهم ودعاءهم . ولم تمض ليلة واحدة ، حتى أوفى النيل . وزاد ماؤه ، حتى غطى على المقياس . وبعد ذلك بيوم واحد . نودى فى القاهرة بوفاء النيل . وأطلقت المدافع ، وأقيم الاحتفال المعتاد . ثم يقول الجبرتى إن بعض الأقباط فرح فرحاً شديداً بذلك ، وكان يقول إن الزيادة لم تحصل إلا بخروجهم للصلاة .

ومن الذين ذكرهم الجبرتى من القبط ، ولم يوفه حقه ، المعلم يعقوب ، أو الجنرال يعقوب . ونحن نلخص حياته من الجبرتى ومن مصادر أخرى مختلفة ، فى هذه السطور .

ولد يعقوب فى ملوى حوالى سنة ١١٥٨ [١٧٤٥م] ثم دخل فى خدمة كبير الانكشارية سليمان أغا أيام حكم على بك الكبير . وكان يتولى إدارة الشؤون المالية لسليمان أغا هذا ، فجمع من عمله وسعيه ثروة كبيرة . فلما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، أعانها يعقوب وانحاز إليها وقدم لها مساعدات ذات قيمة .

فقد التحق بجيش الجنرال دزيه قائد الفرنسيين فى الصعيد . وشارك هذا القائد فى مطاردة مراد بك ، وكان يدبر لهذه الحملة ما تحتاجه من مؤن ، ويحارب بسيفه أيضاً معها . فلما عادت الحملة إلى القاهرة ، وكل إليه الجنرال كليبر تنظيم مالية البلاد ، واستخلاص الضرائب والمغارم التى يفرضها الفرنسيون على مصر . وعلى الثائرين من أهلها خاصة . ويقول الجبرتى أن الفرنسيين أطلقوا له فى ذلك حرية واسعة ، وجعلوا له نفوذاً كبيراً بعد ثورة القاهرة الأولى عليهم ، فكان يفعل بأهلها ما يشاء . حتى جمع للفرنسيين ما فرضوا من مغارم ثقيلة .

وألف يعقوب من أبناء طائفته فرقة لمساعدة الفرنسيين، فجمع منهم فى الصعيد

نحو ألفين[1]، واستقدمهم إلى القاهرة « وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية، مميزين عنهم بقبَّع يلبسونه على رؤوسهم، مشابه لشكل البرنيطة، عليها قطعة فروة سوداء » .

ثم هدم يعقوب الأماكن المجاورة لمسكنه في حارة النصارى، خلف الجامع الأحمر . وبنى له قلعة سورها بسور عظيم، ووضع فيها الأبراج وأقام فيها المدافع . وكذلك فعل بما يحيط بحارة النصارى كلها . وأقام على ذلك كله حراساً مسلحين، على النظام الفرنسي .

ولما جاءت الجيوش العثمانية والإنجليزية لإخراج الفرنسيين من مصر، كان يعقوب يعمل قائداً مساعداً للجنرال بليار يدافع معه عن القاهرة حتى لا تدخلها هذه الجيوش .

وقد كافأه الفرنسيون على إخلاصه لهم، فأنعموا عليه بسيف، وجعلوه مستشاراً لهم ومديراً للشئون المالية والضرائب . ثم أنعموا عليه بلقب جنرال . وأظهر هو محبة صادقة لهم في مدى السنوات التي أقاموها في مصر، وبعد خروجهم منها . فقد عرض تبرعه بثلث النفقات، مهما بلغ مقدارها، لإقامة تمثال لصديقه الجنرال ديزيه، عند ما علم بموته . وعند ما حضره الموت كان إلى جواره الجنرال بليار، فقال له يعقوب وهو يحتضر، أرجو أن أدفن إلى جوار ديزيه . وكان في أثناء حملة ديزيه على الصعيد، يقيم له ولضباطه الولائم الفاخرة .

ولما خرجت الحملة الفرنسية من مصر، كان من شروط تسليمها أن يسمح لمن يشاء من الذين عملوا معها، ولو لم يكن فرنسيا، أن يصحبها . فخرج يعقوب معها، وركب البارجة الإنجليزية بللاس، مع الجنرال بليار . وكانت آخر البوارج التي غادرت ميناء الإسكندرية . وبعد يومين من سفرها أصيب الجنرال يعقوب بمرض، ثم مات في صباح يوم ١٦ أغسطس ١٨٠١، ولم تلق جثته في البحر، بل حملت حيث دفن في مرسيليا بمقبرة القديس بطرس . بعد أن شيع جثمانه في احتفال عسكري مهيب .

---

(١) في رواية نقولا الترك، أن عدد هذه الفرقة، كان ثمانمائة .

وقد نشرت الجمعية الجغرافية الملكية فى القاهرة سنة ١٩٢٤ وثائق[1] محفوظة فى وزارة الخارجية البريطانية تتضمن مشروعاً كان المعلم يعقوب قد تحدث به إلى رجال البارجة ، وهى فى طريقها من الاسكندرية إلى مرسيليا . ويتضمن المشروع بنوداً وعروضاً لاستقلال مصر بضمانة الدول الأوربية عامة ، وانجلترا خاصة . ويبيح تكوين جيش أجنبى فى مصر ، وعلى نفقتها ، لرد العدوان عن هذا الاستقلال . حتى يتكون جيش مصرى ، وطنى .

(وقد اختلف المؤرخون فى الحكم على المعلم الجنرال يعقوب حنا . بعضهم يرى أنه كان زعيما وطنيا آثر أن يعين الفرنسيين حتى يخلص وطنه من حكم الأتراك والمماليك . فلما فشل فى ذلك بالحرب . حاوله بالسياسة . وتحدث فى ذلك إلى رجال البارجة الإنجليزية ، تمهيداً للحديث فيه مع كبار الساسة منهم .

وبعضهم يقول : إنه كان رجلا طائفياً أراد أن يكسب لقومه مغانم وجاهاً ، فسلك ذلك السبيل الوعر ، وحارب أهل وطنه .)

وقبل أن نترك الحديث عن المسلمين والنصارى ، وما كان بينهم من مودة ومحبة ، نلخص قصة رواها الجبرتى عن الشيخ عبد الله الشبراوى ، شيخ الأزهر ، وهى تدلنا على ما كان عنده من تسامح وفهم لروح الدين . كما نجد فيما كتبناه عن كفاح الشعب[2] ، عند مقاومة المصريين لنابليون وحملته ، أمثلة رائعة لوحدة عنصرى الأمة ، وما قام بينهما من تضامن وتساند ، إزاء الخطر المشترك ، الذى ألم بوطنهما . ونجد فيما كتبناه عن الأزهر والعلماء ، فى الجزء الثانى ، شيئاً كثيراً من مظاهر الودّ بين أصحاب الديانات المختلفة ، فى مصر ، إذ ذاك .

وهذه هى قصة الشيخ الشبراوى : —

---

(١) نشرت نصوص هذه الوثائق أيضاً فى مجلة مصر الحديثة المصورة ، عدد منتصف مايو سنة ١٩٢٨ .

(٢) فى الجزء الثالث من الكتاب

الشيخ الشبراوى ونوروز

فى سنة ١١٦٦ كان الشيخ عبد الله الشبراوى شيخاً للأزهر ، وكان كبير الأقباط فى مصر رجل اسمه نوروز ، وكان نوروزهذا فىالوقت نفسه، كاتباً لرضوان كتخدا . كما كان صديقاً للشيخ الشبراوى . وأراد بعض كبار الأقباط أن يستفيد من هـذه الصداقة ، فطلبوا أن يؤذن لحجاج بيت القدس منهم ، فى أن يخرجوا من مصر إليه مجتمعين ، فتحدث نوروز فى ذلك إلى صديقه شيخ الأزهر ، فكتب الشيخ له فتوى خلاصتها : أن أهل الذمة لا يمنعون من أداء شعائرهم الدينية ، وزيارة أماكنهم المقدسة .

ويقول الجبرتى : إن كبير القبط هذا قدم للشيخ هدية وألف دينار ، حتى كتب فتواه ، ولعل سخط الجبرتى على هذه الفتوى ، أو على سوء استغلالها ، كما سيجىء بعد ، هو الذى حمله على رمى الشيخ الشبراوى بهذه التهمة ، فإن فتوى الشبراوى هى الرأى الشرعى المطابق لقواعد الإسلام .

فرح نوروز وأقباط مصر بهذه الفتوى فرحاً أخرجهم عن واجب الاتزان والحكمة ومراعاة الظروف وتجنب الزلل ، فعندما حصل كبيرهم على الفتوى أسرعوا فى التجمع ، وتهيئوا للخروج من القاهرة إلى بيت المقدس ، ولكنهم عند خروجهم جمعوا طبولا كثيرة « وخرجوا فى هيئة وأبهة ، وأحمال ، ومواهى، وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ، ومعهم طبول وزمور ، وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم ، وأعطوهم أموالا ، وخلعاً ، وكساوى وإنعامات » .

ومن الطبيعى ، فى مثل ذلك الوقت على الأقل ، أن تثير كل هذه المظاهر شعور الناس وأن تسخطهم ، وتحرك غضبهم ، وقد سخطوا فعلا وغضبوا ، واستنكروا هذا الذى رأوا .

وكان الشيخ الشبراوى بعد ذلك فى زيارة الشيخ البكرى يعوده فى مرض ،

فقال البكرى للشيخ : — ما هذا الذى أمرت به ياشيخ الإسلام . . ؟ وهل رأيت ما فعل القوم ، بسبب هذه الفتوى . . ؟ أما تخشى أن تصير لهم سنة وحقاً يطالبون به فى كل عام ، ويخرجون فى العام القادم بأكثر مما خرجوا هذا العام ، ويصنعون لهم محملا ، ويقال : حج النصارى وحج المسلمين . . ؟

وخرج الشيخ الشبراوى من بيت البكرى ، وكأنه قد ندم على فتواه ، وكأن الناس ألحوا عليه وأثقلوا ، كما فعل البكرى. فخضع لعواطف الجمهور ، وأذن للعامة، كما يقول الجبرتى ، فى الخروج عليهم ، ونهب ما معهم « فاجتمعوا عليهم ، ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ، ونهبوا ما معهم » .

وقد كان الشيخ الشبراوى ، فى موقفه الأخير هذا ، خاضعاً لفورة العامة ، منساقاً مع رغبتهم ، مستسلماً لنزواتهم ، بل مهيجاً لها . وكان يستطيع أن يتصل بصديقه نوروز ، وهو كبير القبط ، ليمنعهم من إثارة شعور الناس . عند خروجهم لبيت المقدس ، بدلا من إذنه للعامة بنهب حجاج النصارى . ولكنه آثر السلامة ، وخشى على نفسه ثورة العامة ، ففعل ما فعل ، ليوجه به غضبهم وجهة أخرى .

الإيمان والثقة بالنفس :

ومن المظاهر التى تستحق التأمل ، فى حياة المجتمع المصرى الذى نؤرخ له ، ظاهرة ضعف الثقة بالنفس . فقد كان المصريون ، حتى كبارهم وقادتهم ، لا يثقون بأنفسهم ، ولا بكفايتهم فى ولاية الأمور العامة .

فقد أظهر أهل هذا الجيل قدراً كبيراً من العناد والصلابة ، فى الحرص على حقوقهم العامة ، ورفع الظلم عن نفسهم ووطنهم ، ودفع العدوان الذى أراد به الإنجليز احتلال مصر . ومقاومة الحملة الفرنسية مقاومة باسلة حتى لم تجد بداً من الرحيل :

وقد فصّلنا ، فى الجزئين التاليين ، بعض مظاهر هذه الصلابة العجيبة النادرة فى حرب الفرنسيين عند غزوهم مصر ، وفى حرب الولاة العثمانيين الذين كانوا يعتدون على شرف الوطن قبل ذلك ، وفى رد الحملة الإنجليزية على رشيد .

وقد كانت هذه الحرب تبدو — للتباين البعيد بين قدرة الشعب ، وقوة الغزاة — أشبه بالانتحار ، ولـكن ذلك لم يضعف من عزمه ، ولم يثنه عن الصمود ، ولم يقلل من عناده وصبره وجلده ، حتى كان له الغلب والنصر فى نهاية الأمر .

وكان الجبرتى ، المصرى الأمين المتزن ، يصف المجاهدين من أهل القاهرة الذين يقاتلون جند نابليون ، بالحجارة ، وقطع الأخشاب والحديد ، وقليل من البنادق ، كان يصفهم « بالحرافيش » و « الزعر » ، لأنه ما كان يصدق ، أو يتوهم ، أن هذه الحجارة والأخشاب فى أيديهم ستغنى أقل غناء ، فى مقاومة المدافع والقنابل فى يد الجند القوى المدرب ، ولـكن الإيمان الذى كان يغمر القلوب ، جعل هؤلاء الزعر والحرافيش ، يحيلون حياة هذا الجند إلى جحيم ومحنة متصلة ، حتى أخرجوهم من وطننا . فالإيمان القوى ، لا يعرف المستحيل ، وقد يجعل من الجنون حكمة .

ومع ذلك ، كان شعبنا ، فى هذه الفترة ، على ما فيه من صلابة وجلد ، ضعيف الثقة بنفسه ، ولا أريد أن أسترسل فى ذكر الأسباب والعوامل . بل أذكر بعض الشواهد ، التى تبرز هذه الظاهرة وتوضحها .

أراد نابليون ، بعد دخوله القاهرة ، فى ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨ ، أن يختار بعض المصريين للوظائف الـكبيرة ، وكان قد وعدهم فى منشوراته من قبل أن يفعل ذلك ، فلما تم اختيار « أعضاء الديوان » الذين يسند إليهم التصرف فى شئون الحـكم المدنية ، طلب إليهم الفرنسيون ترشيح بعض المصريين للمناصب الـكبرى ، كمحافظ القاهرة ، ورئيس الشرطة فيها — الحـكمدار — وأمين الاحتساب — أى المسئول الأول عن التموين والأسعار ، وكانت هذه الوظائف وأمثالها فى يد المماليك والأتراك . ولـكن أعضاء الديوان لم يقبلوا وكانوا تسعة من كبار المصريين ، هم المشايخ : عبد الله الشرقاوى ، وخليل البكرى ، ومصطفى الصاوى ، وسليمان الفيومى ، وموسى السرسى ، ومصطفى الدمنهورى ، وأحمد العريشى ، ويوسف الشبراخيتى ، ومحمد الدواخلى .

لم يرض هؤلاء الكبار المصريون ، ترشيح مصرى لهذه الوظائف . وقالوا إنه لا يصلح لها سوى الأتراك والمماليك . واختار أعضاء الديوان هؤلاء بعض الأتراك والمماليك لهذه الوظائف . فأسندها إليهم الفرنسيون .

وخرج القاضى التركى ، إبراهيم أدهم افندى ، عن طاعة نابليون ، مع أمير الحج المصرى مصطفى بك . فاختار الجنرال دوجا ، فى غيبة نابليون إلى الشام ، ابنه ملا زاده ليكون قاضياً بدله . فلما عاد نابليون إلى القاهرة ، لم يرض مافعله دوجا . فحبس ملا زاده فى القلعة . وطلب إلى العلماء وأعضاء الديوان أن يختاروا قاضياً « مصرياً » تكون له السلطة العليا على قضاة مصر وأحكامها . بدلا من ذلك القاضى التركى الذى كانت ترسله لهم الدولة . وكان نابليون قد علم بخروج جيوشها مع الجيوش الانجليزية ، لحربه فى مصر . فأراد أن يحارب نفوذها الدينى فيها بحرمانها من اختيار القاضى وتعيينه . وهو بذلك يترضى عواطف المصريين أيضاً .

ولكن هذا الإغراء لم يكن مرغباً للعلماء ليختاروا عالماً « مصرياً » للقضاء . بل تمسكوا بملا زاده ، ليبقى قاضياً . وهو فتى صغير ، غير ذى خبرة ولا قدرة . وتشفعوا عند نابليون ليطلق سراحه . ويبقيه حيثما اختاره دوجا ، ولكن نابليون رفض رجاء العلماء وحتم عليهم أن يختاروا ، بالاقتراع ، مصرياً ليكون قاضياً للقضاة . وكانت نتيجة الاقتراع ، بعد ذلك ، بعيدة عن أن تجيء بمصرى . فقد اختير الشيخ أحمد العريشى . وكان سورياً من خان يونس ، قدم إلى القاهرة والتحق بالأزهر .

وأخرج المصريون جيش نابليون من وطنهم . ثم أخرجوا خورشيد باشا ، الوالى التركى الذى رفض أن يقبل عزلهم له ، وقال إنى وليت بأمر السلطان فلا أخرج بأمر « الفلاحين » . واختاروا « سرشسمة » محمداً علياً والياً على مصر . وأراد هذا ، فى أول حكمه ، أن يختار زعيم مصر عمر مكرم نائباً له . ولكن السيد عمر لم يقبل . وكان يستطيع فى ذلك الوقت أن يكون نائباً لمحمد على . وأن ينزعه من الولاية بعد ذلك عند ما يشاء . بقوة هذا الشعب الذى اختاره ، وولاه ، ونصره .

حياة المرأة

كانت الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، في هذا العصر ، يعتورها — كما رأينا — كثير من القلق والاضطراب والبعد عن الاستقرار . وكانت الحياة الفكرية والأدبية — في جملتها — على ما رأينا من التخلف والخضوع لطائفة من التقاليد الضارة والأوهام والجهالات . ويجب ألا ننسى أيضا عامل البيئة وما كان فيها من حجر على المرأة . ولكن هذا كله ، لم يمنع ظهور طائفة من النساء نالت من المكانة الاجتماعية حظا عظيما . وكان بعضهن له أثر ، قليل أو كثير ، في مجرى الأمور العامة .

وقد عاشت في مصر ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، سيدة من أعظم السيدات في تاريخها هذا الذي نسجله . بل لعلها ، في شجاعتها ، وقوة شخصيتها ، ونفسها الكبيرة ، أعظم من كثير من الرجال . ولكن الخاتمة المحزنة ، التي ختمت بها حياة قومها من المماليك ، الذين غدرهم محمد على وفتك بهم في مذبحة القلعة ، وبعدها ، هذه الخاتمة وتلك النهاية ، أسدلتا على اسمها وتاريخها سحبا كثيفة من النسيان والحجب . كما أظلّت ختام حياتها سحب كثيفة من المحن والآلام تحملتها صابرة عزيزة كريمة ، حتى ماتت .

وهذه السيدة العظيمة هي نفيسة المرادية .

نفيسة المرادية

كانت السيدة نفيسة المرادية ، زوجة مراد بك[1] ، جركسية الأصل من بلاد الكرج . وبدأ ظهور أمرها عندما دخلت في حريم على بك الكبير كإحدى سراريه ، فأحبها وأعجب بها وبنى لها داراً تطل على بركة الأزبكية ، في درب عبد الحق .

فلما انتهت حياة سيدها على بك ، تلك النهاية التي رأاها في ترجمته ، زوجها مملوكه الخائن محمد أبو الذهب إلى مراد بك وفي حياة زوجها هذا ، نالت ، في المجتمع

(١) يذكر الجبرتي في العجائب وفي مظهر التقديس زوجا أخرى لمراد ، اسمها فاطمة .

المصرى ، مكانة عظيمة . وتعرضت بسبب إخلاصها له ، وبسبب قوة شخصيتها أيضاً ، لمحن كثيرة . وكانت تعرف القراءة والكتابة . ولها من الخيرات ، الصهريج الذى بنته داخل باب زويله ، وخانا . وكان لهذه السيدة مكان الاحترام والتقدير والإجلال عند العلماء ، والأمراء ، وعند الشعب أيضاً . ولما دخل نابليون القاهرة كانت لها عنده منزلة عظيمة كما كان قواده ، ورجاله كلهم ، يرعون جانبها ويجعلون لها فى تقديرهم حسابا كبيراً ، وإن كانت الأحداث الحربية والسياسية جعلتهم ، فى أوقات كثيرة ، يصادرونها ، ويفرضون عليها المغارم ، ويعتقلونها. لما كانت تبديه من نشاط لا يرضون عنه .

وكانت السيدة نفيسة تعارض زوجها مراد بك ، وهو مطلق السلطان على مصر ، فى مصادرة التجار الأوربيين وإرهاقهم بالضرائب والمغارم . وكانت تبلغ من الجمال حدّا فائقاً ، حتى يقول بعض المؤرخين أن مراد بك اشترط على محمد بك أبو الذهب أن يزوجها له نظير خيانته لسيده على بك . ويبدو أنها لم تكن بعيدة عن ممارسة الشئون العامة أيضاً .

فقد نقل لا كروا ، عن المذكرات التى أملاها نابليون فى سانت هيلين . أن مراد بك لما عاد من البحيرة إلى الجيزة منهزما ، صعد إلى قمة الهرم الأكبر ، وأخذ يتبادل الاشارات مع زوجته نفيسه ، وهى فوق سطح منزلها . وتناقل الناس ذلك فى القاهرة حتى سمعت به ، فخشيت على نفسها من الفرنسيين . فذهبت إلى منزل نابليون وطلبت مقابلته ، فتلقاها بكل احترام . وأكد لها أنه لا يحفل بهذه التهمة التى وجهت إليها . وأنها لو أرادت الاجتماع بزوجها لما تردد فى مهادنته يوما وليلة حتى يلتقيا .

ولعل نابليون أراد بهذه المجاملة ، أن يتخذ من السيدة نفيسة وسيلة للتأثير على زوجها ليقبل الصلح .

ومما يدل على مكانة هذه السيدة ، أن الحكومة الفرنسية أهدت إليها ، قبل حملة نابليون ، ساعة ذهبية مرصعة بالماس اعترافا بأعمالها الجليلة ، وتقديرا لها . وأن

ديجنت كبير أطباء الحملة الفرنسية ، عندما ألف كتابه باللغة العربية، عن مرض الجدرى فى مصر ، أهدى إليها خمسين نسخة منه .

ولما دخل الفرنسيون القاهرة وفر زوجها مراد بك إلى الصعيد . لم تهرب معه ، وبقيت فى قصرها ، وبسطت حمايتها على كثير من نساء المماليك المنكوبين ، وواست كثيرين من الفقراء ، ومن الذين نكبوا فى حرب الفرنسيين من أهل القاهرة . ودفعت كثيراً من المغارم التى فرضها الفرنسيون على المصريين ، فلم يستطع كثيرون منهم دفعها . ونالت بذلك احترام المصريين والأجانب .

وفرض الفرنسيون على نساء البكوات ، ونساء أتباعهم ، نصف مليون فرنك ، فقدمت السيدة نفيسة الساعة التى أهدتها لها الحكومة الفرنسية من حصتها فى الغرامة . فقدرت بأربعة وعشرين ألف فرنك ، وقدمها إلى نابليون أحد رجاله ، فأهداها إلى صديقته بولين فوريس .

وكانت للسيدة نفيسة ثروة عظيمة ، كما رأينا أول هذا الفصل . أقامت يوما لبعض رجال نابليون مأدبة فى دارها . وعند انصرافهم ، بعثت معهم بخاتم ثمين مرصع بالجواهر الغالية ، هدية إلى أوجين بوهارنيه « ابن جوزفين زوجة نابليون » . وكانت قيمة هذا الخاتم كبيرة إلى درجة أغرت الفرنسيين على أن يفرضوا عليها ضريبة فادحة . بدل أن يحمدوا لها مجاملتها وهديتها . فلما شكت إليهم ذلك ، قالوا إن من عنده مثل هذا الخاتم ، يستطيع أن يدفع أكثر مما فرض عليك .

وإقامة نفيسة المرادية لمثل هذه المأدبة ، تدل على أنها كانت سيدة مجتمع ، بالمعنى الذى يعرفه الناس فى عصرنا هذا .

وقد بقى نابليون ، بعد خروجه من مصر ، وبعد أن أصبح امبراطورا ، يذكر هذه السيدة . حتى إنه بعث، وهو فى قمة مجده، أمرا إلى قنصل فرنسا فى مصر ، بأن يبذل كل جهده لحمايتها ، ورعاية أمرها . وكان ذلك فى عهد محمد على .

وعندما قبل مراد أن يفرضه نابليون حاكما على الصعيد ، تحت الراية الفرنسية ، رتب للسيدة نفيسة ، فى كل شهر مائة ألف فضة . وبقيت تنال هذا المرتب من الفرنسيين ، حتى مات زوجها .

وقد لقيت السيدة نفيسة محناً كثيرة . وتعرضت لمخاطر جمة ، بعد هزيمة زوجها وفراره، فى سبيل حماية زوجات المماليك ، الذين كانوا يحاربون معه . ولعلها بذلك كانت تثير فيهم روح العناد والمقاومة . وتبقى على إخلاصهم لزوجها ، ومعونتهم له .

يقول الجبرتى ؛ فى حوادث شهر ربيع الثانى من سنة ١٢١٣، إن الجنرال دبوى قائمقام نابليون ، أرسل يطلب إليها أن تحضر زوجة عثمان بك الطنبرجى — من كبار المماليك أنصار زوجها . وقد اختاره الفرنسيون كبيرا على الأمراء المرادية بعد وفاة مراد بك — وكان السبب الذى جعل دبوى يطلب إليها ذلك . أنهم ضبطوا تابعا لها يقوم بالسفارة بينها وبين زوجها ، وأنها طلبت إلى تابعها هذا أن يحمل إلى زوجها ثيابا ، وأموالا . فلما سمعت السيدة نفيسة ما طلبه دبوى . أرسلت إلى العلماء تستنجدهم فحضر إليها منهم الشيخان محمد المهدى ، وموسى السرسى . ولـكنهما لم يستطيعا منعها من تلبية ما أمر به القائد . فذهبا معها إلى دبوى ، ليحضرا سؤالها . فلما انتهى النهار طلب إليه الشيخان أن يأذن لها بالذهاب إلى بيتها على أن تعود فى الغد ، فلم يأذن . فقالا له : — دعها تذهب ونحن نبيت بدلا منها ، فرفض . فلما عجزوا ، تركوها فباتت عند الفرنسيين . ومعها جماعة من النساء المسلمات ، والإفرنجيات . وفى اليوم التالى ، ذهب العلماء إلى القاضى ، وكتخدا الباشا ، وذهب الجميع إلى نابليون فحدثوه فى شأنها . فأمر بإحضارها ، وأطلق سراحها ، فخرجت مع القاضى وذهبت إلى منزلها . ولم يستطع دبوى أن يثبت عليها دعواه . ولـكنهم فرضوا عليها ثلاثة آلاف ريال

وبعد ذلك نادى الفرنسيون على زوجات الأمراء ، بأن يظهرن مخبئات أزواجهن ، أو يصالحهن على أنفسهن . فصالحت السيدة نفيسة ، على نفسها ، وعلى نساء الأمراء من أتباعها ، بمائة وعشرين ألف ريال . وتشير بعض وثائق الحملة الفرنسية إلى أن ما فرض على السيدة نفيسة ، من الغرامات ، بلغ ستمائة ألف فرنك .

ومات مراد ، ثم خرج الفرنسيون من مصر . فبدأت الأيام تميل بهذه السيدة العظيمة . حيث عاد الأتراك إلى السيطرة على القاهرة ، ونفوسهم مملوءة بالحقد والموجدة على المماليك . فنالها من ذلك الحقد شر عظيم . وكلما رأى الأتراك منزلتها

باقية فى نفوس العلماء والناس ، ومحبتهم لها لم تتأثر بفقد زوجها وتغير الأيام عليها ، كلما أمعنوا فى الأساءة إليها وامتهانها .

وكان أحمد باشا خورشيد ، أشد هؤلاء الولاة من الأتراك قسوة عليها ، وغلظة معها . ولكنها عرفت كيف تقف أمامه شامخة مرفوعة الرأس . بل عرفت كيف تخزيه وهو صاحب الحكم والسلطة المطلقة ، وهى سيدة هزم زوجها ومات ، وتركها مهيضة الجناح . ليس لها قوة ، إلا قوة نفسها ، وعظمة شخصيتها .

يقول الجبرتى ، فى حوادث اليوم الحادى عشر من شهر رجب سنة ١٢١٩ ، إن خورشيد باشا أرسل الوالى والمحتسب إلى بيت السيدة نفيسة وطلبها إليه . فذهبت معهما ، ومعها امرأتان ، فأصعدهن إلى القلعة . فلما دخلت السيدة نفيسة على الباشا قام إجلالا لها ، وأجلسها . ثم تحدث إليها لائما ، ومتهما . فقال إن جارية لها ، اسمها منوّر ، كانت تتحدث إلى بعض أصحاب النفوذ ليسعى فى خلاص المماليك ، ومعونتهم ، وكانت تمده وتمنيه بالأموال ليقبل رجاءها . فقالت له نفيسة ، إن ثبت أن جاريتى فعلت ذلك ، فأنا المأخوذة به ، دونها ، فأخرج الباشا من جيبه ورقة يشير بها اليها . كأنما يريد أن يفهمها أنها دليل التهمة . فقالت له أرنيها حتى أقرأها . فإنى أستطيع أن أقرأ ، فأدخلها فى جيبه .

فقالت له السيدة : لقد عشت فى مصر هذا الدهر الطويل ولى من المنزلة والمكانة ، ما يعرفه الكبير والصغير . « والسلطان ، وعظماء الدولة رجالا ونساءً ، يعرفونى ، ويعرفون قدرى . حتى الفرنسيون ، أعدائى وأعدائك ، لم أر منهم إلا التكريم والاحترام . أما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم . ثم قالت له : — لأى سبب تخرجنى من بيتى وترسل إلىّ الوالى لأحضر إليك .. ؟ » فأخذ خورشيد باشا يتلطف معها فيقول : إن الوالى هو أكبر رجالى ، وقد أرسلته إليك من باب التكريم والتعظيم : ثم اعتذر إليها وطلب منها الذهاب إلى بيت الشيخ السحيمى بالقلعة ، فذهبت وبقيت عنده فى حراسة من الجند . فلما عرف الناس ذلك حزنوا ، وانزعجوا . وركب القاضى ، والسيد عمر مكرم ، والشيخ السادات ، والشيخ الأمير ، وغيرهم ، يقصدون خورشيد باشا . فلما تحدثوا إليه فى أمرها ، قال لهم إنى أنزلتها بيت

الشيخ السحيمى ، مكرمة ، حسما للفتنة . ثم ذكر لهم ما تحدث إليها فيه من أمر جاريتها ، منور . فحاجّوه فى ذلك ، ثم اختلا بها الشيخان الفيومى والمهدى يسألانها ، فأنكرت ، وقالت إنه يريد أن يصادرنى فى مالى ، ولم يبق لى مال . ثم عادوا إلى خورشيد باشا ، وخاطبه الشيخ الأمير خطابا شديداً . ونفر من مجلسه مغضبا ، فاستبقاه خورشيد ، وانتهى الأمر على أن يأذن لها فى البقاء فى منزل الشيخ السادات .

ولم ينته الشهر نفسه ، حتى أرغمها خورشيد على دفع ما يريد من المال . كما أرغم نساء المماليك أيضا على مثل ذلك . حتى باع أكثرهن متاع بيوتهن .

ولقيت السيدة نفيسة ، بعد ذلك ، أشد المحن والكوارث ، على يد محمد على . بعد أن توطد حكمه . فقد صادر ما بقى عندها من مال وعقار . وعاشت بقية أيامها فى فقر وجهد . ولكنها لقيت ذلك كله ، بصبر دونه صبر الرجال . ولم تفارقها مروءتها ، ولا شمم نفسها ، ولا إباؤها .

ومما يدل على أنها بقيت شامخة النفس ، حتى بعد هذه المحن والكوارث ، ما رواه الجبرتى عن موقفها من زوجة محمد على ، عند ما جاء بها زوجها إلى مصر ، أول مرة .

ففى صبح يوم الأربعاء السادس عشر من ربيع الثانى سنة ١٢٢٤ ، وصلت زوجة محمد على ، ومعها ابنها إسماعيل وكثير من أهلها وأهل زوجها . وكان ابنها إبراهيم قد ذهب لملاقاتها فى الإسكندرية . وعند وصولها إلى القاهرة ، خرج محمد على لملاقاتها فى ساحل بولاق . وأمر نساء المماليك بالنزول لملاقاتها أيضاً . فذهبت منهن نحو خمسمائة ، ركبن الحمير ، واعتذرت نفيسة المرادية من الذهاب لملاقاة زوجة محمد على ، متعللة بالمرض .

وقد يفهم من سياق ما ذكره الجبرتى بعد ذلك ، أن محمداً عليا لم يقبل عذرها ، وأرغمها على النزول لملاقاة زوجته .

وماتت نفيسة المرادية عجوزا ، فقيرة ، عزيزة ، بعد أن كانت ملكة على مصر ، يوم الخميس ، العشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣١ [آخر أبريل ١٨١٦م]

فى بيتها الذى بناه لها على بك . وبعد موتها استولى محمد على على هذا البيت ، وأسكن فيه بعض أكابر دولته .

وقد ظلت هذه السيدة العظيمة ، حتى فى أيام محنتها ، ترعى بمعروفها وبرها ، أسراً كثيرة أعنتها الدهر بعد يسر .

ومن المواقف الكريمة ، التى يسجلها الجبرتى لنساء ذلك العصر ، ما فعلته زوج إبراهيم بك ، بعد موته . فقد أبى عليها وفاؤها أن تتركه ، بعد موته ، يدفن فى غير قبره الذى أعدته له . فاستأذنت محمدا علياً فى أن ترسل إحدى نسائها إلى دنقلة ، حيث مات ، فتحضر جثمانه ، فلما أذن محمد على لها فى ذلك ، سافرت المرأة فحضرت به فى تابوت ، بعد موته بستة أشهر . وأقامت له زوجه ، عند حضوره ، جنازة . وكفارة ، ودفنته إلى جوار ابنه وابنها مرزوق .

ويقول الجبرتى إنه سمع أن محمدا عليا أعان زوجة إبراهيم هذه ، على إحضار جثمانه . فأمر حكام الأقاليم بمعونة من اختارتها لإحضاره . وأعطاها ، عند سفرها قدرا من المال .

كما ذكر أن نساء العرب كن ، فى الوقائع والحروب ، يذهبن إلى ساحتها ، فيجمعن قتلاهن من الرجال ويعدن بهم إلى أهلهن .

ومن النساء اللواتى ذكر اسمهن فى تاريخ هذه الفترة ، السيدة زبيدة ، التى تزوجها الجنرال جاك منو ، بعد أن أسلم وسمى نفسه عبد الله . وزبيدة هذه كان أبوها السيد محمد البواب ، من أعيان رشيد وكان منو حاكما عليها .

ويقول الجبرتى إنها كانت قبل زواجها منه ، زوجا لرجل اسمه سليم أغا نعمة الله ، ثم طلقها . وقد تم زواجها من الجنرال منو يوم ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ « ٢ مارس ١٧٩٩ م » .

وبقية قصتها ، التى لم يذكرها الجبرتى ، أنها وقعت فى أسر الإنجليز عند دخولهم القاهرة مع جيش الدوله العثمانية . فطلبت من الجنرال هتشنسون ، قائد هذا الجيش ، أن يبعث بها وبولدها من منو — وكان اسمه سليمان — إلى زوجها فى الإسكندرية ،

فبعث بها إليه . وأرسلها زوجها منو من الأسكندرية إلى فرنسا على إحدى السفن العائدة إليها . ثم التقى بها بعد ذلك . ولم تطب حياتها معه بعد ذلك أبداً . فقد هجرها وأساء عشرتها، وتركها فى مدينة تورينو ، بإيطاليا ، واتخذ بعض الراقصات خليلات له . وبقى ينا كدها ويسىء إليها حتى ماتت . وقد زاد الجبرتى ، فى مظهر التقديس ، أن زواج منو من السيدة زبيدة كان « غصبا من أهلها » .

أما حياة المرأة عامة . فقد كان من الطبيعى ، فى مثل هذه الحياة القلقة التى كانت تعيش فيها مصر معظم هذه الفترة التى أرخها الجبرتى ، كان من الطبيعى أن يقع ظل من القلق على حياة المرأة عامة .

فكان مألوفا ، فى كثير من الأوقات ، أن يستولى الغالب من المماليك ، أو الجند ، أو الرؤساء ، على زوجات المغلوبين وسراريهم . سواء رضين أم كرهن . ونرى ، فى بعض الأوقات أنهن — وهن حرائر — يبعن بيع الإماء ، أو يهدين إلى أصحاب النفوذ . وأحيانا كان الأفاقون من الجند يستولون على زوجات الأمراء ، بعد هزيمتهم . كما يستولون على بيوتهم ، بالقهر والغلبة .

وكان نساء القاهرة يرغبن رغبة قوية ، فى الزواج من المماليك . ويأبين ، إباءاً شديدا ، الزواج من الأتراك العثمانيين . مهما يكن لهم من ثروة ونفوذ .

يقول الجبرتى إنه لما بدا من محمد على ميل إلى صلح الألفى ، وبدأ مماليكه يظهرون أنفسهم ، بعد التخفى ، ظهرت كذلك كثيرات من نساء المماليك ، يتنافسن فى الزواج من الألفية . وكن يقدمن لهم الكساوى ، ويؤثثن لهم البيوت ، وينفقن النفقات الكثيرة لييسرن لهم الزواج منهن . وكان ذلك يثير الغيظ فى نفوس الأتراك . « فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدنى امرأة ، ليتزوج بها ، فلا ترضى به ، وتعافه ، وتأنف قربه . وإن ألح عليها استجارت بمن يحميها منه ، وإلا هربت من بيتها واختفت شهوراً . وذلك بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك أجابته فى الحال » .

وكانت لبعض نساء المماليك شخصية كبيرة ونفوذ غالب . من ذلك أن زوجة الأمير على بك قطامش ، تزوجت بعد موته مملوكا لها ، بعد أن أعتقته ، ثم ولته صنجقا . فكان يسمى « صنجق ستّه » . وكان لهذه السيدة من زوجها قطامش بك أمير اسمه عمر بك .

وكانت المرأة ، فى ذلك العصر ، تعرف التظاهر ، والتجمهر ، والتحريض على الاضراب . بل استعمال العنف مع الرجال ، فى سبيل الدفاع عن مصالحها .

ففى الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٩ ، قدم إلى الجامع الأزهر جمع كبير من النسوة اللاتى لهن أراض بالالتزام عند محمد على . فلما دخلن الجامع صرخن فى وجوه العلماء ، وأبطلن دروسهم . ومزقن أوراقهم ومحافظهم ، وبدّدن كتبهم « وملازمهم » . فتفرق العلماء وذهبوا إلى بيوتهم . وعند ذلك انصرفت النساء ، وهن يقلن : سنجىء كل يوم ونبطل الدروس ، ونمزق الكتب . حتى ننال حقوقنا . وكان من أثر مظاهرة النساء ، واعتدائهن على العلماء ، أن طلب نائب محمد على بعض المشايخ ليعرف منه ماذا أغضب النسوة حتى فعلن ذلك . ونجد ، فى حوادث ذى القعدة من سنة ١٢١٧ ، مظاهرة أخرى للنساء فى الأزهر ، أبطلن فيها دروس العلماء .

ونرى للنساء أيضاً ، غير هذه المظاهرة ، بعض أنواع من المشاكة فى الأمور العامة ، نجدها فى صفحات أخرى من الكتاب .

وفى المحرم سنة ١٢٠٠ ، صدر أمر بمنع النساء من الجلوس أمام حوانيت الصاغة والأسواق ، إلا بقدر الحاجة . ولم يقل الجبرتى هل كانت النسوة اللواتى يجلسن يمارسن التجارة ، أم كن مشتريات يطلن الجلوس .

ونجد لبعض النساء ذكرا فى فعل الخير . فالأميرة الحاجة صالحة ، زوج الأمير أحمد كتخدا عزبان ، أنشأت صهريجا فى حارة الشبراوى ببولاق . قريبا من مسجد أبى العلاء ، ووقفت عليه ، فى سنة ١١٢٨ . قدرا من المال ، والغلال فى كل عام

والأميرة آمنة خاتون ، بنت الأمير حسن جوربجى مستحفظان ، وقفت قسما من أملاكها ، فى سنة ١١٤٢ على جامع الكخيا ، الذى أنشأه زوجها الأمير عثمان كتخدا القازد غلى .

وكان إهداء خاتم للفتاة عند خطبتها ، من العادات المألوفة فى ذلك العصر .

وقد تأثرت المرأة القاهرية ، إلى حد غير قليل ، من الناحية الخلقية ، بوجود الفرنسيين فى مصر . وسنرى ذلك عند الكلام على أثر الحملة الفرنسية فى الحياة الاجتماعية .

وكذلك نرى ، عند الكلام عن هذه الحملة ، أن نساء الأسكندرية والقاهرة والريف . حاربن ضد نابليون حربا عنيفة واشتركن ، بقسط غير قليل ، فى شرف الدفاع عن أرض الوطن .

وفى صفحات متناثرة مما كتبه الجبرتى نعرف ، عن غير قصد منه ، بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية الأخرى . نعرف مثلا أن أطباء من الأوربيين كانت لهم عيادات يمارسون فيها العلاج فى القاهرة . وكانت لهم فيه شهرة كبيرة . فهو يقول فى حديثه عن يوسف باشا حاكم الشام المعزول ، الذى استجار بمحمد على ، إنه فى آخر عمره ، أصيب بداء الصدر . فقصد إلى الأطباء الأفرنج يطبّون له ، ويطالع فى كتب الطب ، مع بعض الأزهرين الطلبة من المجاورين . ويقول أيضاً إنه فى يوم الأحد العشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٣٢ ، طاف فى شوارع القاهرة منادٍ أعمى ، يقوده آخر ، يقول فى ندائه إن من كان مريضا ، أو به رمد ، أو جراحة ، فليذهب إلى خان بالموسكى ، فيه أربعة من حكماء الأفرنج يداوونه ، من غير مقابل . فتعجب الناس من ذلك وتناقلوه ، وسعوا إلى هؤلاء الحكماء . وقد ذكر الجبرتى كيفية الدخول إلى هذه العيادة الطبية ، والطريقة التى كان يسلكها الأطباء الأربعة فى الكشف على المرضى ، وصرف الدواء لهم . وقال إن الناس استراحوا لهم ولطريقتهم . ولم يكونوا يأخذون من المريض إلا ثمن الدواء . وهو قليل ، بين قرش ، وخمسة . ثم تعرض لغيرهم من الذين « يدعون التطبيب » من الإفرنج أيضا ، فقال إنه إذا دعى أحدهم

لعلاج مريض . فأول ما يبدؤه ، قبل نقل قدمه ، الدراهم ، بحسب ثروة المريض .

وبعد الزيارة يطلب قدراً من المال ، فى نظير العلاج ، وربما هوّل على المريض مرضه ، ليزيد فى أجره ، فاذا تم الاتفاق على أجر العلاج ، طلب الطبيب نصفه مقدماً . ثم يفرض لنفسه أجراً على كل زيارة لمريضه . ثم يعالجه بعد ذلك بما استحدث عند الأفرنج من الأدوية . يقدمها إليه بأسماء أفرنجية ، فى قوارير الزجاج اللطيفة المنظر . فإن شفى الله المريض ، أخذ الطبيب بقية أجره . وإن مات ، طالب الورثة به ، فإن جادلوه ، قال لهم إنى لا أضمن أجله ، وليس على الطبيب منع الموت ، ولا تطويل العمر . وكانت تعرف أيضاً التذكرة الطبية « الروشتة » .

ومن كبار الأطباء الذين كانوا فى القاهرة ، قبل الحملة الفرنسية ، طبيب سويدى ، هو مسيو لمار ، الذى اختاره نابليون عضواً فى الديوان الثانى . ضمن الأعضاء الأوربيين .

ويذكر الجبرتى الشهور الإفرنجية ، بأسمائها المعروفة عند أهل الشام ، ويسميها الشهور الرومية ، فيقول شهر آيار ، عن شهر مايو . ونجد أهل القاهرة ، مثل أهل الريف ، يؤرخون ، فى بعض الأحيان ، بالتاريخ القبطى .

وكان أهل القاهرة يأكلون ، فى عيد الفطر ، السمك المملح ، كما هى عادة كثيرين منهم إلى الآن . وكانت شوارعها تكنس ، وترش بالماء . حتى قبل قدوم نابليون وأمره الناس بذلك ، كما كانت تضاء فيها الفوانيس ليلا . ولكن ظروف الناس ، فى بعض الأحيان ، كانت تجعلهم لا يحرصون على ذلك ، ولا يلتزمونه .

وكانت بعض الصناعات التى تتصل بالحرب ، ما تزال باقية فى مصر . فهو يترجم ، فى الجزء الأول ، للأسطى إبراهيم السكاكينى ، ويقول إنه كان ذكياً ، متقناً متفنناً . يصنع السيوف والسكاكين ، ويجيد سقيها ، وجلاءها ، ويصنع قراباتها ،

ويسقطها بالذهب والفضة . ويصنع القاشط الجيدة، والبركارات . وكان حانوته بجوار جامع المرداني في حي الدرب الأحمر . ومات في سنة ١١٧١ .

وكانت توجد مصانع للذخيرة ، تصنع في بعضها المدافع والقنابل . فهو يقول عن حروب محمد بك أبو الذهب في الشام ، إنه أخذها مراكب الذخيرة والجبخانة والمدافع والقنابر — القنابل — والمدفع الكبير المسمى «أبو مايله» «الذى سبكه في العام الماضي» . ولعل سبب هذه التسمية أنه كانت له « ماسورة » مائلة .

ونعرف مما ذكره الجبرتي ، عرضا ، أن المحلة الكبرى كانت مدينة صناعية في ذلك الوقت . وكانت مشهورة بالمنسوجات القطنية ، كما هو شأنها الآن ، وكانت تنسج فيها أيضا مقاطع الحرير ، والأمتعة . وكانت المحلة هي عاصمة إقليم الغربية .

كما نجده يسمى الميدان الذى يعرف الآن «بالعتبة الخضراء» العتبة الزرقاء . وكانت توجد محكمة كبيرة في القاهرة، ومحاكم أخرى يسميها « المحاكم الخارجة » في باب الخلق ، وباب سعادة ، وباب الشعرية ، وباب زويلة ، وطيلون، وباب الفتوح، وقناطر السباع ، وبولاق ، ومصر القديمة .

الأثر الأجتماعى للحملة الفرنسية

وهناك فترة قصيرة من هذا الزمن الذى أرخ له الجبرتى . كانت ذات أثر كبير فى حياة مصر الاجتماعية . بل فى جميع نواحى الحياة فيها . ولكنا نقتصر على موضوعنا فى الأثر الاجتماعى والفكرى . وهذه الفترة القصيرة ذات الأثر الكبير ، هى فترة الأحتلال الفرنسى لمصر .

وكما أنى لن أذكر جميع نواحى الحياة التى تأثرت بدخول الفرنسيين مصر ، وإقامتهم فيها . كذلك لن أذكر جميع الآثار الفكرية والأجتماعية لذلك . بل أذكر تلك التى أدركها الجبرتى وسجلها . حتى لا أبعد عن موضوع الكتاب .

على أن الجبرتى سجل من آثار هذه الحملة الفرنسية، فى حياة مصر الاجتماعية، شيئاً غير قليل ، لا فى كمه ولا كيفه .

ذكر من هذه الآثار أشياء مدح بها الفرنسيين ، وشكرها لهم ، وأثنى عليهم فيها . وذكر لهم أشياء عابها عليهم ، أو عاب على أهل وطنه من المسلمين ، أو من المصريين ،أن يتأثروا بها، وأن يقلدوهم فيها . وذكر أشياء لمجردالتسجيل والرواية. لم يمدح ولم يقدح ولم يبد رأياً .

المرأة المصرية

(وكان أبرز هذه الآثار التى سجلها الجبرتى ، ما تأثرت به حياة المرأة المصرية أو القاهرية ، بوجود الفرنسيين فللفرنسيين فى هذه الناحية تقاليد اجتماعية فيها كثير من التسامح والتلطف لم تعرفه الحيـاة المصرية ، فلما عرفته كان لها على النساء ، والرجال أيضاً ، إغراء شديد .

(عرفت القاهرة الخلطة العلنية بين الرجل والمرأة . فقد أنشـأ الفرنسيون متنزها ، ، فى غيط النوبى ، بالأزبكية ، وصـفه الجبرتى بأنه « أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة ، يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة ، فى أوقات مخصوصة . وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه . أو يكون مأذوناً وبيده

ورقة » أى تصريح بالدخول . ومما لا شك فيه أن هذه الأماكن لم تكن قاصرة على الفرنسيين . بل كان يغشاها كذلك بعض المصريين .

وعرفت القاهرة ، لأول مرة ، المسرح والتمثيل . وقد ذكر أن حفلاته كانت تقام فى كل عشرة ليال مرة واحدة ، لمدة أربع ساعات . يتفرجون فيها « على ملاعيب يلعبهـا جماعة منهم ، بقصـد التسلى والملاهى » . وكان ذلك باللغة الفرنسية .

وقد لقيت هذه الحياة الاجتماعية المرحة قبولا عند أهل القاهرة . حتى إن الحاكم العسكرى الفرنسى لحى المشهد الحسينى . أباح لتابع له ، ولترجمانه — وكان واحد منهما يهودياً ، والثانى من مدينة حلب ، كان أسيراً فى جزيرة مالطة ففكه نابليون أسره ، مع من كان فيها من أسرى المسـلمين ، واستخدمهم فى مصر والشام — أباح الحاكم الفرنسى لتابعيه هذين أن يؤسسا « قهوة » فى هذا الحى . كان الناس يجلسون فيها إلى وقت من الليل . وأباح لهم فيها « التسلى والخلاعات » حتى فتن بها أهل المشهد الحسينى « ووافق ذلك هوى العامة . لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة ، وتلك هى طبيعة الفرنساوية » . فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث ، واللعب والمازحة . ويحضر معهم ذلك الحاكم ، ومعه زوجته ، وكانت مصرية من « أولاد البلد المخلوعين » . وفى هذه القهوة عرف الحاكم الفرنسى أن المصريين يحتفلون فى كل عام بمولد الحسين . وأنهم يخشون إقامته عام ذاك ، لوجود الفرنسيين . فأذن لهم فى أن يقيموه ، بل ألح عليهم فى ذلك ، فأقيم .

وفى حى الخليفة ، أنشأ تابع الحاكم الفرنسى قهوة أيضـاً . وكان هذا التابع مولعاً براقصة . فـكان يجىء بها ومثيلاتها إلى القهوة . ثم يجتمع مع كثيرين من أضرابه من المصريين « وترقص لهم تلك المرأة فى القهوة ليلا ونهاراً ، وتبيت معهم فى البيت . ويصبحون على حالهم » . ولم يكن هذا الأثر قاصراً على عامة الناس والسوقة . فقد كان لبعض الأمراء زوج اسمها « هوى » فلمـا حضر الفرنسيون « خرجت عن طورها » كما يقول الجبرتى ، وتزوجت نقولا القبطان .

وكان صاحب حظوة كبيرة عندهم . فلما خرج الفرنسيون اختفت . ثم عاد زوجها فأظهر العفو عنها ، حتى ظهرت . ثم قتلها خنقاً .

(وكذلك تزوج كثير من الفرنسيين « بنات الأعيـان » . وكانوا يظهرون إسلامهم عند العقد . ثم لبس أزواجهن هؤلاء ملابس الفرنسيات ، وسلكن سلوكهن . ونهجن نهجهن فى الحياة والمعيشة .)

وقد لخص الجبرتى هذا الأثر فى حياة المرأة المصرية ، تلخيصاً واضحاً قوياً ، فى هذه السطور : — « ومنها - أى من حوادث سنة ١٢١٥ — تبرج النساء ، وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء • وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم . كانوا يمشون فى الشوارع ، مع نسائهم ، وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى ، والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ، ويسوقونها سوقاً عنيفاً ، مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة ، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء ، من النساء الأسافل ، والفواحش . فتداخلن معهم ، لخضوعهم للنساء ، وبذل الأموال لهن . وكان ذلك التداخل ، أولاً ، مع بعض احتشام ، وخشية عار ، ومبالغة فى إخفائه فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر[1] ، وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزى نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال . فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات ، غيرهن من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلاد ، من الذل والهوان ، وسلب الأموال ، واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيس ، ومن والاهم ، وشـدة رغبتهم فى النساء ، وخضوعهم لهن ، وموافقـة مرادهن ، وعدم مخالفـة هواهن — ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها[2] — فطرحن الحشمة والوقار ، والمبالاة والاعتبار ، واستملن

(١) تجد تفصيل ذلك فى الجزء الثالث من هذا الكتاب

(٢) حذائها

نظرائهن ، واختلسن عقولهن ، لميل النفوس إلى الشهوات ، وخصوصاً عقول القاصرات[(١)] » .

ويشير نقولا الترك إلى ذلك أيضاً . فيقول إنه — بمقتضى شروط الصلح التى خرج بها الفرنسيون — أبيح لكل راغب فى السفر معهم أن يسافر . وأُوجب على السلطات التى حلت محل الفرنسيين فى الحكم ، أن تمكنهم من ذلك . ويذكر كثيرين ممن خرجوا معهم . ثم يقول « وتهيأ معهم عدة أنفار من عامة الناس ، ونساء كثيرات من الاسلام — أى من المسلمين — كن متزوجات للفرنساوية ، واستعدوا للسفر معهم[(٢)] بل يقول نقولا ما هو أصرح من ذلك وأفصح ، وهو بنصه : « وخرجت النساء خروجا شنيعاً مع الفرنساوية : وبقيت مدينة مصر مثل باريس ، فى شرب الخمر ، والمسكرات . والأشياء التى لا ترضى رب السماوات » .

ولا نستطيع أن نسجل أثر الحملة الفرنسية على حياة المرأة القاهرية ، من غير أن نذكر قصة البكرية .

زينب بنت البكرى

كان السيد خليل البكرى ، أبو هذه الفتاة ، واحداً من أفراد هذه الأسرة العريقة ، ذات المكانة العالية فى المجتمع المصرى . ونجد شيئاً من حديثه فى موضع آخر من هذا الجزء .(فلما قدم الفرنسيون ، كان صديقاً لهم ، قريباً إليهم ، ملتصقاً بهم لصوقاً شديداً . عندما دخل نابليون القاهرة عائداً من غزوة الشام ، أهدى إليه خليل هذا جواداً عربياً أصيلا ، له سرج مطرز بالذهب والياقوت واللؤلؤ . وأهداه معه رستم المملوك ، الذى سافر مع نابليون وعاش معه فى فرنسا . وكان له شأن عظيم بعد ذلك فى حياة نابليون . كما أهدى البكرى لنابليون عدداً من الهجن القوية السريعة ، وعدداً من الجوارى البيض والسود ، والشيلان الكشميرى ، والأسلحة الذهبية المحلاة بالجواهر الكريمة ، والأقمشة الحريرية ، من صناعة الهند والصين ، وكثيراً من العطور النادرة ، والصندل والعود)

---

(١) مانقتبسه من الجبرتى ، نورده بنصه ، وبأخطائه أيضاً . وكذلك نقولا الترك .

(٢) ص ٢٢٢ من كتاب « ذكر دخول الفرنساوية ، الديار المصرية والأقطار الشامية طبع باريس سنة ١٨٣٩

وقد وصف مسيو بوسليج[1] السيد خليلا البكرى فى رسالة منه إلى نابليون بأنه رجل هيّاب ، وجل . وقد أعفاه الفرنسيون من الضرائب والمغارم التى فرضوها على أهـل القاهرة (وذكره نقولا الترك على أنه من أخلص أصدقاء الفرنسيين . وقد خلع من نقابة السادة البكرية عندما عادت السلطة إلى العثمانيين)

وقال الوالى العثمانى فى تبرير ذلك : « إن الشيخ خليـل لا يصلح لسجادة الصديق » .

(وكانت للشيخ بنت ، يقال إن اسمهـا زينب[2] لا أجد فى وصفها كلمة أليق مما عبر به الجبرتى . فقد قال إنها «ممن تبرج مع الفرنسيس . وخرجت عن طورها معهم» ، وقال مؤرخون آخرون أفصح وأوضح من هذا التعبير اللبق المهذب، الذى وصفها به الجبرتى . قالوا إنها كانت عشيقة نابليون . وإنها كانت تسقى الفرنسيين الخمر ، وكان أبوها يشرب معهم !)

فلما خرج الفرنسيون من القاهرة . وعاد الحـكم فيهـا إلى العثمانيين ، طلبها الوالى من بيت أمها . وأحضروا أباها أيضاً . « فسألوها عما كانت تفعل . فقالت إنى تبت من ذلك . فقالوا لأبيها : ما تقول أنت . . . ؟ فقال : — أقول إنى برىء منها . فكسروا رقبتها » . أى قتلوها .

وقد خلت سجادة البكرية ، بوفاة أخيه أحمد ، ولـكنه لم يلها « لما فيه من الرعونة ، وارتـكابه أموراً غير لائقة » . ولـكن الفرنسيين ولوه نقابة جميع الأشراف ، بدلا من السيد عمر مكرم .

وقد لقى خليل البكرى من قسوة الثائرين عليه ، فى القاهرة ، شيئاً كثيراً ، نجد تفصيله فى الجزء الثالث من كتابنا .

ويبدو أن أثر هذه الحياة الجديدة التى شهدها أهل القاهرة عند الفرنسيين ، كان قويا بالغ الشدة . فقد ذكر الجبرتى ، وغيره ، أن محترفات البغاء فيها كثر عددهن ،

---

(١) المدير المالى للحملة الفرنسية

(٢) (يشكك على باشا مبارك فى خططه ، فى قصة زينب هذه . ولـكنه لا يذكر سبباً لهذا التشكيك . ولعله الحرص على كرامة هذا البيت العريق).

حتى أصدر الديوان أمراً بمنع دخولهن القاهرة وضواحيها شهراً . وفرض عقوبة الإعـــدام على من تدخلها منهن ، أو من يدخلها . وكان سبب ذلك انتشار الطـاعون .

وليس غريباً أن يكون ذلك . فقد غلبت مصر على أمرها أمام جيش نابليون . والحروب لها معقّبات . وللجيوش غزوات ونزوات ، غير غزوات الحرب · وخاصة فى بلدٍ فيه من الفقر واضطراب الحياة ، مايجعل كل أمر هيّناً ، وكل عسير عزيز ، من العفة والشرف ، ميسورا قريب المنال .

(وليست العفة وحدها هى التى هان أمرها عند كثير من الناس ، إذ ذاك . فقد خرج بعضهم من الإسلام إلى النصرانية « لـما رآه من تقدم من يخـدم الفرنسيس من النصارى واليهود» كما يقول الجبرتى .

وللشيخ حسن العطار بيت من الشعر ، يصفّ فيه حال الجنود الفرنسيين وبعض سلوكهم فى القاهرة هو : —

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم فى مصرنا ، بين حمار وخمار

فقد كان لهم ولع شديد بركوب الحمير، حتى ليقضى بعضهم يومه كله على ظهرها . كما كان فيهم إسراف شديد أيضاً فى شرب الخمر ، وكان بعض المصريين أو القاهريين يتأثر بذلك ، من غير شك .

فى التنظيم والإدارة

ويسجل الجبرتى شيئاً غير قليل ، من الأعمال ، أو التنظيمات ، التى كان لها أثر طيب فى حياة أهل مصر . فمن ذلك عنايتهم بالصحة والنظافة . فقد أمروا ألا يدفن أحد من الموتى داخل القاهرة ، وخصصوا لذلك أماكن فى خارجها . وأمروا بالتبليغ عن المرضى ، عند وجود وباء ، وعدم الإنتقال من مكان موبوء . ومن يخالف هذين الأمرين يقتل ، ومنعوا الناس من دخول القاهرة مدة الوباء ، ومن دخل يقتل ، ولو كان فرنسياً . وحتّموا أن يكشف الطبيب على كل مريض ، وأقاموا حجراً صحياً فى بولاق · يتلقون فيه كل قادم للقاهرة حتى يكـشف عليه ،

فإن كان مريضاً حجز . وينقل إليه كل مريض حتى يشفى أو يموت ، وحتموا كذلك نشر الثياب ،وتطهير المنازل . حتى لاينتقل منها وإليها الوباء . ولا شك فى أن من أكبر الدوافع لهم على إصدار هـذه القرارات ، المحافظة على سلامة جيوشهم ، ولـكن هذا لا ينفى أن المصريين رأوا ، لأول مرة ، هذه الحيطة والعناية بالصحة العامة .

وعرف المصريون ، شهادة الميلاد ، فقد أمروا بقيد كل مولود . وكذلك أمروا بتسجيل الممتلـكات ، وإضاءة الشوارع والأزقة . كل دار عليها قنديل . وكل ثلاثة دكاكين قنديل . وكان أهل القاهرة يعملون ذلك من قبل . ولـكنهم لم يكونوا حريصين عليه ولا مثابرين ، وقد كانت عناية الفرنسيين بالإضائة ، مما يعينهم على حفظ الأمن ، ويساعدهم فى مراقبة الناس ، وتحرى حركاتهم .

وكذلك أنشأ الفرنسيون إدارة خاصة لجوازات السفر ، وخصصوا ضريبة ثابتة على المواريث . أثنى عليهم فيها الجبرتى . لأن هذه الضريبة كانت ، قبلهم ، يقدرها القاضى كما يشاء . وكان فيها من الغبن والشطط والتعسف ، بل من السرقة أحياناً ، شيء غير قليل . حتى ذكر أن بعض القضاة كان يأخذ ضريبته الثقيلة . فإذا أخذها — ولا بد أن يأخذها أولا — لم يبق للورثة شيء . وكذلك فرضوا رسماً ثابتاً على الأقضية ، وخصصوا وثائق لتسجيل عقود الزواج خاصة .

ومن طيب أعمالهم التى سجلها الجبرتى ، محاربتهم التسول والشعوذة . فقد خصصوا داراً جمعوا فيه المتسولين ، وفرضوا لهم مالاً ينفق عليهم من أموال الأوقاف . وكان بعض البلهاء ، ومدعى الولاية ، يسيرون فى شوارع القاهرة ، عرايا ، يصيحون ويصرخون . مع أنهم ، كما يقول الجبرتى ، لا يصومون ولا يصلون .فسأل الجنرال منو العلماء عن ذلك، وهل هو من الدين ، فأنكروه . فأمر بالقبض عليهم جميعاً . حيث أدخل المريض منهم المستشفى ، وأخرج السليم من القاهرة .

وأنشأوا فى الديوان ماعرف بعد ذلك ، فى الحـكومات المنظمة ، «بالأرشيف» . تحفظ فيه صور الشكاوى والظلامات ، وما يصدر عنه من الأحـكام . وأدخلوا

كذلك شيئاً من التنظيم الحكومى لأمن الدولة . فقد أمروا كل صاحب فندق ، أو خمارة ، أو بيت ، بأن يكتب اسم من ينزل فى محله ، أو يدخله . ويبلغ ذلك لحاكم البلد ، قبل مرور يومين ، مع بيان الجهة التى قدم منها النازل ، أو الزائر ، وسبب قدومه ، ومدة سفره ، والعمل الذى يزاوله[1] .

وتبدو واضحة ، مصلحة الفرنسيين فى ذلك .

وحارب الفرنسيون الرشوة أيضاً . فقد كثرت شكوى الناس من الضرائب وسوء تحصيلها ، وجعلها فى أيد غير مصرية . فترك الفرنسيون أمر تحصيلها « لعقلاء المسلمين » مع ضمانهم لها . على شرط أن يعفى منها النساء ، والصبيان ، والفقهاء ، والخدم ، والفقراء . وكانت الضرائب فى أيدى السابقين ، سبباً من أكبر أسباب الرشوة والظلم .

ويقول الجبرتى إنهم عندما انشأوا الديوان للفصل فى المظالم ، فرضوا لأعضائه ، ومترجميه وكتبته ، مرتبات « تكفيهم ، وتغنيهم عن الرشوة » .

وكان من أثر الحملة الفرنسية ، فى نظم الدولة العامة ، إدخال النظم العسكرية الحديثة فى الجيش . فقد بدأ الجند ، بعد خروج الفرنسيين ، يتبعون نظمهم فى التدريب ، ويلبسون ثيابهم التى يصفها الجبرتى « بالضيقة المقمطة » . وسمى العثمانيون ذلك بالنظام الجديد . ثم سلك محمد على هذا السبيل أيضا ، بعد ذلك .

وزاد على ذلك الإفادة من علوم الفرنسيين واستخدامها . حيث يقول الجبرتى إن محمدا عليا ، وهو يشتغل بسد ترعة الفرعونية « كان يشق الجبل بألغام البارود ، مثل عمل الإفرنج »

وكذلك كان لهم أثر فى العمارة وطرزها ، حيث يقول : إن أحد رجال محمد على أنشأ له داراً عظيمة بخطة باب اللوق ، على نسق الأبنية الإفرنجية والرومية .

وأقاموا مصانع للأدوية ، وطواحين الهواء ، وفرضوا الحجر الصحى فى خارج القاهرة ، وفى الإسكندرية ، ثم فى رشيد ودمياط .

---

(١) عن مخطوط مظهر التقديس ، بذهاب دولة الفرنسيس .

التكافل الاجتماعى والعاطفة الوطنية

وهناك أثر اجتماعى للحملة ، لم يقصد إليه نابليون ورجاله ، وإنما أوجدته الأحداث والظروف ، وهو ظهور التكافل الاجتماعى ، والشعور العام ، الذى يقرّب بين الناس ، ويجمع نفوسهم فى إحساس واحد . ونرى من مظاهر هذا التكافل شيئاً غير قليل ، فيما كتبناه عن مقاومة الفرنسيين فى الجزء الثالث من الكتاب .

ولكنا نذكر هنا أمثلة أخرى لهذا التكافل ، فمن ذلك ماسجله الجبرتى ،عند ذكره شروط الصلح التى خرج بها الفرنسيون من مصر . فقد كان منها أن يدفع المصريون نفقات سفرهم ، وهى ثلاثة آلاف كيس . وتعهد السيد احمد المحروقى بجمعها . فكان الناس يبادرون ،مسرورين ،لدفع مافرض عليهم. لعلمهم أنه سينفق فى خروج الفرنسيين من وطنهم . أو كما يقول الجبرتى ،« كل من توجه عليه مقدار من ذلك ، اجتهد فى تحصيله ، وأخرجه عن طيب قلب ، وانشراح خاطر ، وبادر بالدفع من غير تأخير . ويقول سنة مباركة ، ويوم سعيد » . وكذلك اشترك فى دفع الضرائب التى فرضها نابليون ، المسلمون ، والنصارى، واليهود ، والشوام، والقبط ، والتجار الأجانب .

وكان نابليون ،عند عودته من الشام ، أحضر معه بعض الأسرى من المصريين ، وجدهم يحاربون مع أحمد باشا الجزار فى غزة ، ويافا . فأمر بإطلاق سراحهم ، بشرط أن يدفعوا قدراً من المال ، عجز الأسرى عن دفعه ، فوفّاه عنهم الناس ، وجمعوه من أموالهم .

وكذلك ظهرت عند أهل مصر العاطفة الوطنية ، وأخذت تزاحم ، أو تدافع العاطفةَ الدينية . بل نجد أنها ، وقتاً ما ، تغلبت عليها وقهرتها . وما نجده من خروج أهل القاهرة على العلماء ، واعتدائهم عليهم ،عندما توسطوا فى الصلح بينهم وبين الفرنسيين ، ما نجده من ذلك فى الجزء الثالث من الكتاب ، فيه كفاية وغنية لإبراز ما نريد . وكذلك ما فعلوه بالسيد خليل البكرى .

وإلى جانب هذا التكافل الذى لم يقصده الفرنسيون ، وجد أثر مضادٌّ له ، قصدوه هم ، وأوجدوه . وهو التفريق العنصرى ، أو الطائفى .

فقد ألف نابليون فرقة من المغاربة، حيث جمع له واحدمنهم، اسمه عمر القلقجى، كثيراً من شبابهم • اختار منهـم طائفة ، درَّبها على أصول الحرب . وجعل عمرا هذا قائدا لها . وضمها إلىجيشه . وقد حاربت فرقة المغاربة هذه،المماليك،وحاربت الثائرين من أهل مصر ، مع الفرنسيين .

وكما فعل الفرنسيون بالمغاربة المسلمين ، فعلوا بقبط مصر . جمعوا منهم فرقة ، وأقاموا المعلم يعقوب قائداً عليها .

وكذلك ألفوا فرقة من أبناء الأروام . كان عـددها — على رواية نقولا الترك — ثلاثمائة . وحاربت، بقيادة الجنرال نقولا ، معالفرنسين،فىموقعة الرحمانية ، ضد الأنجليز . ولبس هؤلاء الأروام ، والأقباط ، والمغاربة ، ثياب الجندالفرنسى . وقد تحدثنا عن المعلم يعقوب وفرقته فيما مضى من هذا الفصل .

وكان مما فعله الفرنسيون ، ممـا يثير التفريق المنصرى ، أن جمـلوا بعض النصارى ، من القبط ، والشوام ، نظاراً على أوقاف طلبة الـكتاتيب ، والمقرئين للقرآن . وكذلك جعلوا منهم ، محصلين للضرائب والغرامات ، أوقعو بالناس ، فى القاهرة والريف ، كثيرا من العنت والظلم .

وقد اجتاحت القاهرة ، والأقاليم ، موجة من العدوان على النصارى ، واليهود، ومصادرتهم . كأثر من آثار استخدام الفرنسيين لهم . وكان ذلك العدوان بعد خروجهم من مصر .

الأجانب

وأعتقد أن من أهم الآثار الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية أيضاً ، التى خلفتها الحملة الفرنسية . زيادة الأجانب فى مصر ، زيادة كبيرة . وقد نقل على باشا مبارك ، عن مصادر فرنسية ، أن عدد سكان القاهرة ، سنة دخولهم [١٢١٣ — ١٧٩٨ م] . كان مائتين وستين ألفا . وكان عدد الأجانب فيها أربعمائة « أكثرهم دخلها مع الفرنسيين » أما الأروام ، والشوام ، والمارون ، والأرمن ، فـكانوا نحو اثنين وعشرين ألفا .

وليس هؤلاء الأربعمائة من الأجانب وحـدهم ، هم الذين دخل معظمهم

مع الفرنسيين . بل بقى كثير من جنودهم ، ورجالهم ، فى مصر ، بعد صلحهم وخروجهم منها . وبعض هؤلاء الجنود ، الذين بقوا فى مصر من الفرنسيين ، انضم إلى جيوش المماليك ، وحارب معهم فى الصعيد .

وقد ظهر أثر ذلك بعد زمن غير بعيد من خروج الفرنسيين . فإن اعتماد محمد على على الأجانب ، وعلى الأرمن والفرنسيين خاصة ، أمر معروف . ونجد فى حديث الجبرتى عن محمد على كثيرا من السخط ، لأنه جعل الدولة ، ومناصبها الكبرى ، واختار خاصته ورجاله ، من الأجانب .

٥ — الديمقراطية

ومما سجله الجبرتى أيضاً من آثار الحملة الفرنسية فى حياة الناس ، تعريفهم ، لأول مرة ، بالديمقراطية . فقد أنشأ نابليون ، وقواده من بعده ، ديواناً من المصريين والأجانب ، أو من العلماء وحدهم ، لحكم مصر عن طريقه . وكان مقر هذا الديوان بيت قائد أغا ، قرب الرويعى فى الأزبكية . وأنشأ دواوين أخرى فى كل مديرية أعضاء كل ديوان منها سبعة . وجعل اختيار أعضاء الديوان الكبير فى القاهرة ، والدواوين الأخرى ، فى الأقاليم ، بالانتخاب . وحددت لها اختصاصات ، تتصل بالأمن ، ورعاية العدل بين الناس ، وبحث شكوى الشاكين ، ومظالمهم .

وقد أمر نابليون باستدعاء المشايخ . والوجاقلية ، أى رؤساء الجند ، فانتخبوا أعضاء الديوان الكبير . وعقد بعد ذلك جمعية منه ومن أعضاء الدواوين الإقليمية ، ليستشيرهم جميعا فى النظم التى يرون أن يسير عليها حكم البلاد ، وفى قوانينها القضائية ، والإدارية ، والمالية . وكان انتخاب الشيخ الشرقاوى رئيساً للديوان الكبير ، بالاقتراع السرى .

وقد قال الشيخ الشرقاوى إن هذا الديوان « كان فيه رحمة لأهل مصر » .

فهذه أسس الحياة الديمقراطية ، والبرلمانية . عرفتها مصر من الحملة الفرنسية . ولأمر ما لم تفد مصر منها . ولم تبق فيها . بل لم يبق منها أثر فى الحكم ، ولا فى نفوس الناس وطبائعهم .

وقد سلب الفرنسيون ، عند خروجهم من مصر ، كثيراً من ذخائرها ، وتراثها الفكرى والثقافى . كما سلبوا أموال أهلها ، أو ما بقى من أموالهم مما كان له أثر ، أى أثر ، فى حياتهم الاجتماعية .

ومن ملاحظات الجبرتى على الفرنسيين ، فى مظهر التقديس ، أنهم لا يتحرّزون من كشف عوراتهم ، ومن قضاء حاجتهم الطبيعية أمام الناس ، وعدم التطهر ، بعدها ، بالماء . وعدم التصوّن فى العلاقات بين الرجل والمرأة . وحلق لحاهم ، وشواربهم ، وإطالة شعر رؤوسهم وأجسامهم . وعدم خلعهم الأحذية فى أماكن الجلوس .

عوام أهل القاهرة

ومما سجله الجبرتى على أهل القاهرة ، أيام الفرنسيين ، ولو أنه ليس أثراً من آثارهم . أنهم ، بعد أن رجع نابليون من حملته على الشام ، « تجمع أمام داره بالأزبكية ، أرباب الملاهى ، والنساء « البطالات » وطوائف العـامة ، ورعاع العالم من الحرافيش ، وأكلة الحشيش ، وملاعبى القرود ، والحواة ، والراقصات ، والخلابيص ، والمراجيح ، وغيرهم . كتجمعهم فى أيام العيد والمواسم » وبقى جمعهم هذا ثلاثة أيام . والفرنسيون فى هذه الأيام أيضاً يطلقون المدافع ، ويوقدون السواريخ والحرّاقات . ثم انصرفت جموع القاهريين بعـد أن أعطاهم نابليون دراهم ، وبقاشيش .

فإذا ذكرنا ما كان بين القاهريين والفرنسيين من خصومات ، وما قام به الأوّلون من ثورات جارفة ضد نابليون وجيشه ، مما فصلناه فى الجزء الثالث من الكتاب . إذا ذكرنا ذلك ، كان هذا الذى سجله الجبرتى ، فى العجائب ومظهر التقديس ، أمراً عجيبا حقا ، لا يخلو من دلالة .

ثناء على الفرنسيين

وقد أثنى الجبرتى على الفرنسيين ، لإبطالهم السخرة ، حيث كانوا يفرضون للعمال الأجور ، ويوفونها لهم . بل كانوا يزيدونها عن الأجر المعتاد . وكانوا

يمدّونهم بالآلات التى تريحهم فى العمل ، كآلات جر الأثقال ، ونقل الأتربة . ويريحونهم بعد الظهر . وكانت السخرة شيئاً مألوفاً جداً فى ذلك الزمن . حتى كان العامل الذى يقع من الإعياء والجهد ، يهال عليه التراب ، ويدفن حياً . كما نرى من حديثنا عن محمد على ، فى الجزء الثالث .

ومدح الجبرتى الفرنسيين لقتلهم الـكلاب الضالة . ودقّتهم فى صرف العملة واستبدالها . حتى قال فى ذلك هذه الجملة الصارخة : — « . . لأن جميع معاملة الـكفار سالمة من الغش والنقص ، بخلاف معاملات المسلمين » .

وأثنى عليهم لحبهم العلم . وأمانتهم فى الإشتغال به . وقد ذكر أنه كان يزورهم، مع الشيخ السادات ، فى مساكنهم ، ويرى نقوشهم ، وصنائعهم ، وتصاويرهم ، وغرائبهم ، فيعجب بهذا كله إعجاباً شديداً .

وتلك الصفحات التى سجل فيها وصفه لدار الـكتب التى أقامها الفرنسيون ، فى القاهرة ، وما كان فيها من المصنفات، والـكتب ، والآلات الدقيقة ، والصور ، والرسوم . والنظام الذى وضعوه لزيارتها ، والإفادة منها لمن شاء . ووصفه لتلك التجارب العلمية والـكيمائية التى أجروها أمامه . وكيف وقف أمامها خائفاً ، متعجباً ، مبهوتاً ، كالطفل هذه الصفحات وتلك ، من أجمل ما تضمنه كتابه ، وأكثره طرافة وصدقاً . وقد ذكر فيها أن دار الـكتب تلك ، كانت فيها صور مرسومة للنبى محمد ، عليه السلام ، وحوله كبار الصحابة ، وللخلفاء الراشدين . وللمعراج .

وكذلك وصفه للطائرة « البالون » التى أطلقها الفرنسيون فى سماء القاهرة .

فى الثقافة والفكر

وأعتقد أن الأثر الثقافى للحملة الفرنسية ، فى مصر . لم يكن أثراً ضعيفاً ولولا الملابسات التى كانت سائدة إذ ذاك ، والخصومات العنيفة ، المتلاحقة بينهم وبين المصريين . وقصر الفترة التى أقاموها فى مصر ، واضطرابها ، ولولا الفارق الدينى أيضاً ، لولا هذا وذاك ، لأفادت مصر ، من الفرنسيين ، فوائد كثيرة ، من الناحية الثقافية والعلمية .

ومع هذه الحوائل ، والمعوِّقات كلها نستطيع أن نقول ، إن طائفة غير قليلة من سادات أهل مصر ، وكبار علمائها ورجالها ، قد تركت إقامة الفرنسيين بينهم ، وخلطتهم بهم ، أثراً غير يسير ، فى ثقافتهم ، وفى نفوسهم . ولو أنهم كانوا يتحاشون أن يعرف ذلك عنهم . لأسباب من السهل إدراكها .

فقد عرفت مصر منهم ، لأول مرة ، المطبعة . حيث أحضر نابليون معه مطبعة تطبع باللغات الفرنسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والسريانية ، والعربية[١]. وقرأ المصريون رسائل نابليون إليهم ، ومنشوراته ، وبياناته ، مطبوعة فيها .

وقد تأثرت ثقافة فريق من كبار القوم ، بهذه المعارف والعلوم الجديدة ، التى رأوها عند العلماء من رجال الحملة الفرنسية . والجبرتى نفسه كان ممن تأثروا بهذه المعارف والعلوم ، ولم يخف إعجابه بطائفة منها ، رغم حيطته فى ذلك وحذره . ونجد فى كتابه بعض ألفاظ فرنسية ، مثل « نو » و « مارش » ، وغيرها . وكذلك صديقه الشيخ حسن العطار ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد . وقد كان أكثر صراحة من صديقه الجبرتى ، وأبين إفصاحاً عن تأثره بمعارف الفرنسيين وعلومهم . كما رأينا من ترجمته فى هذا الفصل .

ونجد هذا الأثر ، أو نحسّه ، فيما كتبه شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوى ، فهو يكتب ، لأول مرة . ويقرأ المصريون ، لأول مرة أيضاً ، كلمات الطبيعة ، والإباحية ، والـكثْـلكة . ويعرف كلمات إنكار البعث ، والدار الآخرة ، ونبوة الأنبياء وتحكيم العقل ، والشرائع والأحكام الوصعية . يكتب الشيخ الشرقاوى ذلك فيما كتب عن « حقيقة حال الفرنساوية »[٢] ثم لا نجد عنده من ذلك شيئاً من الثورة أو الغضب . بل نكاد نحس ، فيما كتبه عنهم ، شيئاً قليلا من الرضى والتقدير ، والتأثر بالخلطة والصداقة والمعرفة .

---

(١) عن نقولا الترك

(٢) ص ٧٦ من كتابه تحفة الناظرين

تصويب

وقعت فى هذا الجزء ، بعض أخطاء مطبعية . نورد تصويبها فيما يلى : —

الخطأ	صفحة	سطر	الصواب
كتخذا	٧	١٩	كتخدا
»	»	٢٠	»
الأثسبة	١٠	٦	الأشربة
٣ وبلغ	»	٧	وبلوغ
إلى فى أبيه	١٢	٨	إلى أبيه فى
عليٌّ	١٣	١	عليّ
رعينا	٤٩	٦	راعينا
أفقرته	٥٣	١٠	أفقرته
غينه	٥٩	٤	غنية
مراد	»	١١	مرادا
أكفائهم	٦١	٨	أكفائهم
بيته	٧٣	٢٠	بيته
إحوانه	٧٦	١٠	إخوانه
المطار	١٠٠	١٢	العطار
ييب	١٠١	٤	بيت
يل	١٠١	١٥	بل
محارى	١١١	٢٤	مجارى
نؤرحه	١١٣	١٩	نؤرخه
فها	١١٧	٢٠	فيها
عنع	١٢١	٢٤	يمنع
ينفض	١٢٦	١٥	ينفضن
فيحضروه	١٣١	٥	فيحضرونه
والستون	»	٦	والستين
واسثغاثوا	١٣٦	٤	واستغاثوا
إذ	١٤٧	٢٤	إذا
البر	١٥٠	١٥	البرين
الفحر	١٥١	٣	الفجر
الثائرين	١٥٩	٢٢	الثائرين
أحنبى	١٦١	٥	أجنبى
أن	١٦٢	٦	إن
الهمة	»	١٠	التهمة
شرشسمة	١٦٥	٢٢	سرششمة
أن	١٦٧	١١	إن
والت	١٦٨	٧	ونالت
واحتفت	١٧٣	٢٢	واختفت
حند	١٧٥	٩	جند

الفهرس

